
الشخصية
النسائية



موضوع الكتاب	قصصي		
عنوان الكتاب	الشخصية النسائية		
تأليـــف	هدى عبد اللطيف عريان		
التنضيد	مركز هارون الرشيد للنشر الورقي والرقمي/دمشق		
قياس الكتاب	١٧×٢٤ سم	عدد الصفحات	٤٦٠
تصميم الغلاف	عبادة العقاد | ٠٠٩٠ ٥٥٣٠ ٧٩٢ ٧٩٢		

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

دار غار حراء

سوريا - دمشق - الحلبوني - ص . ب : ٢٥٥٠٧

هاتف : ٠٠٩٦٣١١٢٢١٨٥٣٠ - ٠٠٩٦٣١١٢٢١٩٠٣٧

فاكس : ٠٠٩٦٣١١٢٢٣٧٦٠٦ جوال : ٠٠٩٦٣٩٩٢٩٦٧١٠٢

www.gharhira.com - gharhira@gmail.com



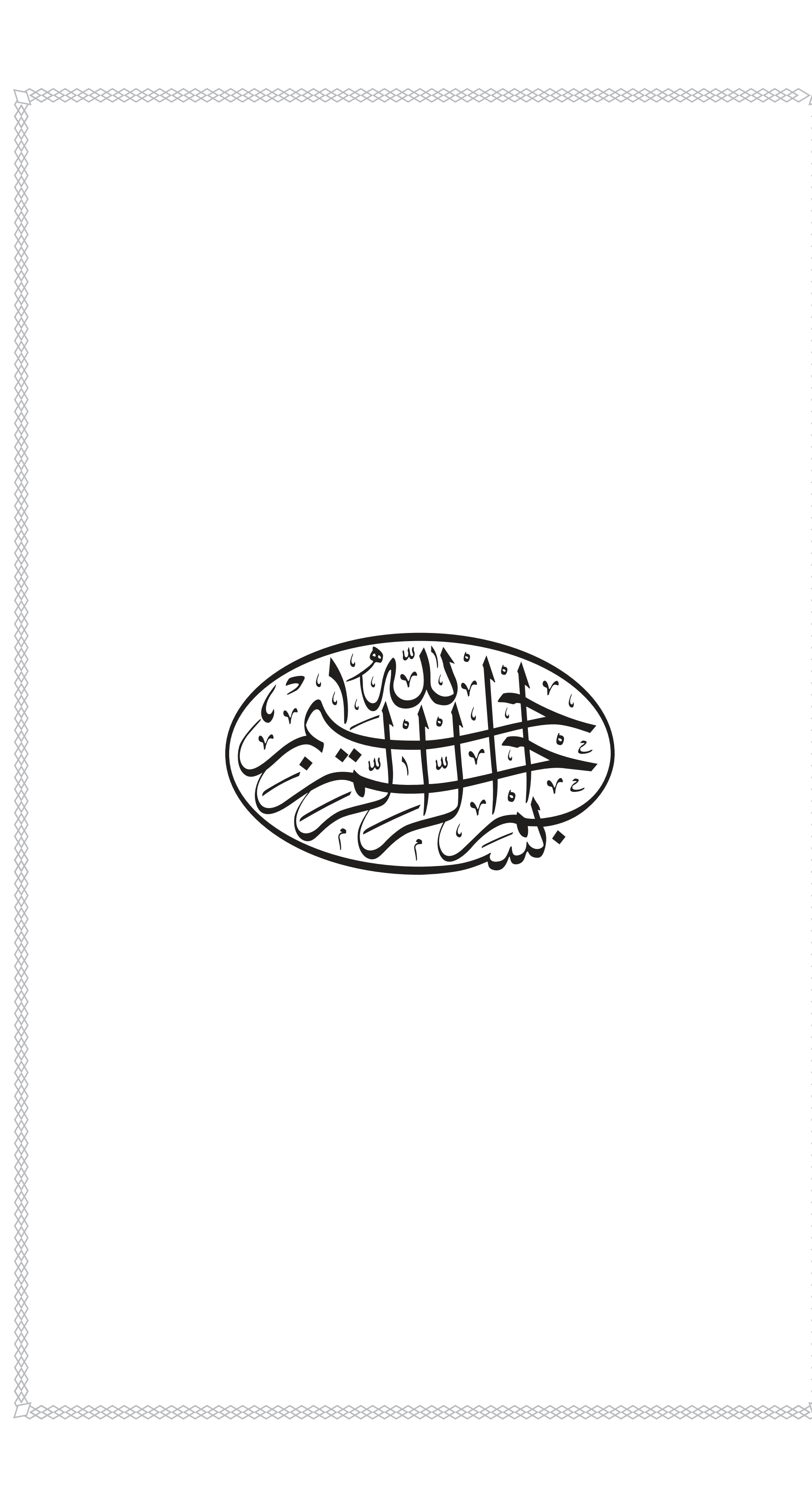
ISBN 978-9933-12-285-0

هدى عبد اللطيف عريان

الشخصية النسائية

ثقافة بلا حدود

دار غار حراء



مُقدِّمَة

﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وثقفه بالعلم، وزينة بالحلم، وجمّله بالتقوى ليتمِّم مكارم الأخلاق .

الحمد لله الذي أنعم على المرأة بالإسلام، ومنّ عليها بالإيمان، فرفع عنها أغلال الجاهلية، وجعلها مع الرجل أساس الإنسانية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ ﴾ [النساء: ١] .

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٠- ٧١] .

إنني أتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى بهذا البحث للفوز برضاه ورضا رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له))** [١] .

أسأل الله تعالى أن يحيينا على هدي كتابه وسنة رسوله ﷺ، وأرجو أن يبلغني شفاعته يوم القيامة مقصدي وإخلاصُ نيتي في بحثي، لنفع المسلمين عامة، وأختي المسلمة خاصة .

---

١ – رواه الإمام مسلم في صحيحه في باب الصدقة عن الميت والدعاء له برقم: (١٦٣١)، والإمام أحمد في المسند ٢/ ٣٧٢ .

وقد غُصتُ في " فوائد ابن قيم الجوزية" فوجدت فيها ضالّتي أيضاً، فاقتنيت من درره الوفيرة ما أرشدني إلى طريق الحق في بحثي، جزاه الله عني كل خير .

يقول ابن القيم الجوزية: (**فقد وجدت أن هناك أشياء ضائعة لا ينتفعُ بها هي: علم لا يعمل به، وفكر يجول فيما لا ينفع، وعمل لا إخلاص فيه، وقلب فارغ من محبة الله، ووقت معطل عن استدراك فارط، أو اغتنام برٍّ وقُرْبة، وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة: إضاعة القلب، وإضاعة الوقت**)[1] .

لذا وجدت أن أسخر علمي ووقتي ونفسي في طاعة الله تعالى، ليسكن قلبي بين يدي الله تعالى وفي خدمة دينه، فلا أعظم من أن يقضي الإنسان وقته في رحاب طاهر، كلما نهل من نوره، تاقت روحه للمزيد!! .

فكان عليّ واجب حمل هذه الرسالة لأنقل الأثر العظيم لشخصية (المرأة في قصص القرآن)، فجمعت بين الطريقتين الموضوعية والتحليلية، لأجسد دور المرأة في تفعيل أحداث القصة القرآنية، ولتكون قدوة حسنة للمرأة المسلمة أو عبرة لمن اعتبر!! .

---

١ – الفوائد لابن قيم الجوزية، طبعة دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م) ص ١٤٦ .

لذا كان أجدر بي أن أبرز دور المرأة في القصص القرآني، لما أحسّه بعمق من مواقف قلّما يشعر بها الرجل، فكان عليّ واجب حمل هذه الرسالة ودراسة شخصيّة المرأة كعنصر من العناصر الفنية للقصة في الأدب القرآني، الذي طالما علّم الجاهلين وأضاء قلوب الضالين، فجعل منهم قادة العالمين، إلى الحق المبين، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

سبب اختيار البحث:

يرجع مبعث اهتمامي بهذا الموضوع وأسباب اختياري له إلى ما يلي:

أولاً: خدمة كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وتقرباً لله سبحانه وتعالى بهما، لأن صلاح هذه الأمة لا يكون إلا في العمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام: **" تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتابَ الله وسنةَ نبيه"** (1).

١- أخرجه مالك في الموطأ، والحاكم عن أبي هريرة بلفظ: "تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنته، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض" صحيح الجامع رقم : (٢٩٣٧) .

ثانياً: توضيح جوانب العظمة في القصة القرآنية: من خلال تجسيد معالم الخير والانسجام مع السنن الكونية، وفي الجانب المقابل مظاهر الضلال المؤدية إلى الانهيار!! .

ثالثاً: تناول المرأة كشخصية أساسية أو ثانوية في العناصر الفنية للقصة القرآنية، ودورها الإيجابي أو السلبي في تفعيل الأحداث، وإبراز موقف الإسلام من قضاياها في ضوء القصة القرآنية .

والرد على من ادّعى (أن المرأة لم تأخذ دوراً رئيسياً في أية قصة من قصص القرآن الكريم، فأدوار المرأة في نظره القاصر دائماً أدوار ثانوية، حتى مع مريم وحواء!!) .

رابعاً: الرد على الغزو الفكري الغربي لمجتمعاتنا الإسلامية، وتشويه موقف الإسلام تجاه قضايا المرأة، كاتّهام الإسلام بأنه سبب تخلف المرأة المسلمة عن مواكبة مسيرة التقدم، التخلف المزيّف الذي يدّعونه، والإسلام بريء من ادعاءاتهم الباطلة!! .

وأسوأ ما في الأمر أن يُمارس هذا الظلم والإجحاف تجاه المرأة (باسم الدين)، مما دفعني لتناول موضوعها في قصص القرآن الكريم لطرح نماذج عن المرأة التي ورد ذكرها في قصص القرآن الكريم، وكان لها الدور الأمثل

والإيجابي في سير الأحداث، وخير مثال نساء النبي ﷺ، موضحة أن ظلم المرأة المسلمة يرجع إلى جهل بعض المسلمين وسوء معاملتهم لها بسبب إهمالهم للعمل بآيات محكمات من القرآن الكريم تؤكد على مكانة المرأة وشراكتها مع الرجل في إعمار الأرض وإقامة الحق والعدل، قال ﷺ : " **إنما النساء شقائق الرجال** " (1).

مما دفعني لتناول موضوع المرأة في قصص القرآن الكريم، لطرح نظرة الإسلام للمرأة الصالحة، والمرأة الطالحة، وإنصافه لها مقارنة بالحضارات السابقة واللاحقة .

ولِمَا رأيناه من إقبال بعض الناس على تأويلات لإيجاد أسباب لواقع المرأة التي وصلت إليه في الآونة الأخيرة من ضياع، وبعد عن جادة الصواب، وتقليد أعمى للغرب، فأوجدوا لها حلولاً ونظريات هدّامة، تحت شعارات الحرية والتقدم المزيّف، فشلّوا إرادتها عن مواكبة مسيرة أمهات المؤمنين، والصالحات القانتات يسرن على نهج رسولنا الكريم ﷺ ، بما أمرنا به سبحانه وتعالى .

---

١ – رواه أبو داود في سننه، باب الطهارة (٩٤)، والترمذي في سننه، باب الطهارة، (٨٢) .

لذا ارتأيت أن أتناول نماذج للمرأة في القصص القرآني لما في ذلك من شريف المقاصد والأغراض .

ومما رسّخ اهتمامي بهذا الموضوع واختياري له، تقريب أسلوب الموعظة القصصية في القرآن الكريم إلى الناشئات والناشئين، وتحبيبهم فيه، وحملهم على الاستفادة من هديه، وقويم نهجه، وليجدوا فيه طريق النور والفلاح والهداية، والحل لأيّ مشكلة تعتريهم، ألا وهو كتاب الله العظيم، سجل من نور ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾[النور: ٣٥] .

فلا مشكلة للمرأة في زماننا كما ادّعى المدّعون، ما دامت تستظل في ظلال القرآن الكريم، وتهتدي بهديه، وتستنير بنوره .

❖ فكانت خطتي في هذه الرسالة أن تطرّقت فيها إلى شخصيات أنثوية عديدة مثّلت الجانب الإيجابي، والجانب السلبي للمرأة في قصص القرآن الكريم .

وقد قسمت الرسالة إلى مقدمة، وتمهيد، وبابين، وكل باب يشتمل على فصول، وكل فصل يتضمن مباحث، ودراسات تطبيقية وتحليلية، وخاتمة .

□

المقدمة

تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، والهدف منه، وأسباب اختياري له، ومبعث اهتمامي به، والمنهج الذي اتبعته فيه، وهو الجمع بين الطريقتين الموضوعية والتحليلية التطبيقية، لأبرز دور المرأة في القصص القرآني، ثم حددت الأبواب والفصول والمباحث، ثم الخاتمة .

ثم اخترت موضوع المرأة مدخلاً للبحث ومقدمة له .

- فتناولت (المرأة) كقضية العصر، وكل عصر! .
- ثم دور المرأة مع الرجل في إعمار الكون .
- والمرأة في الحضارات الإنسانية السابقة للإسلام .
- والمرأة العربية في العصر الجاهلي السابق للإسلام .
- والمرأة في ظل الإسلام .

وتناولت نماذج أنثوية في القرآن الكريم والسنة الشريفة، لتعزيز مكانتها وإنصافها ورد كرامتها الإنسانية، وبيّنت موقف القرآن الكريم والرسول الكريم ﷺ من المرأة .

- المرأة في الحضارات الحديثة، العربية والأوربية، والرد على دعاة التقدم والحضارة المزيفة، وذلك بالعودة إلى التشريع السماوي وسيرة الرسول الكريم ﷺ والاقتداء به، والسير على نهجه في علاقته بالنساء .

الباب الأول :

نماذج المرأة في القصص القرآني

تمهيد: **القصة معناها اللغوي والاصطلاحي ومفهومها القرآني**

➢ الفصل الأول: نماذج إيجابية (في عهد الأنبياء):

المبحث الأول: حواء: في عهد آدم عليه السلام .

المبحث الثاني: مريم بنت عمران: في عهد عيسى عليه السلام .

المبحث الثالث: ملكة سبأ: في عهد سليمان عليه السلام .

➢ الفصل الثاني: نماذج سلبية (في عهد الأنبياء)

المبحث الأول: امرأة العزيز: في عهد يوسف عليه السلام .

المبحث الثاني: امرأة نوح: في عهد نوح عليه السلام .

المبحث الثالث: امرأة لوط: في عهد لوط عليه السلام .

➢ الفصل الثالث: نماذج إيجابية وسلبية في عهد الرسول ﷺ

المبحث الأول: نموذج إيجابي: خديجة رضي الله عنها .

المبحث الثاني: نموذج سلبي: أم جميل (حمالة الحطب) .

الباب الثاني:

نساء الرسول ﷺ في قصص القرآن الكريم

دراسة تحليلية لنماذج إيجابية

- **الفصل الأول:** شخصية السيدة عائشة رضي الله عنها (وحادثة الإفك) "دراسة تحليلية من سورة النور" .
- **الفصل الثاني:** شخصية السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها (وقصة زواج الرسول ﷺ منها) " دراسة تحليلية من سورة الأحزاب" .
- **الفصل الثالث:** شخصية السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها (وقصة التحريم) " دراسة تحليلية من سورة التحريم" .

الخاتمة

وتشمل خلاصة البحث، وأهم النتائج والتوصيات .

وقائمة الفهارس والتي تشمل: الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، وقائمة المصادر والمراجع، والموضوعات الواردة في البحث .

أما منهجي في الرسالة:

أولاً: مهّدت لرسالتي بالإلمام بعالم المرأة إلماماً شاملاً، ودفعني إلى ذلك كوني امرأة أشعر بشعورها وأطمح بطموحها، وأدرك الدوافع ولواعج النفس البشرية عندها، فتطرّقت لعالم المرأة والبيئة المحيطة بها، والقوانين المفروضة عليها في حضارات قديمة وحديثة، مقارنة إياها بالمرأة العربية في عصور ما قبل الإسلام وما بعده . . . لأبين مدى إكرام الإسلام لها وإنصافها ومنحها حقوقاً ومكانة لم تحظ المرأة بمثلها في شرع سماوي، ولا نظام إنساني تواضع عليه الناس فيما بينهم واتخذوا له أحكاماً وقوانين، في أي حضارة أو أي عصر منذ الأزل وحتى يومنا هذا!! .

وتطرّقت لأمثلة عديدة لحضارات مختلفة لنتعرف على البون الشاسع والاختلاف الكبير بين ما تمنحه حضارات الشعوب الأخرى للمرأة، وما منحها الإسلام من كرامة وإنسانية، كأم وزوجة وابنة وأخت وعمة وخالة، وأمّة صانعة تاريخ .

إلا أن هناك من يتاجرون بقضيّتها، ويتسترون وراء حركة تحرير المرأة أهدافاً سياسية!! مؤمنين بأن السيطرة عليها تعني السيطرة على الجيل القادم، فهي مربية الأجيال، وصانعة الرجال!! فيشغلونها بذلك عن الاقتداء بنساء

النبي ﷺ والمؤمنات الصالحات، وبذلك تصبح الحياة صراعاً ملتهباً بين المرأة والرجل، وتتأزم العلاقة بينهما، فلا تعرف السعادة طريقاً لقلبيهما!! .

ثانياً: قمت بدراسة فنية شاملة لمفهوم (فن القصة في القرآن الكريم)، وبدأت بالتمييز بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، والمفهوم القرآني لمعنى القصص، ثم تناولت مسيرة القصة التاريخية، ودورها في الدعوة الإسلامية، وتناولت أهم المزايا التي تؤكد على دورها الهام في الدعوة الإسلامية، وحددت أهدافها وأنواعها، كما تناولت منهج القصة القرآنية، وأهم مميزاتها الفنية العامة، وتطرّقت إلى ظاهرة التكرار كخصيصة من خصائص القصة القرآنية، بالفهم السليم لهذه الخصيصة والهدف من ورائها، ثم حدَّدتُ عناصر القصة القرآنية مقارنة مع أوجه الاختلاف مع عناصر القصة البشرية، وتوسعت في عنصر الشخصية عامة، وشخصية المرأة خاصة في القصص القرآني .

ثالثاً: لم أسرد جميع القصص الواردة في القرآن الكريم، بل اقتصرت على بعض القصص التي ترد فيها شخصية المرأة، وتنوّع دورها بين الجانب الإيجابي والجانب السلبي، وبين الدور الثانوي والدور الرئيسي، لأبين الدور المهم لشخصية المرأة في قصص القرآن الكريم خاصة، والدور العظيم للقصة القرآنية في الدعوة الإسلامية عامة .

رابعاً: قمت بدراسة القصة القرآنية دراسة تحليلية، فقرنت الدراسة الموضوعية بالدراسة التحليلية والتطبيقية، لأؤكد على دور المرأة في القصة القرآنية من الناحية الفنية: هل دورها ثانوي أو رئيسي؟ ومدى تفعيله في سير الأحداث، وتحقيق العظة والعبرة المستفادة منه، مبيّنة أهم الدروس المستقاة، وأهم ما ورد من أحكام وعبر في القصة القرآنية، وذلك من خلال دراسة نصوص قصصية في القرآن الكريم:

١- في سورة النور (قصة حادثة الإفك) والسيدة عائشة رضي الله عنها.

٢- في سورة الأحزاب (قصة زواج الرسول ﷺ من السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها) .

٣- في سورة التحريم (قصة التحريم والسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما) .

- وتطرقت إلى قصص نساء في عهد النبي ﷺ، وذلك كنموذجين متباينين من النساء:

النموذج الإيجابي: (السيدة خديجة رضي الله عنها) .

النموذج السلبي: (أم جميل حمّالة الحطب) .




ثم تحدثت عن نساء أخريات من عصور الأنبياء، في ضوء القصص القرآنية:

كنماذج إيجابية: أمثال: (حواء، مريم بنت عمران، ملكة سبأ) .

كنماذج سلبية: أمثال: (امرأة العزيز، المرأة لوط، المرأة نوح) .

خامساً: حاولت جهدي أن تكون مصادري ومادة بحثي مستمدة من القرآن الكريم وعلومه، بالإضافة إلى كتب الأحاديث الشريفة والسنن وكتب التفسير القديمة والحديثة .

- كتفسير الطبري والقرطبي وابن كثير والرازي والسيوطي والآلوسي وتفسير الجلالين وسيد قطب وصفوة البيان لمعاني القرآن لمحمد مخلوف وصفوة التفاسير للصابوني وغيرهم .

- وموسوعة الحديث الشريف التي تضم: صحيحي البخاري ومسلم، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجه، المعروفين بالجماعة، وغيرها .

- وقد اعتمدت على كتب يفوح منها عبق التراث الأصيل ذوات الصفحات الصفراء العتيقة، والتي تضم بين سطورها تاريخاً مجيداً، وجذوراً وأصولاً عتيدة، كأمهات الكتب في التاريخ والأدب والفقه والمعاجم، بالإضافة إلى أقوال المعاصرين من أهل العلم والأدب، وغير ذلك كالكامل




للمبرد، والأمالي للقالي، والبداية والنهاية لابن كثير، ونهاية الأرب للنويري، وسير أعلام النبلاء للذهبي، وأسد الغابة لابن الأثير، والسمط الثمين للطبري، وقصص الأنبياء للشعراوي، ولسان العرب لابن منظور، وغير ذلك .

وكانت كتب الطبقات والسير والتراجم من روافد بحثي، منها سيرة ابن هشام، وسيرة ابن إسحاق، والطبقات الكبرى لابن سعد، وغير ذلك .

كما جمّلت بحثي بنوادر القصص والأخبار، وروائع الأمثال والأشعار، بالإضافة إلى ذلك اعتمدت على كتب الثقافة المتنوعة، ليكون البحث وحدة متكاملة يعطي الفائدة، ويرفد بالعطاء .

سادساً: تقيدت بشروط البحث العلمي من توثيق جميع النقول والشروح والتفاسير، وتخريج الآيات القرآنية الواردة في الرسالة، وتحديد اسم السورة ورقم الآية، وتخريج جميع الأحاديث الشريفة في مواضعها بحواشي الكتاب، وذكر الراوي ومصدر الحديث لتحقيق الدقة والأمانة، وتفسير ما في القرآن والحديث من ألفاظ غريبة، مستعينة بكتب اللغة وغريب القرآن والحديث ليكون البحث وثيقاً موثقاً .

وقد اتّبعت في توثيقي منهج البحث العلمي الصحيح .

سابعاً: إن الرحلة مع نساء أهل البيت الشريف تحمل بين طياتها نفحاتهن العطرة، لذا كان لي الشرف العظيم أن أتعطّر بسيرتهن المباركة في بعض قصص القرآن الكريم، لأبيّن دورهنّ المشرّف في أحداث القصة القرآنية، مبينة بجلاء ووضوح هذا الدور العظيم في الدعوة الإسلامية، وفي الحياة العلمية والعملية، وفي رواية الأحاديث الشريفة، من خلال التطرّق إلى سيرتهن العطرة، في سرد القصة القرآنية .

ولنستلهم من سيرتهن عبير الفضائل، وكريم الشمائل، ونفح الإيمان العظيم، ليكنّ القدوة الصالحة لنساء المسلمين عامة، ولكل امرأة في هذا الوجود .

ولما كانت للمرأة النصيب الأوفر من خلال دراسة الظواهر الأدبية والفنية للقصة القرآنية، فقد توقفنا على عبر رائعة، وعظات بالغة، بتقوية الإيمان، وتهذيب السلوك والنفوس، وبذلك نكون قد وجّهنا البشرية إلى القصص القرآني، وأسلوب الموعظة القصصية في القرآن، لما فيها من الحق والنور، أن تحملهم على الاستفادة من هديه وقويم نهجه .

فما أحوج البشرية اليوم إلى أن تتمعن بقصص القرآن الكريم، وتتدبر سوره فتأخذ منها العبرة والعظة، وتتمثلها واقعاً وسلوكاً حياتياً، وعملاً

أخلاقياً، لذا اخترت التعمق والإطناب والتحقيق والإبحار في هذا الموضوع، وفي هذا العالم الروحاني السامي، بعيدة عن العالم المادي الذي شوّهته أيادي العابثين بكل جمالياته وسموه .

فعشت أجمل لحظات عمري في رحاب القرآن الكريم، بصفاء نفسيّ، وسموّ روحي، وتكامل إنساني، لأستزيد من علمه، وأستنير بنوره، وأسمو بسموه، ولأتجمّل وأتكمّل به، بفهم واعٍ، وشعور ملهم، ووجدان أصيل، وشفافية لمّاحة، فأصل إلى بر الأمان والإيمان في واحة القرآن، وراحة اليقين والاطمئنان .

ثامناً: ختمت رسالتي بخلاصة عن الموضوع، وأهم النتائج المستفادة منه، والتوصيات والتوجيهات، وأوردت الفهارس المتنوعة:

١- فهرس الآيات القرآنية .
٢- فهرس الأحاديث الشريفة .
٣- فهرس المصادر والمراجع .
٤- فهرس الموضوعات العامة .

أسأل الله تعالى أن يجعل بحثي نافعاً، وأن يتقبله مني، ويغفر لي زلتي وضعفي، وأسأله سبحانه أن يعينني على شكره على ما أنعم علينا من حقوق نتمتع بها، ومن واجبات نؤجر على أدائها .

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، إنك سميع مجيب الدعاء .

الباحثة

هدى عبد اللطيف عريان



الباب الأول

نماذج المرأة في القصص القرآني



مقدمة: المرأة في الحضارات القديمة

تمهيد: القصة معناها اللغوي والاصطلاحي ومفهومها القرآني

- **الفصل الأول**: نماذج إيجابية (في عهد الأنبياء):

المبحث الأول: حواء: في عهد آدم عليه السلام .

المبحث الثاني: مريم بنت عمران: في عهد عيسى عليه السلام .

المبحث الثالث: ملكة سبأ: في عهد سليمان عليه السلام .

➢ **الفصل الثاني: نماذج سلبية (في عهد الأنبياء)**

المبحث الأول: امرأة العزيز: في عهد يوسف عليه السلام .

المبحث الثاني: امرأة نوح: في عهد نوح عليه السلام .

المبحث الثالث: امرأة لوط: في عهد لوط عليه السلام .

➢ **الفصل الثالث: نماذج إيجابية وسلبية في عهد الرسول ﷺ**

المبحث الأول: نموذج إيجابي: خديجة رضي الله عنها.

المبحث الثاني: نموذج سلبي: أم جميل (حمالة الحطب) .

□

مقدمة

المرأة في الحضارات القديمة

أصبحت المرأة في عصرنا الحاضر السيرة المتداولة بين القادة السياسيين على مساحة العالم كله، وأصبحت هناك جملة من المصطلحات التي تتناول موضوع المرأة المعاصرة، فمنهم من أنصفها وعرف لها قدرها ومكانتها، ومنهم من قلل من شأنها ووجودها ودورها، ومنهم من جعلها القضية الكبرى للبشرية قاطبة .

ومع قناعتنا بما يجب أن تناله المرأة من سمو المكانة وعلوّ القدر وعظيم الدور في الحياة، إلا أن بعض الآراء تتأرجح بين مغالٍ أشد الغلو، وبين مهمل لها أشد الإهمال، كان لا بد لي من توجيه البحث إلى موضوع المرأة من خلال دورها الذي حفظه لها الإسلام .

لقد جعلوها قضية العصر، فامتدت إلى كل عصر!!

دفعوها للمطالبة بحقوقها، فشغلوها عن دورها الأساسي في الحياة ورسالتها التي شرّفها الله بها .

ضلّوا . . وضلّت من اتّبعت ادعاءاتهم الواهمة، وتخرصاتهم الكاذبة، ولكن فليعلموا أن طريق الهداية لهم وللمرأة فيما جاء به قرآننا العظيم، والسنة

الشريفة . قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ ﴾ [طه: ١٢٣،١٢٤] .

فالرجل والمرأة جناحان يظلان الحياة الإنسانية، ليحققوا لها الانسجام والاستمرار الآمن في ظل المودة والرحمة .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١] .

لقد خلق الله تعالى الرجل والمرأة ليتعاونا في رحلة الحياة الشاقة، فكان كل منهما بلسماً للآخر، فجعل بينهما التآلف والانسجام والسكينة، والتعاون في السراء والضراء .

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ ﴾ [الأعراف: ١٨٩] .

أما إذا عدنا إلى صفحات التاريخ، وتصفحنا الحقائق التاريخية والحضارات الإنسانية، لوجدنا أن المرأة قد هُضمت حقوقها ونفيت عنها

إنسانيتها، ونُظر إليها نظرة التعالي والإذلال والاستعباد، على أنها خلقت للخدمة في البيوت الزوجية، وكأنها خلقت للقهر والإمتاع لا غير، وجرّدت من أهلية التصرف فطمست كرامتها الإنسانية، وأما الرجال فهم السادة والأحرار وصناع الحياة .

ففي ظل هذه القوانين والنظم العالمية السابقة على الإسلام، فقدت المرأة حقوقها، وشوّهت واجباتها، وفيما يلي بعض الأمثلة:

١- في القانون الصيني: كانت القاعدة: (ليس في العالم كله شيء أقل من قيمة المرأة)، (النساء آخر مكان في الجنس البشري، ويجب أن يكون من نصيبهنّ أحقر الأعمال) [1]، وكانت تعتبر علامة نحس يحرم عليها النظر في وجه إنسان [2] .

ومما يذكر عن المرأة الصينية في الكتب الدينية القديمة بأنها سميت بالمياه المؤلمة التي تغسل السعادة والمال، وأعجب من ذلك هو أنه لغاية السنين القريبة الماضية كانوا يصنعون للبنات الصينيات أحذية مخصوصة حتى تبقى أرجلهن صغيرة لكي لا تصل إلى رشدها ونموها الطبيعي [3] .

---

١ – مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية، سالم البهنساوي، دار القلم، الكويت، الطبعة الثانية ١٩٨٦م، ص١٣ .

٢ – المرأة عبر التاريخ، مونيك بيتر، ص٥٤ .

٣ – تطور المرأة عبر التاريخ، باسمة كمال، مؤسسة عز الدين للطباعة، بيروت، ١٩٨١م، ص٤٢ .

٢- **في القانون الهندي:** كانت الحضارة الهندية أقسى من الحضارة الصينية، إذ تقضي العادة عندهم بإحراق الزوجة وإزهاق حياتها بموت زوجها ووفاته، كأنها وجود ملحق به لا تستحق العيش بدونه [1] .

وظلت هذه العادة حتى القرن السابع عشر، والتي هي إحراق الزوجة إذا مات زوجها لتصبح رماداً مع جثته التي تقضي شرائعهم بحرقها [2] .

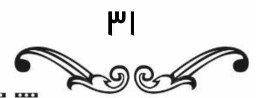
٣- في القانون اليوناني: رغم وفرة نصيب اليونان من الفلسفة والفن لم يرتفعوا بالمرأة إلى منزلة أعلى من منزلة الخادم، وكانوا يُسكنون الزوجات في حجرات تقل فيها النوافذ، ويندر خروجهن إلى الأسواق، غير أنهم كانوا يجلّون ويحترمون المرأة الكاهنة، والمرأة الساحرة، ولعله لما اتصفن به، وليس بإجلال للمرأة ذاتها [3] .

---

١ - المرجع السابق، ص١-١٤ بتصرف .

٢ - مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية، ص١٤ .

٣ - موسوعة أحكام المرأة المسلمة، نشوة العلواني، دار المكتبي دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٢،ص١٣ . المرأة بين هداية الإسلام وغواية الإعلام، صلاح الدين مقبول أحمد، دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص١٨ .



والمرأة عند اليونانيين مخلوق نجس [1]، وصفها شاعرهم هزيود: (بأنها منحت عقلاً كعقل الكلاب، وأخلاقاً كلها ختل [2] ودهاء) [3] .

وفوق ذلك فإنهم كانوا يعتبرون النساء عامة رجساً من عمل الشيطان، وعلى هذا الأساس يجعلونهن محرومات من حقوق الإنسانية، وكان قدماء اليونان يعتقدون أن المصائب في الآمال والفشل في نيل المطلوب إنما تأتي من غضب الأصنام المعبودة الباطلة لديهم، ولهذا فإنهم عند حلول أي مصيبة في المجتمع أو خيبة أو فشل كانوا يقدمون البنات قرباناً إلى آلهتهم، ويلتجؤون إليها بهذه الوسيلة الجاهلية في رفع المصيبة [4] .

وقال فيها المفكر اليوناني الشهير: (إننا نتخذ العاهرات للذة، والخليلات لراحة أجسامنا اليومية، والزوجات ليلدن لنا الأبناء) [5] .

---

١ – المرأة عبر التاريخ، مونيك بيتر، ص٥٩، مرجع سابق .

٢ – الخَتل: الخداع عن غفلة، وخاتله: خادعه . الوجيز، ص٢٩٤ (مادة خ ت ل) .

٣ – قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، جامعة الدول العربية الإدارة الثقافية لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ١٩٥٣م، ص١٨٨ .

٤ – المرآة وحقوقها في الإسلام، مبشر الطرازي الحسيني ،ص٩ .

٥ – مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية، سالم البهنساوي، ص١٣ .

فلا أهمية قانونية للمرأة، ولا حقوق اقتصادية أو اجتماعية لها من أي نوع كان، بل إن إنسانيتها كانت موضع شك [1] !! .

فهذا سقراط يقول: (إن وجود المرأة هو أكبر منشأ ومصدر للأزمة والانهيار في العالم . . . وأن المرأة تشبه الشجرة المسمومة ظاهرها جميل . . . ولكن عندما تأكل منها العصافير تموت في الحال) [2] .

كما كانوا ينظرون إلى المرأة كمتاع، وربما يعرضونها في السوق للبيع، ويبيعونها، وكان هذا من حق الزوج على زوجته متى شاء!! .

٤- **في القانون الروماني:** بالرغم مما وصل إليه الرومان من حضارة، إلا أنّ المرأة لم يكن لها نصيب من تلك الحضارة، إذ كان قدماء اليونان يعتبرون المرأة أداة الخداع وإفساد قلوب الرجال، يستخدمها الشيطان لأغراضه الشيطانية، ولهذه العقيدة كانوا ينظرون إليها نظرة الإذلال والاحتقار، بل يفرضون عليها عقوبات متنوعة شتى يأباها الضمير الإنساني، ويحرّمها العقل البشري .

---

١ – المرأة في موكب الدعوة، مصطفى محمد الطحان، ص١٢ .

٢ – المرأة ومكانتها في الإسلام، أحمد عبد العزيز الحصين ،ص١٧ .

وإن تاريخ الرومان يروي لنا أن مؤتمراً كبيراً انعقد في روما حيث بحث في شؤون المرأة وانتهى إلى اتخاذ قرارات كما يلي:

١- إن المرأة ليس لها (شخصية إنسانية)، ولهذا فإنها لا تستطيع أن تنال الحياة في الآخرة .

٢- يجب على المرأة أن لا تأكل اللحم وأن لا تضحك، وحتى يجب عليها أن لا تتكلم .

٣- إن المرأة رجس من عمل الشيطان، ولهذا فإنها تستحق الذل والهوان في المجتمع .

٤- وعلى المرأة أن تقضيَ حياتها في طاعة الأصنام وخدمة زوجها .

حتى إنهم كانوا يضعون قفلاً على فم المرأة لمنعها حتمياً من الكلام، فكانت المرأة تعيش في بيتها وتمشي في الشوارع وفي فمها قفل من حديد، كانوا يسمونه " موزلير " [1] .

---

١ - المرأة وحقوقها في الإسلام، مبشر الطرازي الحسيني، ص ١٠-١١ بتصرف .

كما اعتبروها حيواناً نجساً يحرم عليه دخول المعابد، ولذلك فليست مؤهلة لدخول الجنة، واعتبروا أنوثتها سبباً من أسباب انعدام أهليتها في نظر القانون [1] .

٥- **المرأة عند الفرس:** كانت في انحطاط وذلة أيضاً، فإن التقاليد القديمة في فارس كانت تهين المرأة وتنظر إليها نظرة التعصب المذهبي الباطل والتشاؤم بها، وكانت تحت سيطرة الزوج يتصرف في زوجته تصرفه في ماله ومتاعه، كما كان تعدد الزوجات شائعاً دون شرط أو تحديد عدد [2] .

٦- **المرأة عند اليهود:** إن الذي يتصفح التوراة- بوضعها الحالي- يجد فيها أشياء نُسبت للمرأة تُحقِّر من شأنها، فقد جاء ما يفيد أن حواء هي التي أغرت آدم أن يأكل من الشجرة التي صدر له الأمر الإلهي بعدم الأكل منها. كما يعتبرونها إذا حاضت نجسة، تنجس أي شيء تمسّه، ومنهم من كان يطردها من البيت أثناء تلك الدورة [3] .

---

١ - المرأة عبر التاريخ، مونيك بيتر، ص٥٤ .

٢ - المرأة وحقوقها في الإسلام، مبشر الطرازي الحسيني، ص١٢

٣ - مكانة المرأة في الإسلام، حسن الحفناوي، ص١٥ .

كما كانوا يعتبرونها بمنزلة الخادمات، وكانت تقاليدهم تعطي لهم الحق في أن لا يزوجوا بناتهم فتعيش طول الحياة في الخدمة، كما كان لهم الحق في أن يبيعوهن بيع الإماء، ولم يكن للبنات حق في الميراث [1].

والقوانين الحديثة عند اليهود تنص على أنه إذا توفي الزوج، ولا ذكور له، تصبح أرملته زوجةً لشقيق زوجها، ولا تحل لغيره إلا إذا تبرأ منها، وهذا الحكم ما زال مطبّقاً حتى اليوم لأنه حكم التوراة، والتي أوضح الإسلام أنّ التوراة قد حُرّفت في أمور، وهذا منها [2].

٧- **مكانة المرأة في التشريعات القديمة:** إن أقدم تشريع ظهر حتى اليوم هو التشريع القانوني لمدينة بابل، والذي يرجع إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد .

هذا التشريع يعطي رب الأسرة حقّ بيع أفراد أسرته، أو هبتهم إلى الغير مدة من الزمن .

---

١ - المرأة وحقوقها في الإسلام، مبشر الطرازي الحسيني، ص١٣ .

٢ - مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية، سالم البهنساوي،ص١٥ .

وهذا القانون فيه (إذا الزوج طلق زوجته تُلقى في النهر، ولكن إذا أراد عدم قتلها نزع ثوبها عن جسمها وطردها من منزله نصف عارية، إعلاناً منه بأنها أصبحت شيئاً مباحاً لكل إنسان) [1].

ولما أراد حمورابي حماية الزوجات أصدر قانوناً ينص على أن المرأة إذا أهملت زوجها أو تسببت في خراب بيتها تُلقى في الماء، ونص أنه عند اتهام الزوجة بالزنى دون أن يوجد دليل على ذلك تُلقى في النهر وتغطس في الماء، فإن عامت على وجه الماء كانت بريئة، وإن غطست اعتبرت آثمة .

والجدير بالذكر أن التوراة ظهرت بعد قانون حمورابي وفيها: (أن المرأة المتهمة بالزنى يسقيها الكاهن بالماء المرّ المشوب بالغبار، فإن كانت قد خانت فعلاً دخل الماء في المرارة فيتورم بطنها وتسقط ركبها، وتظل ملعونة بين شعبها، وإن لم تكن خائنة لم يضرها الماء وتبرأ) [2].

---

١ – مركز المرأة في قانون حمورابي والقانون الموسوي، جان أمل دبك، ترجمة سليم العقاد، ص٣٣ . ومكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية، سالم البهنساويّ ص١٩ .

٢ – المرأة بين الفقه والقانون، د . مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٤، ص١١–٢١ بتصرف.



٨- **المرأة في أوربا والقوانين الكنسية:** ابتكرت أوربا في العصر الوسيط حزاماً يُعرف بحزام العفة يمنع المرأة من أي اتصال بغير زوجها [1] .

ولم تتمتع المرأة قط بشيء من حقوقها، فهذا ترتوليان- من كبار قساوسة أوربا- يقول عن المرأة: (المرأة مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، وإنّها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة، ناقضة لقانون الله، ومشوّهة لما صوره الله) .

وفي عام (١٥٦٧م) صدر قرار من البرلمان الأسكوتلاندي يقضي بأن المرأة لا يجوز أن تُمنح أية سلطة على أي شيء من الأشياء، وأصدر البرلمان الإنجليزي قراراً في عصر هنري الثامن – ملك انجلترا – يحظر على المرأة أن تقرأ الإنجيل، وذلك لأنهم يعتبرونها نجساً فلا يصح أن تقرأه، وصدر قانونه في فرنسا سنة ١٩٤١م الذي يعتبر الزوجة ناقصة الأهلية [2] .

وفي القرن الخامس انعقد مجمع (ماكون) المسيحي المقدس للنظر في حقيقة المرأة، هل هي جسم بلا روح؟، وكان القرار أنّ المرأة لها روح شريرة غير ناجية من العذاب، فيما عدا أم المسيح فإنّها وحدها ذات روح ناجية من

---

١ – مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية، سالم البهنساوي، ص ١٩ .

٢ – مكانة المرأة في الإسلام، حسن الحفناوي، ص١٥، والمرأة في موكب الدعوة، مصطفى محمد الطحان، ص٢٥ .

عذاب النار، بل من علمائهم من أبدى أن النساء خطيئة جسمية، وأجسامهن من عمل الشيطان ويجب أن نلعنهن [1] .

وسنة ٥٨٦هـ انعقد مؤتمر في فرنسا للبحث هل المرأة من البشر أم لا؟ وكان القرار: أنها إنسان خُلق لخدمة الرجال فقط .

ولما قامت الثورة الفرنسية وأعلنت الحرية والمساواة، لم تستطع أن تمتد إلى المرأة، فالقانون المدني الفرنسي قبل تعديل سنة ١٩٤٢م كان يعد المرأة ناقصة الأهلية ولا يسمح لها بالتعاقد إلا بإذن وليها، وبعد التعديل أُبيح للمرأة الرشيدة غير المتزوجة حق التعاقد والتصرفات المالية، أما المتزوجة فلا يسمح لها بالتعاقد بالبيع أو الشراء أو الهبة أو الرهن أو غير ذلك إلا بعد موافقة زوجها على العقد أو إجازته لها [2] .

وفي تقاليد إيطاليا: (كانت بعض بلدانها تعدّ الزوجة خادمة في المنزل وعليها أن تجلس على الأرض بينما يجلس الرجل على المقاعد، وإذا ركب زوجها الحصان فلا بد أن تسير على قدميها خلفه مهما كان بعد المسافة!) [3] .

---

١ - المراجع السابقة .

٢ - المرأة بين الفقه والقانون، مصطفى السباعي، ص٢١ .

٣ - قصة الحضارة، ويل ديورانت، ص١٧٩، ومكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية، سالم البهنساوي، ص١٤ .

ولنستمع إلى الفيلسوف الإنكليزي هربرت سبنسر في كتابه (وصف علم الاجتماع) يقول: (إن الزوجات كانت تُباع في إنكلترا حتى القرن الحادي عشر، وإنه حدث أخيراً في القرن الحادي العشر أن المحاكم الكنسية سنّت قانوناً ينص على أن للزوج أن يعير زوجته لرجل آخر لمدة محدودة، وشر من ذلك ما كان للشريف النبيل من الحق في الاستمتاع بامرأة الفلاح إلى مدة أربع وعشرين ساعة من بعد عقد زواجها عليه) [1].

وما زالت هناك فوارق غير طبيعية بين الرجل والمرأة في الدول الغربية حتى عصرنا الحاضر، تتعلق بحصولها على نصف أجر الرجل، وفقدانها اسمها وحريتها المالية بمجرد الزواج، ورغم ذلك فإن التقليد للمرأة الغربية والأمريكية أعمى؟! .

فالشائع الآن أنها المرأة المتحررة التي حصلت على كل ما تريد من حرية وتمرد على طبيعتها البشرية، بل راود بعضهن أنها رمز الحرية وتحقيق الذات .

" أيّ حرية هذه بعد ما سبق من سيرة عبودية الغرب للمرأة عندهم ؟! ".

٩- المرأة العربية في الجاهلية: كانت في الجاهلية مهدورة الحقوق، ولكن لم يصل بها الوضع كحال المرأة في غير بلاد العرب، لأن الشيم العربية من

---

١ - المرأة في موكب الدعوة، مصطفى محمد الطحان، ص٢٥ .

مروءة وشهامة وأصالة كانت تحمي المرأة من ضياع حقوقها ضياعاً مشيناً، كما رأينا في الحضارات السابقة .

لذا لا يمكننا أن نكوّن نظرة شاملة عن حال المرأة بالاطّلاع على أحوال بعضهن، من مكانة رفيعة ووجاهة وسيادة (كماوية) امرأة حاتم الطائي، والسيدة (خديجة بنت خويلد) رضي الله عنها.

كما لا نستطيع أن نحكم حكماً عاماً على جميع القبائل العربية في الجاهلية، إذ كانت أحوال المرأة في الجاهلية متناقضة ومختلفة بين قبيلة وقبيلة، فمنهم من كان يكرمها، ومنهم من كان ينظر إليها بمنظار العار والهوان تلحقه بقبيلتها .

ومن مظاهر تكريم المرأة لبعض القبائل، أخذ رأيها فيمن يتقدم لخطبتها، وحتى يتكنى بعضهم ببناته، كأبي أمامة النابغة الذيباني، وأبي سفّانة حاتم الطائي، وأسمى هذا التكريم عندهم أن سمّوا آلهتهم تسمية الإناث .

وعاب القرآن الكريم عليهم هذا، فقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾[1] إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ

١ - ضيزى: جائرة .

ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩ – ٢٣] .

لقد سَمَا العربي بفطرته في الجاهلية، فنزلت المرأة في نفسه منزلة رفيعة، فهي الأم والأخت والابنة والزوجة والحبيبة، فكان يفتتح قصائده بمخاطبتها، ومناجاتها في سرّه وعلنه، كقول عنترة:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرْكِ من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم [1]

وكان الجاهلي يحنو على بناته، يرقّ لهنّ ويرثي لضعفهن، كقول حطان ابن المعلّى:

لولا بُنَيَّاتٍ كزُغْبِ القطا ... رُدِدْنَ من بعض على بعض
لكان لي مضطرب واسع ... في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادُنَا بيننا ... أكبادُنَا تمشي على الأرض
لو هبّت الريحُ على بعضهم ... لامتنعت عيني عن الغَمْضِ [2]

كما كان للمرأة الحق في أن ترفض زوجها، فإذا حوّلت باب خيمتها عرف الرجل أن المرأة قد رفضته فلا يحقّ له الدخول .

---

١ – تاريخ الطبري، أبو جعفر بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف: ١/ ٦١٢ .

٢ – الإسلام والمرأة، سعيد الأفغاني، ص١٥ .

وكان اختيار الأمهات أول ما يفكر فيه الجاهلي إذا أراد النجابة لأولاده، حتى أنه يمنّ عليهم إذا كبروا حسن اختياره لأمهم:

وأول إحســـاني إليكم تَخَيُّرِي   لمـــاجِدَةِ الأَعْرَاْقِ بَـــاْدٍ عَفَاْفُهَـــا [1]

وكان في الجاهلية أيضاً شاعرات، ومقاتلات احترفن الشعر والبطولة، ولهن في ذلك المكانة السامية، وكنّ ذوات رأي ونفوذ .

أما في الحروب فكان للمرأة الجاهلية دور في التمريض والعناية بالجرحى وسقي الماء، وتحميس المحاربين .

ولننظر إلى الجانب الآخر لوضع المرأة في الجاهلية لنرى بعض ما لحق بها من الظلم والذل والعبودية عند بعض القبائل العربية، ولنبدأ بأقبح عادة وأشدّها مهانة وهي:

- **وأد البنات:** ومصدر هذه العادة المشؤومة هي الغلو في كراهيتهم للأنثى، وبلغ من غيرة بعضهم في الجاهلية، أن يقتلوا بناتهم بالوأد لئلا يرتكبن ما يجرّ عليهم العار، ولم يكن الوأد عاماً في قبائل العرب، ولا كان قديماً عندهم، وإنما حدث قبيل الإسلام، وكان منحصراً في بعض القبائل العربية

---

١ - المصدر السابق، ص١٩ .

(ككندة وربيعة وبني تميم)، وقد ظهر فيهم لسبب طرأ عليهم، ذكروا أنهم كانوا يؤدون الأتاوة (الجزية) إلى النعمان ملك الحيرة، فمنعوها سنة من السنين، فجرد عليهم النعمان كتائبه وساق أنعامهم وسبى ذراريهم، فعظم ذلك على التميميين، فوفدوا عليه يطلبون أهليهم وأموالهم، فأبى، فقالوا: أعطنا النساء، فقال: إننا نخيرهن في الذهاب أو البقاء، وأعلن أن كل امرأة اختارت أباها ردت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت عليه، فكلهن اخْتَرْنَ الآباء، إلا ابنة قيس بن عاصم، كانت قد أحبت عمرو بن المشعرج فاختارت البقاء عنده، فغضب قيس ونذر لا تولد له ابنة إلا قتلها [1]، وربما اقتدى به بعض أهله أو أهل قبيلته .

كما كان بعض الغيورين من العرب لا يزوج بناته غيرة عليهن، وأشهرهم ذو الإصبع العدواني [2] .

- إلى جانب هذه العادة نرى عادة السبي، فقد جرى أكثر الجاهليين على عدّ المرأة كالمتاع الذي ينهبونه، فإذا كانت الغارة حمل كل فارس ما قدر عليه من النساء والذراري، فكانوا جميعاً ملكه يتصرف فيهن كما يشاء، من بيع وتمتع

---

١ - الكامل للمبرد ص٢٧، وورد ذكر قصة بداية هذه الجريمة في : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ: ٣٠/ ٦٧ .

٢ - تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، مطبعة الهلال، الطبعة الخامسة ١٩٤٧، ص٥٦ .

وامتهان وسرقة، فقطعوا بذلك الأرحام، وشوّهوا الأنساب، وورثوا المرأة كما يورث المتاع .

- أضف إلى زواج المتعة الذي كان منتشراً بلا قيد ولا شرط [1] .

- كما كانوا يجمعون بين الأختين في الزواج، ويخلف الرجل على المرأة أبيه إذا مات، ويُطَلِّقُون النساء حتى إذا قرب انقضاء عدّتهن راجعوهنّ لا عن حاجة ولا عن محبة، ولكن تطويلاً للعدة، ولتوسيع مدة انتظارها ضراراً

وكان إذا مات الرجل فأولياؤه أحقّ بامرأته إن شاء أن يتزوجها بعضهم، أو قام أكبر أولاده فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له فيها حاجة تزوجها بعض إخوته بمهر جديد، وهذا هو نكاح المَقْتِ الذي حرّمه الله تعالى في الإسلام [2] .

---

١ – موسوعة أحكام المرأة المسلمة، نشوة العلواني: ١/ ١٩-٢٠ بتصرف .

٢ – صور من حياة صحابيات الرسول ﷺ، خالد عبد الرحمن العك، دار الألباب بيروت، ودمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٩م، ص٢١-٢٢ بتصرف .

وبالإجمال فإن مقام المرأة في العصر الجاهلي والمجتمع العربي قبل الإسلام، كان على حدّ قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (والله كنا في الجاهلية ما نعدّ النساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقَسَمَ لهنَّ ما قسم) [1].

وفي رواية: كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً، فلما جاء الإسلام وذكرهن الله، رأينا لهنّ بذلك علينا حقاً، من غير أن ندخلهن في أمورنا، فَبَيْنَا أنا في أمر أتأمّره [2]، إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا.

قال: فقلت لها: ما لك وما لها هنا؟! [3].

فقالت لي: عجباً لك يا بن الخطاب! ما تريد أن تُراجع أنت، وإنّ ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظلّ يومه غضبان؟! [4].

أما بعد الإسلام فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدّم الشفاء بنت عبد الله في الرأي، وصحّ أنّه استشار النساء في: كم تصبر المرأة على فراق زوجها؟! وأنّه ترك كبار الصحابة وأخذ يستمع إلى حديث خولة بنت ثعلبة حتى انتهت منه [5].

---

١ – إسناده صحيح على شرط الشيخين، مسند الإمام أحمد رقم (٢٢٢) في الموسوعة الحديثية.

٢ – أتأمره: أشاور فيه نفسي، وأفكر.

٣ – ما لك وما لها هنا: فيما تكلفك في أمر أريده.

٤ – صحيح البخاري: ١٠/ ٢٨٣، وشخصية المرآة المسلمة، خالد عبد الرحمن العك، ص٢٩٧.

٥ – مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، د. محمد بلتاجي دار السلام مصر، الطبعة الأولى ٢٠٠٠، ص٥١٧.

وقد اعترضته المرأة حينما نهى عن التغالي في المهور وأراد أن يضع لها حداً، فقالت له: يا أمير المؤمنين أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠].

فقال عمر: أصابت المرأة، وأخطأ عمر [1].

والقصص في هذا كثيرة سنسردها في مباحث أخرى، ونؤكد فيها على دور المرأة العظيم في تفعيل أحداث القصة القرآنية، والذي تُوجت فيه في ظلّ رحمة الإسلام .

١٠- المرأة في ظل الإسلام: في هذا الظلام الدامس أشرق نور الإسلام، فأحل الأمن محل الظلم، فردّ للمرأة اعتبارها، ومنحها حقوقاً تعادل حقوق الرجال، باختلاف ما تقتضيه فطرة المرأة ومصلحتها، وبمدى قدرتها على أداء مسؤوليات الحياة التي كلفت بها .

فقال رسولنا الكريم ﷺ : (إنما النساء شقائق الرجال) [٢]

---

١ - صور من صحابيات الرسول ﷺ، خالد عبد الرحمن العك، ص٢٣ .

٢ - أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب : الطهارة ، باب : ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللاً ولا يذكر احتلاماً ، رقم (١١٣).

وتأكيداً على اهتمام الشريعة الإسلامية اهتماماً عظيماً بالمرأة، فقد عرض القرآن الكريم من شؤون المرأة فيما يزيد على عشر من سور القرآن الكريم، ومنها سورتان عرفت إحداهما بسورة (النساء الكبرى)، وعُرِفت الأخرى بسورة (النساء الصغرى) وهي (سورة الطلاق) .

كما عرض للمرأة في سور عديدة كالبقرة، والمائدة، والنور، والأحزاب، والمجادلة، والممتحنة، والتحريم، ومريم [1] .

كما نزلت سورة مريم لتحمل اسم امرأة طاهرة نقية اصطفاها الله تعالى على نساء العالمين، وقد ورد ذكر اسم مريم في ثلاثين موضعاً في القرآن الكريم [2].

لقد نزل القرآن الكريم بهذه الآيات ليردّ على من اضطهد المرأة، ويكرّمها في كل موقف من مواقف حياتها، ولقد جاء الإسلام بالقضاء على هذه العادات الجاهلية واحدة تلو الأخرى، فقد استنكر القرآن الكريم غضب أهل الجاهلية لولادة الأنثى في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ [3] ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ

---

١ – الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت، دار الشروق القاهرة، الطبعة ١٢، ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م، ص٢١٨.

٢ – مختصر تفسير ابن كثير حول قوله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم)، آية: ١٦ من سورة مريم . عماد الدين أبي الفداء، دار الصابوني القاهرة، الطبعة الثامنة ١٤١٥هـ–١٩٩٠م .

٣ – كظيم: الممتلئ غيظاً، وأصل الكظم مخرج النفس، يقال أخذ بكظمه إذا أخذ بمخرج نفسه . ومنه كظم الغيظ: لإخفائه وحبسه عن الوصول إلى مخرجه (الوسيط) .

أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨ – ٥٩] .

كما تبرأ القرآن الكريم من قساوة الطبيعة البشرية في فعلتهم الشنيعة فقال تعالى :﴿ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴾ [التكوير: ٨ – ٩]

وإنما صرف الله سبحانه وتعالى في هذه السورة السؤال إلى الموؤودة [1] ولم يوجهه إلى الوائد، إظهاراً لفرط السخط عليه والاحتقار له، كأنه لهوان شأنه وبشاعة جرمه لا يستحق أن يوجه السؤال إليه .

فقد روى الإمام أحمد عن خنساء بنت معاوية الصميرية عن عمتها قالت: قلت يا رسول الله من في الجنة؟ قال ﷺ : **" النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموؤودة في الجنة"** [2] .

كما استنكر الإسلام عادة أن تُورث المرأة كما يُورث المتاع، بل جعل لها الحق في الميراث ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴾ [النساء: ٧].

---

١ – الموؤودة: هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات،(الوجيز) .

٢ – مسند الإمام أحمد، عن حسناء بنت معاوية الصريمية عن عمها، رقم (٢٠٦٠٤) .

كما عاب عليهم حرمانها من الإرث في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩].

وما يؤسفنا أن نجد في عصرنا هذا من يحاكي الجاهلية الأولى في هذه الناحية، فيحرمون المرأة من الميراث، ويحتالون لذلك بشتى الحيل؟! .

فقديماً كانت المرأة لا ترث لديهم شيئاً، حجتهم في ذلك قولهم: (لا يرثنا إلا من يحمل السيف)؟!)، أما الآن، فما حجتهم في حرمان بعضهم المرأة ميراثها؟! إنما هو الضلال والجهل بعينه!! .

كما استنكر الإسلام أن يتزوجها الابن من بعد أبيه لأنه ورثها منه، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢].

ولكل ما تقدم نجد أن القرآن الكريم قد حثّ على الرضا بالبنات والترحيب بحضورهن إلى هذه الدنيا، وحمايتهن من الظلم والكراهية، فحضَّ على إنصافهن بعد أن ظُلمن وأُجحف في حقهن في العصر الجاهلي .

لقد غيّر الإسلام مظالم المرأة فقضى عليها، بأن ربى ضمير الرجل على الشعور بأن المرأة مخلوق مثله في الإنسانية، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ففي قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَهُنَّ﴾ ابتداءٌ بالنساء قبل الرجال، وابتداءٌ بحقوقهن قبل واجباتهن، ليؤكد على حقوقهن التي هُضمت في الجاهلية، كما ساوى الله تعالى بينهما، ليؤكد أن كل واجب على المرأة لزوجها، يقابله واجب مماثل على الرجل لزوجته .

وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (أن ابن عباس كان يقف أمام المرآة يرجّل شعره، فدخل عليه غلامه، فقال له: يا ابن عباس أنت حَبْر [1] هذه الأمة، تقف أمام المرآة، وتُرجّل شعرك، فقال له: وما العجب في ذلك؟! إنّي لأتزين لامرأتي كما تتزين لي، وإني لأجد ذلك في القرآن، قال له: أين ذلك؟ قال في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾)[2] .

فالحقوق والواجبات بينهما متبادلة، لأنهما متماثلان في الذات والإحساس والشعور والعقل .

---

١ – الحَبر: العالم الصالح، ج أحبار، مادة: ح ب ر . المعجم الوسيط .

٢ – المرأة في الإسلام، برهان زريق، دار كنعان للدراسات دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، ص٢٦٥ . ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس .

فإن كان الإسلام قد خصّ الرجال ببعض الحقوق، فقد رفع عن النساء بعض الواجبات تحقيقاً للعدل الذي أقره التشريع السماوي، وليس في الدنيا تشريع أعزّ المرأة وكرّمها مثل التشريع الإسلامي .

فقد أصبح للمرأة من صفات العزّة والكرامة ما للرجل، ومع ذلك جعل الله تعالى للرجل والمرأة ما يقتضي كل واحد منهما بناء على قوته وقوتها، وصلاحية كل منهما لحمل مسؤوليات تخصه دون الآخر منهما، وعلى هذا يكتمل أداء متطلباتهما للحياة الإنسانية، وتحصل بذلك الطمأنينة والسعادة لخلية البيت الإنسانية، فالإسلام أعطى المرأة كل ما هو في صالح الرجل منها، وأعطى الرجل كل ما هو في صالح المرأة منه، وجعل حقوقهما بقدر مسؤولياتهما في الحياة .

فالرجل والمرأة صنوان لشجرة الحياة، يستويان في الشرف الإنساني، جعلهما الإسلام مشتركين في الكرامة، ومستحقين للحقوق الإنسانية على مستوى واحد، وذكرهما الله تعالى متساويين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ

وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ذكر الله المرأة في هذه الآية بصفات صالحة، فقد ذكرها بالطهر والعفاف، والخشية لله تعالى، وأعمال الخير، ووعدها على ذلك بالأجر العظيم في الآخرة على مستوى واحد مع الرجال.

لقد رفع الإسلام منزلة المرأة، ومنحها الكرامة التي تستحقها، فحصلت على حقوق تساويها مع الرجال، فها هي المرأة في الإسلام أصبحت لا تُزوج إلا بإذنها واستشارتها كقوله ﷺ: **(لا تُنكح الأيّم حتى تُستأمر، ولا البكر حتى تُستأذن)**[1] كما أوجب على الرجل أن يدفع لها مهراً إكراماً لها وإشعاراً بالمحبة والتضحية في سبيل الحصول عليها: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ[2] فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء: ٤].

وفي قوله: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ ﴾ هذه الدرجة مفسرة بآية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤].

---

١ - أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: لا يُنكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاهن، عن أبي هريرة، برقم: (٦٩٦٨).

٢ - النِّحلة: العطاء والفرض، ج (نِحَل)، صدُقاتهن: المهور.



فقد عبّر القرآن الكريم بالآية السابقة بالقوامة، ولم يعبّر بالسيادة، لأن القوامة قوامة تشريف لا سلطان وسيادة، ولأن القوامة لا تُلغي الشخصية، بل تحمل في معانيها الرعاية وتحمل المسؤولية للرجل .

وقد كرّم الله المرأة بأن منحها حقوقاً، ورفع عنها بعض الواجبات والتكاليف، لا لأنها غير أهل لها، بل تخفيفاً عنها وترخيصاً لها، ولتكليفها وتشريفها بمهمة مقدسة تسند إليها في رعاية جيل تُبنى عليه أركان المجتمع الإسلامي .

لذا أوصى الإسلام برعاية واحترام الأم، ومع أن القرآن الكريم وضع الوالدين موضع التكريم والإجلال معاً والإحسان لهما، إلا أن التعاليم القرآنية تؤكد ما للوالدة من جهود مضنية في تربية الأبناء في مثل قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾[لقمان: ١٤] .

فقد وصلت مكانة الأم في الإسلام وطاعتها إلى درجة العبادة، وأصبحت سبيلاً إلى دخول الجنة، عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحقّ الناس بحسن صحبتي؟ قال: " **أمك**" قال: ثم من؟ قال: "**أمك**" قال: ثم من؟ قال" **أبوك**" [1].

---

١ - حديث متفق عليه، رواه البخاري، (٥٦٢٦)، ومسلم (٢٥٤٨) .

وقال الإمام القرطبي: إن الأم تستحق الحظ الأوفر من البر، وتُقَدَّم في ذلك على حق الأب عند المزاحمة .

ولقد اعتبر العقوق من أكبر الذنوب التي يُعاقب عليها المرء في الدنيا قبل الآخرة، عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: **" كل الذنوب يؤخّر الله ما شاء منها إلى يوم القيامة، إلا عقوق الوالدين، فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات"** [1] .

كما جعل الإسلام خدمة الأم ورعايتها تعادل ثواب الجهاد في سبيل الله والاستشهاد في ساحة القتال، عن معاوية بن جاهمة السّلمي أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك، فقال: **"هل لك أم؟ "** قال: نعم، قال: **" فالزمها فإن الجنة تحت رجليها"** [2] .

وليقف المتأمل عند هذا التعبير في قوله تعالى: ﴿ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾ ليعرف كيف سما القرآن بالمرأة حتى جعلها بعضاً من الرجل، وكيف حدّ من طغيان الرجل كما كان عليه في الجاهلية، فجعله بعضاً من المرأة!! وليس أجمل من هذا التعبير ما يؤدى به معنى المساواة بينهما.

---

١ – رواه الحاكم في المستدرك: ٤/ ١٧٢ .

٢ – سنن النسائي كتاب: الجهاد، باب الرخصة في التخلف عمن له والدة، (٣١٠٦) .

ونجد رسولنا الكريم ﷺ يقول لأصحابه أيضاً: " **اللهم إني أُحَرِّج** [1] **حق الضعيفين: المرأة واليتيم** " [2] .

ومن تكريم الإسلام للمرأة أيضاً أن منع الرجل من أن يُفشي سر زوجته، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ : **(إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يُفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه)** [3] .

إذاً فالمرأة لها مكانتها في الإسلام، ولها دورها الفعّال، ومواقفها عديدة تمخضت في مدى احترام الرسول ﷺ لها، وقد كرّمتها السنة النبوية كما كرّمها القرآن الكريم .

لقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في أصل الخلقة والقيمة الإنسانية بحيث لا يوجد بينهما تمايز أو تنافر، بل إنهما يرجعان إلى أصل واحد، أقرّه الله تعالى في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ ﴾ [النساء: ١] .

---

١ – أُحَرِّج: ألحق الحرج، وهو الإثم بمن ضيع حقهما، وأحذّر من ذلك تحذيراً بليغاً، وأزجر عنه زجراً أكيداً .

٢ – حديث حسن، رواه النسائي في سننه بإسناد جيد كتاب : عشرة النساء، باب:حق المرأة على زوجها، رقم (٩١٤٩). والإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة، (٩٦٦٤) .

٣ – مسند الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري، رقم (١١٦٧٣) .

ويقول الإمام النسفي في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: إن الله خلق الخلق من أصل واحد وهو نفس آدم، و﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء من ضِلَع من أضلاعه، و﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ أي نشر من آدم وحواء ﴿ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (1)

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فهذا يؤكد أن المرأة مخلوقة من عنصر الرجل نفسه، والجنسان كلاهما يرجعان إلى أصل واحد، وليس لأحدهما من مقومات الإنسانية أكثر مما للآخر.

ولما ذكر الله تعالى إضلال الشيطان لآدم عليه السلام ذكر آدم وزوجته على السواء، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

كما أكرم الله سبحانه وتعالى الإنسان بأن جعل الإيمان معياراً لتكريمه وليس الجنس، فقد خلق المرأة والرجل لمهمة أساسية في الحياة وساوى بينهما في هذه المهمة.

---

١ - تفسير النسفي: ١/ ٢٠٤، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ-١٩٨٩م.

فقد فرض عليهما العبودية لله تعالى، وتتجسد في صورة الخضوع لدينه الحنيف وتطبيق شعائره وطاعته، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠ – ٤١].

كما ساوى الإسلام بينهما في تطبيق التكاليف الشرعية وما يترتب عليها ممن جزاء واحد يتساوى فيه الرجل والمرأة في الثواب والعقاب والمغفرة، في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا[1] ﴾ [النساء: ١٢٤].

وفي قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل: ٩٨].

كما ساوى بينهما في العقاب في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨]. و ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢].

---

١ – نقيراً: قدر نقرة النواة، من تفسير الجلالين.

وقالت أم سلمة: قلت للرسول ﷺ : مالنا لا نذكر في القرآن كما يُذكر الرجال، فنزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥] .

وبذلك يكون قد استكمل الإسلام شخصية المرأة من كافة الجوانب وأعطاها كل الحقوق، ورفع من شأنها، واعتبرها إنساناً كريماً يشارك الرجل في هذه الكرامة، ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] .

ونتيجة لمنح الإسلام المرأة هذه المنزلة ظهرت نماذج رائعة في القرآن الكريم تمثل قوة شخصية المرأة وحسن إدراكها لمسؤوليتها، وتؤكد على الدور العظيم الذي حققته المرأة في ظل الإسلام .

ففي القرآن الكريم (الأصل الأول لمنهج الرجوع إلى الأصول):

١- **زوجة إبراهيم (هاجر)** نموذج الإيثار للآخرين .

٢- **آسية بنت مزاحم،** امرأة فرعون طاغية الدنيا، نموذج القدوة والأسوة الحسنة حول الثبات على الإيمان .

٣- **زوجة أيوب:** نموذج الصبر والاحتساب للأجر .

٤- **أم موسى** عليها السلام: مثال الصبر على كل ما يأتي من الله تعالى، والرضا بقضاء الله تعالى، وامتثال أوامره .

٥- **وفتاة مدين**، وقوة فراستها هي نموذج لمشاركة المرأة للرجل في الأمور العامة .

٦- **المرأة التي اصطفاها الله تعالى مريم**، وامرأة فرعون، وجعلهما نموذجين للاقتداء والتأسي، وهذا تأكيد في القرآن الكريم على مسألة المساواة بين الرجال والنساء، حتى في مسألة الاصطفاء، فالله سبحانه وتعالى لا يخصّ الرجال فقط في ذلك، ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١] ، ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢] .

٧- **والملكة بلقيس** نموذج آخر يعرضه القرآن الكريم على الناس ليتخذوا منه الأسوة والقدوة في حسن سياستها وحكمتها واستجابتها لكلمة الحق.

٨- **خولة بنت ثعلبة** رضي الله تعطي الصورة الكاملة عن شخصية المرأة، في مطالبتها بحقها والدفاع عن قضاياها المصيرية، وجاء مدح الله تعالى لهذا الجانب [1] .

---

١ – شخصية المرأة المسلمة، محمد عمر الحاجي، دار المكتبي دمشق، طبعة ١٤٠٨ هـ– ٢٠٠٠م، ص٦١–٧٣ بتصرف .

وقد رفع الله شأنها واحترم رأيها وجعلها مجادِلة ومحاورة للرسول الله ﷺ، وجمعها وإياه في خطاب واحد، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ [المجادلة: ١].

فقرر الله تعالى رأيها وجعله تشريعاً خالداً على مَرِّ الدهور، وسورة المجادلة لم تكن إلا أثراً من آثار الفكر النسائي، وصفحة خالدة نلمح فيها صورة احترام الإسلام للمرأة، وأن الإسلام لا يرى المرأة مجرد زهرة ينعم الرجل بأريجها، إنما هي مخلوق عاقل مفكر له رأي، وللرأي قيمته ووزنه**!!** .

وكان جلُّ خطاب النبي ﷺ في حجته الأخيرة من أجل النساء، بل وآخر كلمة تكلم بها: **(الصلاة وما ملكت أيمانكم)** [1] .

كما أعطاها الإسلام الحق في التعليم، فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: **(قالت النساء للرسول ﷺ : غَلَبَنَا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن)** [2] .

وأول مدرسة مفتوحة للعلم في الإسلام كانت المسجد الشريف الذي فتح أبوابه للرجال والنساء والصغار والكبار، ثم صارت بيوت أمهات

---

١ – أخرجه النسائي، كتاب : الوفاة، باب : ذكر ما كان يقوله النبي ﷺ في مرضه، رقم(٧٠٩٤) .

٢ – رواه البخاري عن أبي سعيد، كتاب : العلم، باب : هل يجعل للنساء يوم على حده في العلم، رقم (١٠١) .

المؤمنين مدارس للنساء، بل حتى الصحابة ومن تبعهم كانوا يقصدون أمهات المؤمنين للفتوى والتعلم منهن .

هذه بعض النماذج القرآنية التي جاءت في سياق القرآن الكريم، ولكنني اقتصرت على بعضها في (قصص القرآن) تحديداً، وذلك بدراسة تحليلية لأؤكد على دور المرأة في تطور الحدث القصصي، وتجسيد معالم شخصية المرأة واستقلالها بكل جوانبها، وبذلك نتلمس المكانة الرفيعة التي جعلها الله تعالى للمرأة في القرآن الكريم .

أما في الأحاديث الشريفة الطاهرة (الأصل الثاني لمنهج الرجوع إلى الأصول):

فقد بين الرسول ﷺ جانباً مهماً في قوة شخصية المرأة خاصة فيما يتعلق بحقوقها وواجباتها، فهي رواية لأحاديثه، وناقلة للسيرة والتاريخ الأول، ومفسرة للقرآن الكريم، ومداوية ومجاهدة ومهاجرة ومبايعة .

فلنتوقف عند بعضهن ولنتشبّه ونقتدي بهن، ولنستمع إلى نصيحة الشاعر في قوله:

فتشــبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشــبـه بـالكرام فلاحُ [1]

---

١ – الإمام السهروردي من قصيدته المشهورة عند الصوفية التي أولها:

أبداً تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

١- يكفي المرأة شرفاً أن تكون أول من دخل في الإسلام، وهي السيدة خديجة رضي الله عنها التي حملت هموم النبي ﷺ وهموم الدعوة .

٢- وفي مجال رواية الأحاديث الشريفة والسيرة النبوية والأحداث التي جرت في العهد الأول، فيكفي أن تقرأ في مسند الإمام أحمد بن حنبل عن عدد من الأحاديث الشريفة التي روتها السيدة عائشة رضي الله عنها ، وسائر أمهات المؤمنين، وكذلك فاطمة بنت أسد، وأم معبد الخزاعية، والشفاء بنت عبد الله وغيرهن كثير، بل عن بعضهن كالسيدة عائشة كانت تردّ الفتاوى التي صدرت عن كبار الصحابة، وهذا يدل على حرص المرأة المسلمة على العلم والتعلم .

قال أبو موسى الأشعري: (ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة رضي الله عنها إلا وجدنا عندها علماً فيه) [1] .

٣- وأول من اؤتمن على حفظ كتاب الله بعد جمعه (المرأة)، وهي أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها [2] .

انظر: الإمام السهروردي حياته وشعره ومصنفاه، للدكتور أحمد الحسن، طبعة دار دانية دمشق.

١ - رواه الترمذي في أبواب المناقب، باب فضل عائشة: ٢/ ٢٢٨، وقال : حديث حسن صحيح .

٢ - حقوق المرأة في الإسلام والديانات الأخرى، محمود عبد الحميد محمد، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، ص .

وقد تسلمها عثمان ﷺ منها حين أراد جمع الأمصار على نسخة موحّدة.

كما أن لنساء المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان منزلة في العلم لا تُنكر، وكم من رجل بارز أخذ العلم عن أولئك السيدات اللواتي كانت تعقد لهنّ الحلقات من وراء الحجاب [1].

٤- وإنّ أول من استشهد في سبيل نصرة الإسلام هي (المرأة)، وهي السيدة سمية رضي الله عنها.

٥- والصحابية الجليلة (نسيبة بنت كعب، أم عمارة) التي أسلمت منذ البدايات، وحضرت بيعة العقبة الثانية، وشاركت مع سبعين رجلاً في تلكم البيعة [2] !! .

وهذا قليل من كثير من أولئك النسوة اللواتي أسهمن بجهودهن قولاً وعملاً في السياسة وشؤون الدولة وحَمَلْنَ راية الكفاح، وسوف نتطرق إلى نماذج أخرى في ثنايا البحث إن شاء الله .

---

١ - المرأة في الكتاب والسنة، يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، مكتبة الشرق الجديد بغداد بدون تاريخ، ص١٣.

٢ - شخصية المرأة المسلمة، محمد عمر الحاجي، دار المكتبي دمشق، ١٤٠٨هـ ٢٠٠٠م، ص٧٥-٩٥ بتصرف.

وبذلك يكون القرآن الكريم، والرسول العظيم، شاهداً على تكريم المرأة واستقلال شخصيتها ومساواتها ضمن تشريع سماوي .

فبعد هذه الشهادات العظيمة من القرآن الكريم والسنة الشريفة، هناك من يزعم أن المرأة لا أهلية لها؟! يريدون بذلك أن يعيدوها إلى ما كانت عليه في الجاهلية الأولى، وهذا يدل على جهل وقلة دراية وعلم في أصول الدين .

وهناك من يشرّع لنفسه مذهباً يضيّق فيه على المرأة ويعيدها إلى قيودها الأولى، مبتعداً بذلك عن التشريع السماوي في قوله:

إن النساء شياطين خُلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين

فيرد عليه عالم بأمور الدين، منصف بحق المرأة المسلمة:

إن النساء رياحين خلقن لنا ... وكلنا يشتهي شم الرياحين [1]

وورد على لسان طفيل بن عون الغنوي قوله:

إن النساء كأشجار نبتن معاً ... منها المرارة وبعض المُرِّ مأكولُ [2]

---

١ – المرجع السابق، ص ١٠٠ .

٢ – عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، في كتاب النساء (مساوئ النساء)، المجلد الرابع، دار الكتب المصرية القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ –١٩٣٠م، ص٣٤١ .



فرد أعرابي يتغنى بحسن وجمال المرأة بقوله:

يـا زيـن مـن ولـدت حـواء مـن ولـدٍ ... لولاك لم تَحْســن الـدنيـا ولم تطـب
أنتِ التي من أراه الله حُسْــن صــورتها ... نـال الخلودَ فلم يَهْرمَ ولم يشــب[1]

ويروي لنا الأبشيهي في المستطرف، عن هذا الإحساس اللطيف لرجل في حب المرأة فيقول:

قال الجاحظ: دخلت يوماً مدينة، فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة، وباحثته في القرآن فإذا هو ما هو فيه، ثم تفاتحنا الفقه والنحو وأشعار العرب، فإذا هو كامل الآداب، فقلت: سأختلف إليه وأزوره، وجئت يوماً لزيارته، فإذا بالكُتَّاب[2] مغلق، فدخلت إليه وإذا به جالس، فقلت: عظّم الله أجرك، وسألته: من الذي توفي لك؟! فقال: حبيبتي!! فقلت في نفسي: هذه أولى العجائب .

فقلت: سبحان الله! النساء كثير وستجد غيرها .

فقال: أتظن أني رأيتها! قلت: هذه الثانية .

ثم قلت: وكيف عشقت ما لم ترَ؟ فقال: مرّ رجل وعليه برد وهو يقول:

---

١ – المصدر السابق، في كتاب الجمال (الحسن والجمال)، ص٣٢٣ .

٢ – الكُتاب والمكتب، موضع التعليم .

يا أمّ عمرو جزاك الله مكرمةً   ردِّي عليَّ فؤادي أينما كانا [1]

فقلت في نفسي: لو لا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر، فعشقتها .

فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

لـقـد ذهـب الحـمارُ بـأمّ عـمـرو   فـلا رجعـت ولا رجع الحـمار

فعلمت أنها ماتت، فحزنت عليها، وأغلقت المكتب، وجلست في الدار [2] .

هذه النوادر تؤكد لنا أن المرأة كان لها مساحة رائعة منحها إياها الرجل من عقله وقلبه، لكن هناك من الغلاة المتنطعين الذين يتجاهلون هذه المساحة، حتى ولو كانت من نسيج الخيال .

١١- **المرأة في الحضارات الحديثة:** منذ قيام الثورة الديموقراطية في أوربا، وحتى يومنا هذا والمرأة تُساق إلى الشعارات التي تنادي بحرية المرأة وتحريرها من كافة قيودها- كما يدعون- بل وبتحررها حتى من وظيفة الأمومة لتتساوى

---

١ - البيتان لجرير وهما في ديوانه بقوله: ردي علي فؤادي كالذي كانا .

٢ - المستطرف في كل فن مستظرف، محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي، تحقيق صلاح الدين الهواري، طبعة بولاق ١٩٢٠م، ص٢٧، وجمهرة قصص العرب، قصي الحسين، دار مكتبة الهلال للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ٤/ ٢٧٥ .

كلياً مع الرجل في كل شيء، وصارت المرأة في تلك المجتمعات الغربية حرّة مشاعة للناس، وأصبح عِرْضُها وكرامتها عُرْضَة للأهواء بدلاً من حفظها وصيانتها .

ولقد تأثرت المنطقة العربية كثيراً بهذه الشعارات، وبدأت صيحات التقليد تنشر سمومها دون أن تفرق بين الصالح والطالح من هذه الشعارات.

فقبيل سنوات كان هناك ما يسمى بالحضارة الشرقية متمثلة بالمعسكر الاشتراكي والشيوعية التي لا تعتقد بوجود أديان، بحيث أطلقت شعارات تقول: إن الأديان أفيون الشعوب، لذلك أغلقت المساجد وحوّلت بعضها إلى مستودعات للفودكا، وركزت على إلغاء الأسرة، ونادت النساء بحق الإجهاض، واعتبرت الزنى حقاً للمرأة تعبّر به عن حريتها الجسدية!! .

وأصروا على خروجها للعمل في المصانع والمناجم والأعمال الشاقة لتختفي أنوثتها شيئاً فشيئاً، ولتتمزق الأسر، ولتُرفع القيود عن العلاقة بين الرجل والمرأة، وباسم المساواة حُرمت من حقوقها السامية التي كرّمها الله بها، فلم تصل المرأة الشيوعية إلى جنة الفردوس التي حلم بها (ماركس)!! بل وصلت بادعاءاتهم الباطلة إلى الجحيم وبئس المصير [1]!! .

---

١ - شخصية المرأة المسلمة، محمد عمر الحاجي، ص٢٢- ٢٣ بتصرف .

إن الحرية في مفهوم دعاة التقدم تجعل المرأة في حيرة وضياع، فهي سلاح فتاك يعصف بمبادئنا وأخلاقنا وبحريتنا الحقة التي منحنا إياها الله تعالى .

فالإسلام وضع ضوابط وتشريعات سماوية للمرأة والرجل معاً، يجعل كلاً منهما لا يحكم الآخر بهواه، بل بشريعة الله تعالى، الحكم العادل .

فالإسلام كرّم المرأة بأن جعلها تشارك الرجل في بناء المجتمع الإسلامي، فانطلقت تبايع الرسول ﷺ كما بايعه الرجل، وهاجرت الهجرتين كما هاجر، وشاركت النبي ﷺ في بعض الأمور الحياتية، وشاركت الرجال في غزواتهم لرفع راية الإسلام، وورثت الرجل، وفُرض عليها طلب العلم كما فرض عليه، وشُرع لها أحكام تحفظ حقوقها موثّقة بآيات قرآنية كريمة، ومعزّزة بأحاديث نبوية شريفة، حتى يومنا هذا، إذ المرأة المسلمة لا تشكو كسائر نساء العالم من عدم الاعتراف بأهليتها، أو فقدان حقوقها وكرامتها .

لكن إن كانت تشكو حقاً، فإنها تشكو من سوء التطبيق للأحكام الشرعية والأخذ بها في بعض الأمور، وابتعاد بعض الرجال عن تطبيق آيات محكمات شرعها الله لإنصاف المرأة والرجل معاً، وجعلهما محكومين بشريعة الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾[الأحزاب: ٥٨].

فرغم القانون الشرعي الذي حقق للمرأة أعلى مراتب الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية، إلا أن هناك من ابتعد عن توصية الرسول ﷺ في قوله: **(اسْتَوْصُوا بالنساء خيراً)** [1].

فما أحوجنا أن نتأسى بأخلاق الرسول ﷺ وتطبيق أحكام الشرع الحنيف، فتكون المرأة المسلمة الرائدة لمسيرة العدالة والمساواة بين الرجل والمرأة تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] [2].

فعلى الرغم مما أولى به الإسلام المرأة من عناية، وما حباها من حقوق إلا أنه من الملاحظ أن المرأة المسلمة في عالمنا العربي والإسلامي ما زالت تعاني، ولا يزال يسود بعض دول العالم من جاهلية صبت جام غضبها على المرأة، وباعتبارها أساس الفساد والضلال في نظرهم، الأمر الذي جعل للمرأة قضية لها مناصروها ومدافعون عنها .

وظهرت جماعات تتاجر بقضية المرأة، كما ظهرت فلسفات تتغنى بالصراع بين المرأة والرجل، وتعيب على الإسلام نظامه وتشريعه لتحرّض المرأة على دينها باسم الحرية والمساواة، وأنها لم تأخذ حقها أسوة بالرجل!! .

---

١ – صحيح مسلم، كتاب : الرضاع، باب : الوصية بالنساء، رقم (٣٧٢٠) .

٢ – واقع المرأة الحضاري في الإسلام، آمنة فتنت مسيكة برّ، الشركة العالمية للكتاب بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ص٤٣٦-٤٣٧ بتصرف .

والحق يقال: إنه لا يوجد لدينا قضية للمرأة تحتاج إلى من يتبناها أو يدافع عنها، فالشريعة الإسلامية هي أول شريعة أنصفت المرأة، ورسول الله ﷺ هو أول من حررها، وطبق مبدأ المساواة بينها وبين الرجل عملياً فيما شرع الله، وأعلن استقلال شخصيتها واحترام ملكيتها، واهتم بتعليمها وتثقيفها، ومنحها الفرصة كاملة لتثبت جدارتها في الحياة عامة، بما يتناسب وطبيعتها .

ومن المحزن أن بعضهم انخدعوا بهذه الشعارات الواهمة الحالمة، ولجؤوا إلى تفسير طائفة من الأحاديث الصحيحة على عكس المراد، منها ما رواه أبو سعيد الخذري قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمرّ على النساء فقال: **(يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار" فقلن: وبم يا رسول الله ؟ قال: " تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أَذْهَبَ لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكُنَّ)** .

قلت: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟!

قال: **(أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل)**؟!

قلن: بلى .

قال: **(فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم)**؟!

قلن: بلى .

قال: (**فذلك من نقصان دينها**)[1] .

والمشكلة في ذلك: أن أخذوا كلمة: (نقصان عقل ودين) فقط، وفسروها بأن المرأة مخلوق ناقص لا أهلية له، ولكن لو تأملنا الحديث النبوي كله، لوجدناه يعبر عن تعجب الرسول ﷺ من التناقض القائم في ظاهرة تغلب النساء – فيهن ضعف– على الرجل ذي الحزم .

وكان في الحديث عظة للنساء في يوم عيد: (إنكنّ تغلبن ذوي العقول الراجحة رغم ضعفكن بسبب الحمل والولادة والإرضاع، فاتقين الله في ذلك) .

فالعبارة في مجال الإثارة والعظة اللطيفة للنساء من الرسول ﷺ، وهل نتوقع من الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم أن يغضّ من شأن النساء في هذه المناسبة البهيجة؟! .

والمسألة الثانية (شهادة المرأة) ففي ذلك أقوال كثيرة، كقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: قال شيخنا ابن تيمية رحمه الله تعالى في قوله تعالى:﴿ فَإِن لَّمۡ

---

١ – أخرجه البخاري، كتاب : الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٢٩٨) . وللتوسع راجع: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني: ١/ ٤٢١، والجامع الصحيح للإمام مسلم : ١/ ٦١ .

يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] . وهذا دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل إنما هو لإذكار إحداهما الأخرى إذا ضلّت، وهذا إنما يكون فيما فيه الضلال في العادة، وهو النسيان وعدم الضبط، وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ حيث قال: **(وأما نقصان عقلهن فشهادة امرأتين بشهادة رجل)**[1].

وقال العلماء في هذا: نقص العقل والدين في النساء هو أمر عام، وهذا لا يمنع وجود البعض منهن متفوقات في كثير من أمور الحياة، والقرآن الكريم تحدث عن بلقيس وزوجة فرعون و . . كأمثلة على امتلاكهن قدرات عالية في مسائل الثبات والمشورة والحكم وسياسة المجتمع!! .

وهذا يدلّ على جواز تفضيل بعض النساء على كثير من الرجال، ورحم الله ابن تيمية عندما قال: (فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص، فرب حبشي أفضل عند الله من جمهور قريش!!) [2]

ولله درّ القائل:

ولو كان النساء بمثل هذه لفضّلت النساء على الرجال
فما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

---

١ – شخصية المرأة المسلمة، محمد عمر الحاجي، ص٧٨ .

٢ – شخصية المرأة المسلمة، د . محمد عمر الحاجي ص،٨٠-٨١ .



وفي المسألة الثالثة: في استغلال البعض حديث رسول الله ﷺ الصحيح، (**استوصوا بالنساءخيراً، فإن المرأة خُلقِت من ضِلَع الرجل، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبْتَ تُقيمُه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء**) (1)

وأنه عليه الصلاة والسلام بدأ الحديث بعبارة: " **استوصوا بالنساء خيراً** "، وختمه بها أيضاً، لو أدرك العاقلون لِمَ كرر الرسول ﷺ الوصية بالنساء في بداية الحديث ونهايته بصيغة الأمر: "استوصوا" لعلموا أن الرسول ﷺ أراد أن يجعلها من الفرائض (سنة مؤكدة)، وتدخل في حكم الفرائض، فمن خالفها خالف الله، فالمرأة مخلوق كامل تدل على قدرة الله في خلقه، كأي مخلوق وكائن على وجه الأرض، وظلمها إجحاف بحق ما خلق الله تعالى من نعم!! وذلك للتأكيد على معاملة المرأة معاملة حسنة، لا لأنها ضعيفة، وإنما لأنها أكثر وأسرع انفعالاً، وذلك نتيجة صبرها على تربية الأولاد وحنانها ورعايتها لهم.

ولو فسرنا الحديث على ظاهره، فإن الضعف ليس عيباً في المرأة، إنّما هذه فطرة الله تعالى التي فطرها عليها، فهو ضعف أنثوي تتجمّل به المرأة، لأنه جزء

---

١ – صحيح مسلم، كتاب : الرضاع، باب : الوصية بالنساء، رقم (٣٧٢٠) . للتوسع في الشرح يراجع: فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ٧/ ١٧٧ .

من خصيصتها، وعرض الحديث دون فقه يعتبر من تحريف الكلام عن مواضعه، ومصاب الإسلام شديد من هذا التصرف!! .

قد يكون ضعف المرأة في تكوينها الخلقي، فإنّها تكون عليلة خلال الدورة الشهرية، وتؤثر في أعصابها وأفكارها، وقد عذرها الله تعالى من أجل ذلك، وأعفاها من بعض الفروض رحمة منه تعالى .

إنّ نفراً من المتحدثين في الدين شاء أن يفهم من هذا الحديث أموراً لا علاقة لها به، فصاغ قاعدة كلية نشرها في طول البلاد وعرضها مفادها (النساء ناقصات عقل ودين)، وهذه الكلية المزعومة تناقض الآيات القرآنية التي قررت أن النساء والرجال بعضهم من بعض، وتناقض الأحاديث التي جعلت النساء شقائق الرجال .

وزاد الطين بلّة في تأليب المرأة المعاصرة على الإسلام أن البعض فَسَّرَ نقصان العقل بالحماقة، ونقصان الدين بالمعصية، وهذا التفكير امتداد للجاهلية الأولى، والإسلام بريء من هذا اللغو [1] .

---

١ - مئة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، دار ثابت للنشر، القاهرة، الطبعة الخامسة ١٩٩٦م-١٤١٧هـ، ص٤٢٩ .

ومن زاوية أخرى، فإن الحديث يؤكد على تحذير المصطفى صلوات الله وسلامه عليه النساء من الأمور التي توصل إلى نار جهنم .

ولعل هذا من باب الإغلاظ في النصح والترهيب من عواقب الأمور .

ولذلك جاء في السنة ما يفيد أن تكثر النساء من الصدقة والاستغفار، حتى يتجنبن ما يؤدي إلى نار جهنم [1] .

ومن حسن إكرام الرسول ﷺ للمرأة أن أكّد على حسن رعايتها زوجة، بنتاً وأختاً، أمّاً، عمة وخالة، حتى إذا كانت أَمَةً، ولقد ورث عليه الصلاة والسلام عن أبيه جارية عسراء اللسان لا تكاد تبين، هي أم أيمن، فكان ﷺ يدعوها أُمّه، وكان إذا نظر إليها قال: **(هذه بقية أهل بيتي)** [2] .

فقد ضرب النبي ﷺ الأمثال للرجال، فكان يعاون أزواجه في أعمال البيت، وتربية الأولاد، وفي التأكيد على هذه السنة العملية يقول ﷺ : **(خيركم**

---

١ – المرجع السابق .

٢ – الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد الزهري، تحقيق رياض عبد الله عبد الهادي، دار إحياء التراث العربي بيروت، بدون تاريخ:٧/ ١٦٢ .

خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي) [1]، و (**لا يَفْرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلُقَاً رضي منها آخر)** [2] .

وقال ﷺ : (**استوصوا بالنساء خيراً)** [3]، وقال ﷺ : (**الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة)** [4]، كما قال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩] .

وهذا ما ورد في رياض الصالحين في باب الوصية بالنساء، قال رسول الله ﷺ : (أوصيكم بالنساء فإنهن عَوَان عندكم)، أي أسيرات [5] .

أما إذا كانت بنتاً فكذلك يجب حسن رعايتها لقوله: (**من عال– ربّى– جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو– وضم أصابعه–)** [6]

---

١ – رواه ابن ماجه (١٩٧٧)، والحاكم (٤/ ١٧٣) .

٢ – صحيح مسلم، في كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء برقم: (١٤٦٩)، لا يفرك: لا يبغض .

٣ – رواه البخاري (٢٦١)، ومسلم (١٤٦٨) .

٤ – رواه مسلم كتاب : الرضاع، باب : خير متاع الدنيا المرأة الصالحة (١٤٦٧) .

٥ – رياض الصالحين، للإمام أبي زكريا النووي الدمشقي، باب الوصية بالنساء، دار المأمون للتراث دمشق ١٤٠١هـ– ١٩٨١م، ص١٤٠–١٤٣ . والكامل في اللغة والأدب والنحو والصرف، لأبي العباس المبرد، طبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، الطبعة الأولى ١٩٣٧م، ص٤١٦ .

٦ – رواه مسلم كتاب : البر والصلة والآداب، باب : فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٣١) عن أنس بن مالك .

وقوله ﷺ : (**ما من مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه أو صحبهما إلا أدخله الله الجنة**)[1] وأشار الرسول ﷺ إلى هذا المعنى بقوله: (**ألا أدلكم على أفضل الصدقة؟ ابنتك مردودة إليك**) يعني أن أفضل الصدقة إنفاقك على ابنتك التي رُدَّتْ إليك بسبب طلاق من زوجها أو وفاته[2].

وإذا كانت أختاً فيجب حسن رعايتها أيضاً، قال ﷺ : (**من كان له ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، أو ابنتان، أو أختان، فأحسن صحبتهن، واتقى الله فيهن فله الجنة**)[3].

وأما إذا كانت أُمّاً فهناك التوصيات الكثيرة من رسولنا الكريم ﷺ، حتى إن الجنة عند قدمها، وحتى ولو كانت أَمَةً، فعليه أن يحسن رعايتها، وروي عن أبي بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : (**أيما رجل كانت عنده وليدة**[4] **فعلّمها فأحسن تعليمها، وأدبها وأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران**)[5]

---

١ – أخرجه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك، رقم (٢١٠٤) .

٢ – رواه ابن ماجه عن سراقة بن مالك رضي الله عنه، كتاب : الأدب، باب : بر الوالد ولإحسان إلى البنات، رقم (٣٦٦٧) .

٣ – رواه الترمذي (١٩١٦)، وأبو داود (٥١٤٧)، وابن حبان (٤٤٧) .

٤ – الوليدة: الأمة .

٥ – رواه الطبري والخرائطي في مكارم الأخلاق . أخرجه البخاري، كتاب : النكاح، باب : اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها، رقم (٤٧٩٥) .

كما أعطاها حقّها في صلة الأرحام قال تعالى: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ ﴾ [محمد: ٢٢] .

إن سيرة النبي ﷺ تؤكد اقتران قوله بفعله في الحض على رعاية المرأة واحترامها وحسن تكريمها، من ذلك: روى البخاري ومسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ (كان يصلي وهو حامل أُمامة بنت زينب بنت رسول الله وأبي العاص بن ربيعة، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها) هذا مع حفيدته .

وقال ﷺ : (**فاطمة بَضْعَة** [1]، **يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري**) [2]، وهذا مع ابنته رضي الله عنها .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله فقال: (**استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، فاستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنّها تذكر الموت**) [3] .

---

١ – بضعة مني: قطعة مني .

٢ – مسند الإمام أحمدرقم (١٨٩٣١)، والحاكم في المستدرك عن المسور بن مخرمة، رقم (٤٧٤٧) .

٣ – رواه أحمد (٢/ ١٤١)، ومسلم (٩٧٦/ ١٠٨)، وأبو داود (٣٢٣٤) .

حتى مع مرضعته حليمة السعدية- وخادمة المسجد- ومع جميع النساء في قوله ﷺ : **(حُبّب إليّ من الدنيا الطيب والنساء، وجُعلت قرة عيني في الصلاة)** [1] .

وكذلك كان للمرأة في الإسلام الحق في الذهاب إلى المساجد، وممارسة الشعائر كلها، ومناسك الحج، وصلاة الفريضة في المسجد، والاعتكاف في رمضان في المسجد، وصلاة وخطبة العيد .

وعندما فتح النبي ﷺ مكة خرجت النساء لمبايعته، وتلقي تعاليم الإسلام منه، ولم يحتبسن في بيوتهن قعوداً، أي أن علاقة المرأة بالحياة العامة كانت قائمة، وكانت من الناحية العملية تسير في خط يحاذي علاقة الرجل، ولا يتطابق معه إلا بما يشرعه الله تعالى [2] .

كما شاركت النساء بالتعليم والتعلم ورواية سند رسول الله ﷺ للناس، وأباح لها العمل ضمن ضوابط حددها الإسلام بأن تكون المرأة قدوة لغيرها في الحشمة والوقار والتقوى، وقصة موسى عليه السلام مع ابْنَتَيِ الرجل الصالح خير دليل على هذا .

---

١ - النسائي (٤/ ١٤١)، وابن ماجه (١٥٧٢) .

٢ - مئة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، دار ثابت للنشر القاهرة، الطبعة الخامسة ١٩٩٦م-١٤١٧هـ، ص٤٣٤.

فالعمل الشريف يعود بنفعه عليها وعلى أسرتها ووطنها بالخير العميم .

لذا فالإسلام وظف كل جهد وطاقة للمرأة، بما ينعكس خيراً على الجميع في جهاد الأعداء ومعارك البناء .

فهذه الصحابية أم عطية تقول: (غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى) [1].

ولئن كان هذا دورها في معارك الجهاد، فإن دورها في معركة البناء وتعليم الأجيال آكد وألزم .

وبهذا نرى التكامل بين حديث القرآن الكريم عن شخصية المسلمة، وبين المنهج النبوي في الحديث عن شخصيتها، وبهذا الميزان السماوي نريد للمرأة في عصرنا هذا أن تنظر إلى الحياة من خلال القرآن الكريم والسنة الشريفة، وتتخذ من الإسلام منهجاً وطريقاً، ومن الرسول ﷺ أسوة حسنة .

والأمل معقود على المرأة المسلمة المعاصرة في أداء رسالتها السامية، لتكون برهاناً صادقاً لنهج ديننا الخالد .

---

١ – رواه مسلم، كتاب : الجهاد والسير، باب : النساء الغازيات، رقم (٤٧٩٣) .

بعد كل ما ذكرناه عن وضع المرأة في الحضارات والشرائع السابقة للإسلام، ووضعها في ظل الإسلام، ثم وضعها في الحضارات الحديثة، وفي أكثر الدول تقدماً وتمدناً، محاولين أن يرفعوا من شأن المرأة تحت شعارات براقة مزيفة في كل أنحاء العالم، وإعطائها المزيد من الحقوق والحريات الهدامة، قد فاقتها حقوق المرأة في الإسلام والتي شرعها الله تعالى لها منذ أربعة عشر قرناً!!

إن العَاْلَمَ مهما تقدم، أو وصل إلى نظريات علمية تمثل التقدم والمدنية، إلا أنه لن يصل إلى ما وصل إليه التشريع الإلهي الذي لم يترك أي جانب من جوانب حياة المرأة وصيانة كرامتها وحقوقها إلا وقد شرع لها، وقَنَّنَ لها ما يحفظ حقوقها فيه .

إن دراستنا لدور المرأة في القصة القرآنية، تؤكد لنا هذه المكانة العظيمة التي حصلت عليها المرأة في ظل الإسلام، فقد لعبت دورها الرئيسي والثانوي في القصص القرآني جنباً إلى جنب مع الرجل، فمن أدوارها ما يتعلق بطبيعتها كأنثى (كابنة الرجل الصالح)- ويُروى أنها ابنة شعيب، والله أعلم بالصواب، ومن أدوارها الأخرى ما يتعلق بخصائص عضوية وعاطفية وشعورية ما لا يستطيع تحمله الرجل، ومن أدوارها أيضاً ما يتعلق بإنسانيها وقدراتها العقلية التي تناظر بها مع الرجل، ويعرض لنا القرآن الكريم في سورة النمل نموذجاً للمرأة الكاملة الحكيمة التي تستطيع بعقلها وحكمتها أن تدير شؤون مملكة

بأكملها، وتصل حكمتها إلى ذروتها عندما تستجيب عن إيمان واقتناع لدعوة سليمان عليه السلام .

فالقرآن الكريم ينطلق في تعامله مع المرأة في قصصه من ذلك المنطلق العام الذي يتعامل به معها في سائر جوانبه وتشريعاته السماوية، وهذا شاهد حق على المكانة العظيمة التي تمتعت بها المرأة في ظل رحمة الإسلام .

تمهيد

القصة: معناها اللغوي والاصطلاحي، ومفهومها القرآني

قبل الخوض في رحاب القصص القرآني، لا بد من فهم المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، والمفهوم القرآني للقصة.

جاء في لسان العرب حول لفظة (**القصة**) ما يلي:

القَصُّ: فعل القاص، إذا قصّ القَصصَ، أي البيان.

والقصة: معروفة، ويقال: في رأسه قصة، يعني الجملة من الكلام، ونحوه قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣]، أي: نبيّن لك أحسن البيان في قصة يوسف بن يعقوب عليه السلام (1).

القاصّ: الذي يأتي القصة على وجهها، كأنّه يتتبع معانيها وألفاظها، وجمع القاص: قُصّاص.

---

١ – صفوة البيان لمعاني القرآن، تفسير الشيخ حسنين مخلوف، ص٣٠٢.

ويقال: قصصت الشيء، إذا تتبعت أثره، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص: ١١]، أي: اتبعي أثره

والقاصّ: يقصّ القصَص لاتّباعه خبراً بعد خبر، وسوقه الكلام سوقاً[1].

ويؤكد الرازي[2] أنما سميت الحكاية قصة لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً، والقصص (هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة).

ويقول صاحب تفسير **"مجمع البيان في تفسير القرآن"**[3]: القَصَص بالفتح: الخبر المقصوص، ورواية الخبر، وتتبع الأثر، ووُضع موضع المصدر، حتى صار غالباً عليه، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡ ﴾ [القصص: ٢٥]. أي: قص عليه أخباره وحدثه بها.

---

١ – لسان العرب، ابن منظور، ط دار المعارف، بدون تاريخ، مادة (ق ص ص). والقاموس المحيط لمجد الدين الفيروزأبادي، ط المكتبة التجارية الكبرى، ط٥، بدون تاريخ وتاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، مادة (ق ص ص)، المطبعة الخيرية بجمالة مصر، ١٣٠٦هـ ومختار الصحاح للرازي، ط دار مصر للطباعة، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، ط المطبعة العثمانية ١٣١٢هـ.

٢ – التفسير الكبير للفخر الرازي، المطبعة الهندية العصرية ج٢، ط١، سنة ١٩٣٥هـ، ص١٨١و ٧٠٣.

٣ – مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، ط دار مكتبة الحياة بيروت ج١، بدون تاريخ.

والقِصص بالكسر: جمع (القصة) التي تكتب[1] ويقال: أقصصت الحديث وقصصته وقصصاً أي: رويته على وجهته، وهو من اقتصصت الأثر: أي اتبعته، أي رجع موسى وفتاه من الطريق يقصان الأثر: أي يتتبعانه في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴾ [الكهف: ٦٤].

وجاء في المفردات للراغب الأصفهاني حول نفس المادة[2]: " القصّ: تتبع الأثر، يُقال: قصصت أثره، والقصص: الأثر، والأخبار المتتبعة، وهو مصدر يطلق على ما يُرْوَى من الأخبار، كقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١].

ويقول الشعراوي[3]: (إن كلمة (قصة) قد وردت في القرآن الكريم كثيراً لتدلنا على صدق الله في إخبارنا بما في تلك القصص من أحداث ومعان، وحين يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

---

١ – مختار الصحاح، مادة (ق ص ص).

٢ – المفردات في غريب القرآن، للإمام الراغب الأصفهاني، ط دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ – مادة (ق ص ص)، ص٤٠٤.

٣ – قصص الأنبياء، الشيخ محمد متولي الشعراوي، المجلد الأول، ص٢٠-٢٣.

فإن الخالق العظيم يخبر الرسول الكريم أن قصص الإخبار بالرسل السابقين عليه إنما لتقوي عزم الرسول للقيام بمشاق ومهام الرسالة.

فكلمة قصّ وقصص: تعنيان في القرآن الكريم، تتبع الخبر والحديث على وجه الحق والصدق منه، وهو تتبع لا مجال قط للخيال أو المبالغة، كما أنه تتبع لا تقتصر حكمته على الصدق البياني للخبر والصدق التاريخي، وإنما يرتبط دائماً بهذا الصدق أن يكون الخبر القصصي كما يقصه القرآن جزءاً حياً من حركة التاريخ يتنزل الله به أمام أعين المؤمنين وأسماعهم، ليشهدوا ويعوا دلالة السنن التي حكمت مسيرة البشر ومصائرهم في الماضي حكماً علمياً مقنّناً لا تحوّل فيه ولا تبدل.

فالغاية من القصص القرآني إذاً ليست مجرد الإعلام بما حدث من أخبار الأمم والشعوب بالتتبع الصادق لأخبارها، وإنّما الغاية أن يكون هذا القصص نفسه هادياً للمؤمنين إلى الطريق الصحيح الذي يتتبعون به خطى من سلف من للمؤمنين الذين اختاروا الهدى بالله عن علم، ونبذوا الضلالة والإلحاد عن برهان ويقين)[1]، كقوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ

١ - قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، ص٢١١.

قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٠ – ١٣١].

وبهذا تكون لفظة (القَصَص والقِصص) قد جاءت في القرآن الكريم واسْتُعْمِلَت بكلا معنييها (اللغوي والاصطلاحي).

فاللغوي: جاء في آيات منها قوله تعالى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الكهف: ٦٤]. أي: اتباعاً.

والاصطلاحي: والذي هو (سرد الحكاية والأخبار عن أحداث) في قوله: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ [الأعراف: ١٠١]، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣].

وعلى هذا فإن هذه اللفظة استخدمت بنفس معناها اللغوي تقريباً، أي أن هناك علاقة وثيقة بين معناها اللغوي، والمعنى المجازي والاصطلاحي.

فالِقصة: هي نوع من المتابعة سواء بالنسبة إلى القاص نفسه أم المستمع أم القارئ.

والقاصّ: تَتَبَّعَ في سرده لأحداث القصة تسلسلاً معيناً حتى يصل إلى نهايتها، والقارئ- هو الآخر- يتابع المعاني التي يلقيها القاص في ذهنه حتى يصل إلى نتيجتها.

لذا استُعلمت لفظة القصص في الآيات القرآنية للتعبير عن الأحداث الغابرة للأمم السابقة، ولكن ليس لقصد الصدق في تتبع أخبارهم فحسب، بل للوصول إلى الاعتبار والاتعاظ بقصصهم التي وردت في سيرة حياتهم.

بعد هذا التفسير الشامل لمادة (**قَصَصَ**) من اللغويين والمفسرين، للمعنى اللغوي والاصلاحي، والمفهوم القرآني لهذه الكلمة، نجد من يُملي علينا رأياً مغايراً مستنداً بحكمه على استعراضه لبعض القصص القرآني، بأنواعها (التاريخية، والتمثيلية، والواقعية)، ولكنه يضيف لدراسته لوناً آخر "اللون الأسطوري للقصة القرآنية" بدلاً من لون (القصة الواقعية)، ويقرّ بأن القصة الدينية ليست إلا لوناً من ألوان القصص الأدبي، ويخالف بذلك آراء اللغويين والمفسرين لكلمة (**قَصَصَ**) قائلاً: (إننا ونحن ندرس القصص الفني لا نستطيع أن نقف عند حدود تفسير اللغويين والمفسرين لهذه الكلمة، ذلك لأننا حين نذكر قصة إنما نقصد شيئاً آخر أهم من (متابعة الخبر أو الحدث)، نقصد ذلك العمل الأدبي الذي يكون نتيجة تخيّل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له، أو لبطل له وجود، ولكن الأحداث التي دارت حوله في القصة لم تقع، أو وقعت

للبطل، ولكنها نُظمت في القصة على أساس فني بلاغي، فَقَدَّمَ بعضها وأخّر آخر، وذكر بعضها وحذف آخر، أو أضيف إلى الواقع بعض لم يقع، أو بُولغ في التصوير إلى الحد الذي يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية المألوفة، ويجعلها من الأشخاص الخياليين))[1].

ذلك ما يقصده عندما يلفظ لفظة قصة في الميزان الأدبي، وهذا هو الذي يقصده من دراسته للقصص الفني في القرآن الكريم في بحثه.

وهو مخطئ بذلك، فقد جنح بخياله بتصور بعيد عن جادة الصواب والمنطق السليم لتفسير (فنية القصة القرآنية) وأهدافها وأغراضها، إنه بذلك يُفقد القصة القرآنية غايتها المرجوة من العظة والعبرة، لأنه ابتعد بها عن الحقيقة والواقع، وحدد بذلك الهدف من القصة القرآنية، هو المتعة الفنية.

إن الله تعالى جعل من البيان في قرآننا العظيم سحراً، لكنه حدد الهدف من القصة القرآنية (عبرة، عظة)، بالإضافة إلى جماليتها الواقعية، وأثرها على الوجدان البشري.

وإن بَحْثَ الكاتب عن القصد الفني والأدبي في قصص القرآن الكريم يجعله خيالاً ووهماً يبعده عن جادة الواقع والحقيقة، إذ يرى بأن هناك شيئاً أهم من

---

١ – الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ط سينا للنشر، ط٥، ١٩٩٩م،ص١٥٢.

متابعة الخبر والحدث في القصة، فهو بذلك يحاول أن يطبق نظريته في فن القصة عامة على القصة القرآنية خاصة، (مما يجعله يعتبر القصة الدينية لوناً من ألوان القصص الأدبي التي يحدد خصائصها، ببطل خيالي أسطوري، وأحداث غير واقعية، وكلما ابتعدت عن جادة الواقع كان تأثيرها أبلغ.

أما التصوير عنده فهو الذي يخرج الشخصية الواقعية التاريخية عن حقيقتها المألوفة ليجعل منها وهماً وخيالاً فوق الخيال، فيحرك المشاعر والعاطفة، ويحلق بالخيال فوق احتمالات الواقع، ويخرج بنتيجة أن القصص التاريخي في القرآن الكريم، قصص أدبي أولاً وأخيراً، فيكون بذلك معجزة بلاغية قولية برأيه، ويقصد منها غير ما يقصد من التاريخ، وتعرض غير ما يعرض التاريخ، وتثبت غير ما يثبت التاريخ)[1].

ثم يناقض نفسه في قوله: (إن القرآن يجعل القصد من قصصه العظة والعبرة، ويصل إليها بالأسلوب الذي يختاره، وهو الأسلوب الأدبي، الذي يدخل في الخيال كأبرز عناصره)[2].

---

١ – المصدر السابق، ص١٦٣. بتصرّف.

٢ – المصدر السابق، ص١٨٢.

كيف تتحقق العبرة من القصة - كما قال سابقاً- وهو يرى أن هدف القصص القرآني (فني) غايته الإعجاز البلاغي والأدبي، إن كاتبنا يناقض نفسه في خروجه بالغاية الأساسية للقصة القرآنية وهي (العظة والعبرة)، وذلك من خلال طرح الحقيقة الحقّة التي يريدها الله تعالى لعباده لكي يسيروا في جادة الصواب، لا هاوية الوهم والضياع!!.

إن الخيال في حقيقته إضافة يُقصد بها التشويق والإمتاع، ولا حاجة في قصص القرآن إلى الخيال والصورة والمفكرة الذّهنية، لأنّه كلام الله تعالى موجه لعباده، وهنا لا بدّ من أن نفرق بين قصة يؤلفها الكاتب، وبين قصة ترد في القرآن الكريم، للأسباب التي ذكرناها.

ومن ناحية ثانية يلجأ كاتب القصة إلى الخيال ليُغْنِي شخصيّاته، ويُكْبِرُ دورها وليجعل منها هامّة أو قريبة منها، وأمّا الشخصيّات في قصص القرآن الكريم، فهي ماثلة بشخوصها وألوانها وحركاتها من خلال اللغة المفهومة والتقريب البلاغي الذي يفتقر إليه الكائن البشري وهو يكتب القصة، فهذا الكاتب يحتاج إلى اللغة المباشرة ليبرز شخصيّاته من جهة، وإلى مرادفات تقارب المعنى الذي يقصد إليه، بينما يكون القصص القرآني غير محتاج إلى مرادفات التقريب لغنى ألفاظه وجماليات صوره التي تضع الشخوص في صورها الحقيقية ماثلة بكل تفاصيلها وألوانها، وكأنها حقيقة أمام ناظري القارئ.




فالهدف في القصص القرآني تربوي بحيث ينقل الإنسان من تصوّره للأحداث إلى مؤمن معتبر بوقوع الحدث أو توقعه، مما يزيده خشية وخوفاً وتضرّعاً وإقبالاً على الله سبحانه وتعالى، وهذا ما تفتقر إليه قصة أي كاتب بشري مهما امتلك من أساليب البيان.

ونحن نوافق ونشاطر الإمام الشعراوي[1] الرأي إذ أراد أن يخرج بالقصص القرآني عن دائرة القصص البشرية التي يرويها أي كتاب آخر، أو يصنعها أي مؤلف كما يحدث في هذا العصر، حيث يوجد فن قائم اسمه فن القصة، ومعظم هذه القصص إما خيالية، أو عمل العقل البشري على استخراجها من الواقع وأضاف إليها من الخيال، هدفه فيها الملهاة وقتل الوقت.

وهذا النوع من القصص يختلف بالتأكيد عن قصص القرآن الكريم، ويقترح الشعراوي تسميةَ الحكايات التي يتم اقتناصها من الواقع ومَزْجِ الخيال بها، (باسم غير القصة)، ويرى أن هذا الفن وارد من الغرب، وقد أخطأ من ترجم تلك الحكايات باسم (القصص)، ذلك أن كلمة (قصة) في اللغة العربية مأخوذة من (قصّ الأثر)، وقصّ الأثر معناه أن يسير المتتبع للأثر على الأثر نفسه، بحيث لا يتجاوزه أبداً ليصل إلى مراده في نهاية الأمر، وقصاصو الأثر هم قوم كان يأتي

---

١ - قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي ص٢٤-٢٥.

بهم العرب ليكتشفوا آثار بشر مفقودين أو إبل ضائعة، أو شيء مفقود، وكان يرون آثار الأقدام ليعرفوا أين ذهب صاحب هذه القدم، ويميزوا قدم إنسان من قدم إنسان آخر.

لذلك كان من الأجدر ألا تطلق كلمة (قصة) على أمر خيالي أو متوهم أو لا واقع له، إنما القصة يمكن أن تطبق على أمر قد وقع بالفعل ولا نزيد فيه شيئاً، كما علّمنا تبارك وتعالى، وذلك لنثبّت به فؤاد قارئها ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وهكذا كان ولا زال القصص القرآني، قصص الحق الذي لا يمكن أن نقارنه بقصص البشر، فهو ليس حكاية مزج فيها الخيال بالواقع، كما هو عليه في العُرف الأدبي الحديث القادم من حضارة الغرب، بل هو عبرة عامة وموعظة تتكرر في كل عصر، وليس الهدف من القصص القرآني الأشخاص لذواتهم، (ماعدا قصة مريم عليها السلام، وزيد بن حارثة رضي الله عنه) بل الهدف من القصص القرآني هو تثبيت قلب المؤمنين على طاعته، وسيظل هذا الهدف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولذلك لم يذكر الله تعالى أبطال هذه القصص بأسمائهم الكاملة لنعرف أشخاصهم، بل اكتفى باسم واحد.

ففرعون مثلاً هو كل شخص يريد أن يجعل نفسه إلهاً بعيداً في الأرض. وذو القرنين مثلاً هو من يريد إصلاحاً في الأرض، وصاحب الجنة في سورة الكهف هو كل من ينسى الله ويَنْسِبُ الفضل لنفسه.

فلذا، يعيب الشعراوي على بعض الناس بحثهم من هو فرعون موسى، أو من هو ذو القرنين، ناسين أن الهدف ليس الشخص ولكنها العبرة والعظة.

ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى في سورة مريم عليها السلام قال مريم بنت عمران، ولم يقل مريم فقط، وأن هذه القصة لم تحدث ولن تحدث لغيرها، وكذلك عيسى بن مريم.

أما باقي القصص فالذي يجب أن نستخلصه منها العبرة والعظة، فليس المهم في معرفة من هو فرعون موسى، المهم أن نعرف العظة مما يتعرض له أي إنسان ينصب نفسه إلهاً من دون الله في الأرض، فتكون نهايته نهاية فرعون الطاغية[1] .

إذاً استعملت (**لفظة القَصَص**) في القرآن الكريم للتعبير عن أحداث غابرة وأمم سالفة بغية الاتعاظ والاعتبار، لما تحمل هذه الكلمة من معنى محدد لمفهومها اللغوي والاصطلاحي، لذا فلم تُستعمل ألفاظ أخرى مرادفة لها، كـ (**الحكاية**)، و(**الرواية**) مثلاً.

---

١ - قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، ص١٩.

إن كل شيء حدث في الكون، وكل شخص في الكون يمكن أن يكون له تاريخ، والأشخاص التي تتحرك في التاريخ هي أحداث أيضاً لها ميلاد وموت، وتدور حولها أيضاً أحداث أخرى مرتبطة بزمن حياتهم.

لكن الناس تنظر إلى الأحداث المهمة في التاريخ على أساس أنها تتضمن الخلاصة التي على الإنسان أن يستوعبها، ومن هنا تولد القصة.

إن القصة تتطلب حدثاً مثيراً وفيها عقدة، وفيها الحل للعقدة، إذن فالقصة لون خاص من التاريخ.

وهكذا أراد الحق لنا أن نفهم قصص القرآن الكريم.

إن معظمها عن رسل أرسلهم في التاريخ الإنساني بحدث واحد مثير وضخم هو ضرورة الالتفات إلى وحدانية الله وإلى منهج الله، هذا الحدث هو الذي ينظم أمور كل أبناء الوجود، هكذا كان أمر رواية الحق للقصص القرآني في سياق الحدث الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا الحدث هو الإسلام ونزول القرآن وبعثة محمد ﷺ.

لذلك فالإمام الشعراوي يفرق بين القصة والسيرة.

إن الله تعالى وضع كل القصص القرآني في رسالة رسوله الكريم، وذلك حتى نأخذ من سيرة رسالة رسولنا الكريم ﷺ الأسوة، تنتظم من خلالها قصص الأنبياء وغيرها من القصص[1].

وهكذا نتعلم أن القصة سيرة لتاريخ ما قبلها، تروي ما حدث من قبل، وبعدها يأتي تاريخ جديد بقصة جديدة، ولا تنفرد مسألة بعث رسول بلقب (سيرة) إلا بعثة محمد ﷺ،لأنها سيرة من جاء بالهدى للكون، فيها ما يسود أحداث الكون.

وبعض الناس يدّعي أن القصص في القرآن الكريم، تكون بتوسع، ومحبوكة، وفيها أشياء قديمة، وأشياء حديثة، لم نكن نعرف عنها شيئاً قبل نزول القرآن.

ولكن الإمام الشعراوي يردّ عليهم في قوله: (إنك تأخذ قضية أو قصة ثم تزيد فيها وتجعل فيها (حبكة) وأبطالاً وتدخل فيها عنصر التشويق)، فإن هذه ليست قصة، هذه رواية، لأن القصة تعني أن تلتزم بما كان فيها حرفياً، وهي مأخوذة كما سبق من (قص الأثر): أي تتبعه في الصحراء.

وحين تقرأ قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾ [هود: ١٠٠]. فلا بد أن تعرف أن قصص القرآن التي يعطينا الله

١ - المصدر السابق: ص٢٦-٢٧ بتصرف.

سبحانه وتعالى بها العبرة الإيمانية، هذه القصص لا بد أنها قد حدثت فعلاً، وأن أحداثها صحيحة لا يداخلها شك، ولا يدخل فيها أي نوع من أنواع الرواية أو اختلاف الأحداث، وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا قَآيِمٌ وَحَصِيدٌ﴾، فالقائم هو ما بقي من أعمدة عليها نقوش ونحت، لكي تفهم أن القصة صحيحة وحقيقية، فلو أن كل آثارها طُمست، فما الذي يدلك على الحقيقة؟ فعندها يمكن أن يقال: إنه كلام يفتقر إلى الصدق، ولذلك نجد كل أثر من الآثار للأمم السابقة فيه ما هو قائم، أي موجود ليدل الناس على صدق ما يُقال، وحصيد أي هالك، لأنه لا يمكن أن يبقى كما هو ويقاوم الزمن[1] .

أما الحكاية فيقول ابن قيم الجوزية[2] هي أن يحكي كلام المتكلم (إما بلفظه أو بمعناه) والقرآن العظيم خير شاهد على ذلك، فقد حكى الله تعالى من قول الملائكة: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

١ – قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، ص٣٧.

٢ – الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، ط١،ص٣٠٠ بتصرف.

ولكن لم يستخدم الله تعالى لفظة (الحكاية) للمعنى المقصود (القصص)، ولعل الدكتور فالح الربيعي يرى (أن السبب في ذلك هو هذه الدلالة الدقيقة المزدوجة التي تعطيها لفظة "القصة"، وهي شمولها بالمعنى (القاص والمستمع)على حد سواء، بينما نرى كلمتي "الرواية والحكاية" تقتصر دلالتهما على الراوي والحاكي، دون أن تتعدى على المستمع فحسب)[1].

وهنالك بعض الحكايات التي تمتلئ دروساً بليغة، وتحقق أهدافاً عظيمة، من هذه الحكايات حكاية زياد بن أبيه – حاكم به قوة وله بطش فتاك – جاء إليه رجل يحمل وشاية بهمّام بن عبد الله السالومي، قال زياد للواشي: أأجمع بينك وبين ابن عبد الله؟ وخاف الواشي أن يقول لا فيناله بطش زياد، وأرسل زياد إلى همّام؟ وجاء همّام، وأدخل زياد الواشي وراء ستارة، قال زياد لهمام: بلغني أنك هجرتني، قال همام: كلا أصلحك الله، ما فعلت، ولا أنت لذلك أهل.

فجذب زياد الستارة وقال: إن هذا الرجل قد أخبرني، هنا نظر همام إلى الرجل فوجده صديقاً ممن يجلس معهم، فذهب إليه وتفرس في وجهه وقال له: أنت امرؤ، إما ائتمنتكَ خالياً فخنت، وإما قلتَ قولاً بلا علمي، فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم، هكذا قال همام متهماً صديقه بأنه إما قد

---

١ – القصص القرآني، د. فالح الربيعي، الدار الثقافية للنشر القاهرة، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠٥م، ص١٠.

نقل كلمة قالها أمامه ليريح نفسه، وإما قد دسّ له قولاً مكذوباً، وهنا أنعم زياد على همام وأقصى عنه الواشي[1].

هذه الحكاية تعالج الوشاية، وتدعو الحكام للتحقق من الواشين، حتى لا يرتفع عندهم واشٍ على كومة من الأكاذيب الملفقة.

أما الأقصوصة فنجدها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢ ﴾ [الكهف: ٩ – ١٠].

هذه الأقصوصة تحكي موجزاً لحكاية أهل الكهف، حيث عاشوا في عصرٍ كَفَرَ أهله بالبعث، فأوى عدد من المؤمنين إلى الكهف فراراً من المشركين، فوقفت حياتهم سنين عديدة، ثم بعثهم الله مرة أخرى إلى الحياة، وهذا دليل قدرته المطلقة.

وبعد ذلك يروي الحق القصة بتفاصيلها، بداية من قوله سبحانه: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ ﴾ [الكهف: ١٣].

---

١ – المرجع السابق، ص٢٧–٢٨.




إلى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦].

ويروي الله القصص الحق في شأن عدد السنوات التي قضاها هؤلاء الفتية نياماً أنها (ثلاثمئة وتسع سنين).

وإن هذه الآية تتضمن حقيقة فلكية لم يفطن لها الإنسان، ولم يتوصل إليها إلا بعد الاكتشافات العلمية المعاصرة، وهي أن ثلاثمئة سنة شمسية تساوي ثلاثمئة وتسع سنوات قمرية، وهكذا نجد أن القصص القرآني يحفظ الآثار بعلم الله الذي هو فوق كل علم[1].

وقد نتساءل: لماذا استعمل القرآن الكريم للتعبير عن الحوادث التي سردها حول الأمم الماضية ومواقفها من أنبيائها، ألفاظاً أخرى كـ(أنباء وأخبار)، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾[القمر: ٤].

١ - قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، ص٣٢٠-٣١ بتصرف.

وهنا نؤكد على استعمال القرآن لهذه الألفاظ، لتصف وتعبّر عن أحداث القصص القرآنية، لا لتسمّيها وتضع لها عنواناً رسمياً.

فالعنوان الأساسي للأحداث التي نقلها القرآن الكريم هو (القَص)، ونحن عندما نريد أن نذكر هذه الأحداث ذكراً علمياً نقول: (قصص القرآن) لا (أنباء أو أخبار القرآن)[1].

ولعل الله تعالى أراد من اختيار هذه اللفظة، لفت الانتباه إلى أن القصص التي جاءت في القرآن الكريم ليست من النوع الأدبي المألوف، بل إنها تحمل في نسيجها دلالاتٍ ومعاني ومواعظَ وعبراً عظيمة.

فقد استعمل القرآن الكريم (الخبر والنبأ) بمعنى التحدث عن الماضي، وإن كان قد فرق بينهما في المجال الذي استُعملا فيه جرياً على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز، فاستعمل النبأ والأنباء في الإخبار عن الأحداث الموغلة في البعد والقدم، لقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠]. ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [هود: ٤٩]، وقوله عن أصحاب الكهف: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف: ١٣].

١ – القصص القرآني رؤية فنية د. فالح الربيعي: ص٩–١٤ بتصرف.

وقد تُستعمل للدلالة على الأحداث المصيرية المهمة، وإن لم تحدث في الماضي، كقوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [النبأ: ١ – ٣].

وقد تُستعمل للدلالة على أهمية وعظمة تلك الأسماء، في قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١].

وقد ورد في قصص الأنبياء[1]: أن كلمة نبأ في القرآن الكريم تعني الخبر العظيم، وغالباً ما يكون النبأ (قصة)، في مثل قصة سليمان مع بلقيس، في قوله تعالى على لسان الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢].

أما الأخبار فإنها تُستخدم عادة في القرآن الكريم للتعبير عن الأحداث الراهنة والمستقبلية، كقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١]. والأخبار في هذه الآية لها دلالة مستقبلية، وكذلك الآية التالية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة: ٤] .

---

١ – قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، ص٢٢.

أما قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ [التوبة: ٩٤]، فإنها تدل على الأحداث التي عاصرت نزول القرآن الكريم[1].

مع الملاحظة أنّ مضمون القصص القرآني في نظمه ومادته، لم يشتمل أبداً على شيء من واقع الحال، أو متوقعات المستقبل.

وليست من وظيفة القصة في القرآن تصوير الأحداث الدائرة في محيط الدعوة، ولا تصوير الأحداث المستقبلية التي تنبئ بانطلاق هذه الدعوة وظروفها عبر المستقبل تصويراً فوتوغرافياً، وإنما تصوره على أنه حادث سيقت حتماً (كما في سورة الروم)، و(سورة الفتح)، لكن دون تحديد زمن وقوعه، لأن القرآن تكفل بكل هذه الأحداث الدائرة والمستقبلية، بعيداً عن الأسلوب القصصي ونهجه.

فأخبر سبحانه وتعالى عن فتح مكة، ودخول الناس أفواجاً في دين الله بقوله: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ ﴾[النصر: ١].

وأخبر عن انتصار المسلمين وهزيمة الكفار في معركة بدر التي ستقع في قابل الأيام ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ ﴾[القمر: ٤٥].

---

١ – القصص القرآني رؤية فنية، د. فالح الربيعي، ص١١–١٢، وبحوث في قصص القرآن، عبد الحافظ عبد ربه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١ ١٩٧٢، ص٤٥–٤٧ بتصرف.

وأخبر عن المعارك التي سيتمخض عنها المستقبل والتي ستدور سجالاً بين الفرس والروم، والتي ستكون الغلبة فيها أخيراً للروم، ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ [الروم: ١ — ٣].

كما تحدّث القرآن عن المعتقدات والأنبياء والمرسلين وأقوامهم، وتكلم عن المعارك والمغازي التي قامت ناشطة في رحاب الإسلام.

ومع هذا، فليس من المتوقع إقحام الأحداث الجارية أو الآتية في الأسلوب القصصي – ليس مجرد أحداث تُروى وتُحكى – وإنما أحداث تتفاعل وتتحرك وتلد العبر والعظات.

وإن اشتقاق القصة يعني البحث عن الآثار، وتتبع وابتعاث الحدث على صورته الأولى وحالته الأصلية، ثم إعادة عرضه وبعثه من جديد بأسلوب قصصي، الذي يحقق العبرة، ويحدد أبعاد الموعظة[1].

﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝١١١ ﴾ [يوسف: ١١١].

---

١ – بحوث في قصص القرآن، عبد الحافظ عبد ربه، ص٤٥-٤٧ بتصرف.

فالقصص الأدبي: تختلط فيه الحقيقة بالخيال، ويحسن الإغراق والمبالغة والغلو في الخيال، ويكون أكثر وقعاً في النفوس بمقدار بعده عن الواقع والحقيقة وإغراقه في التصوير والخيال.

أما **القصة القرآنية**: فإنها تعبر عن الواقع الحق، الخالي من أي زيادات خيالية التي يضيفها كتّاب القصة الأدبية، مدّعين بأنها من إبداعهم، أما القصص القرآني فقد ورد بأسلوب بلاغي مُعجز لم تعرف العرب مثله في بلاغتهم ولغتهم، ليزيّنوا فيها قصصهم بغية الإثارة وجذب الاهتمام، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران: ٦٢].

وفي هذه الآية الكريمة ورد ذكر ثلاثة تأكيدات لهذه الحقيقة.

هذه التأكيدات هي عبارة عن (إنّ)، و(اللام)، وعبارة (ما من إله إلا الله)، وكأن الله تعالى فيما يخص التأكيد الثالث، وضع حقيقة واقعية الأحداث القرآنية في مستوى حقيقة عدم وجود إله غير الله تعالى على سبيل أسلوب القصر[1].

١ - الكشاف، الزمخشري، محمود بن عمر، ج٢، المطبعة البهية المصرية، ١٣٤٤هـ- ١٩٢٥، اعتمدنا في تفسير الآية على هذا المرجع.




الفصل الأول

نماذج إيجابية في عهد الأنبياء

المبحث الأول: حواء أم البشر في عهد آدم عليه السلام .

المبحث الثاني: مريم بنت عمران في عهد عيسى عليه السلام .

المبحث الثالث: ملكة سبأ في عهد سليمان عليه السلام .






➢ المبحث الأول

حواء . . . أم البشر

نموذج للمرأة الإيجابية في القصة القرآنية

- حواء . . . أم البشر في قصة الخلق .
- لم تذكر في القرآن .
- قصة آدم، ومرحلة إخبار الملائكة .
- حواء وآدم في الجنة .
- وسوسة الشيطان لهما .
- أكل آدم وحواء من الشجرة .
- التوبة . . . وطلب المغفرة .
- هبوط آدم إلى الأرض .
- آراء حول أصل خلق حواء؟!
- من المسؤول عن الأكل من الشجرة؟
- دروس وعبر . . . حول القصة .

حواء . . . أم البشر

ودورها في قصة الخلق

إذا ذكرت المرأة، لا بد أن نرجع بذاكرتنا إلى المرأة الأولى في حياة البشر، وفي تكوين الأسرة الأولى للإنسانية .

فنذكر أول امرأة خلقها الله سبحانه وتعالى لتشارك الرجل في (قصة الخلق)، الركيزة الأولى في حياة الإنسانية، وفي عقيدة التوحيد التي فطر عليها الإنسان .

ولنتعرف على دورها في قصة البشر، لا بد من سرد قصة الإنسان الأول .

قصة آدم . . . هي قصة البشرية جمعاء، أحداثها الأولى شاركت فيها السماء وابتدعتها، ثم امتدت يد الخالق سبحانه وتعالى إلى الأرض، وزمانها ممتد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، حين تنتهي بعدها مسيرة حياة ذرية آدم وحواء عليهما السلام .

لذا فأبطالها الأساسيون (**رجل وامرأة**) .

ولأهمية القصة، يطالعنا بها القرآن الكريم في سور عديدة، فيعرفها في مواضع متعددة في القرآن الكريم حسب المناسبة، وتحقيقاً لمسألة الاستخلاف التي أرادها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] .

فقد أوردها القرآن الكريم بوضوح لا لبس فيه، إذ بدأ بالأمر الإلهي: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾، وهو قرار إلهي صدر في (كن) فكان، ولم تكن الآية على سبيل المشورة من الله سبحانه للملائكة، وإنما على سبيل الإخبار والإعجاز والبيان للكيفيّة التي تمت بها عمليّة الخلق لآدم وحواء .

ثم تأتي مرحلة تعليم آدم للأشياء بمسمياتها كي لا تكون لآدم وبنيه حجة على الله تعالى، فقد علمه كل الأشياء وبناءها ومركباتها، ثمّ كلفه بتعمير الأرض كما أرادها الله سبحانه وتعالى أن تكون .

وقصة الخالق هذه لم تكن من أجل نقلها من جيل إلى جيل على أنها قصة من القصص، فقد حملت إعجازاً متنوعاً لا تحصره ولا تلم به سطور، إنها مسألة أخطر من أية مسألة أخرى، لأن المخلوق الأول آدم عليه السلام مكلف بكونه خليفة يجب أن يقوم بمهمة الاستخلاف، وذلك بتطبيق أوامر الله تعالى ونشر العدل والطمأنينة والسلام، وإقامة الحياة على الأرض بما تتطلبه وتنشده من

عبادة وتعمير، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ بمعنى التعمير، لا بمعنى الاستعباد، كما يدل المصطلح الحديث لكلمة الاستعمار .

وهذه السور حسب ترتيبها في النزول[1] كما يلي:

١- سورة ص، ٢- سورة الأعراف، ٣- سورة طه، ٤- سورة الإسراء، ٥- سورة الحجر، ٦- سورة الكهف، ٧- سورة البقرة .

إن أول من قصّ الله تعالى علينا قصصهم في القرآن الكريم من الأنبياء قصة آدم، أبي البشر عليه السلام، وأمنا الكريمة حواء .

وقد ذكر اسم آدم في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة، في خمس وعشرين آية، وهي في السور التالية: (البقرة، آل عمران، المائدة، الأعراف، الإسراء، الكهف، مريم، طه، يس)[2].

---

(١) القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، د . فضل حسن عباس، دار الفرقان عمان، ط١، ١٩٨٧م، ص٤٤ . (واعتمدنا في ترتيب النزول على ما رجحّه كثير من العلماء) .

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ص٣٠-٣١، وقصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص١٧ .

أما حواء . . فلم يذكر اسمها في القرآن الكريم، ولم يحدثنا عن أمنا الحنون التي عرفت بـــ " حواء"، لم يحدثنا عن اسمها كما لم يحدثنا كيف تم خلقها، إلا بإشارات أشار إليها القرآن الكريم في قصة آدم، وهذه لحكمة إلهية أرادها الله تعالى وعبر عنها بقوله: ﴿ أَنتَ وَزَوْجُكَ ﴾، ولكن رغم ذلك نجد لها الدور الرئيسي والإيجابي في نمو أحداث " قصة الخلق"، لتحقق العبرة والعظة لبني جنسها، ولذريتها الصالحة، ولتشارك آدم في خلافة الله في الأرض، فلا يوجد أعظم من هذا الدور الإيجابي الرئيسي الذي حققته في قصة الخلق، وما نتج عنها من دروس وعبر .

إن الله تعالى لم يذكر اسمها كما لم يذكر اسم أي امرأة من زوجات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام إلا بالإشارة، إلا مريم بنت عمران، فقد ذكر اسمها، وذلك لحكمة أرادها الله تعالى، لمقتضى الحال، سنتوسع في شرحها في مباحث تالية .

وليس إغفال القرآن لذكر اسم المرأة إلا حين لم يكن للاسم غرض خاص يتعلق به، من حيث هو في ذاته تلك، وذكر المرأة، من حيث هي امرأة، دون تعيينها بالاسم إنما يراد به حيث ذكرت التعميم، بحيث تكون هذه المرأة دالة على جنسها كله في حيّز الحكم الذي أناطه القرآن بها، أو الوضع الذي وضعها فيه .

ولو ذكرت المرأة هنا معينة باسم، لفهم من ذلك أن الحكم أو الوضع إنما هو لها بذاتها لخصيصة فيها، وليست في بني جنسها، فمثلاً (امرأة فرعون، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة أبي لهب، وملكة سبأ . .) كلهن نساء يمثلن جنسهن في شرها أو ضلالها .

أما حيث تكون المرأة على صفة خاصة تستقل بها دون النساء، فإن ذكرها باسمها يكون حينئذ أمراً لا مندوحة عنه، ولا معدى عنه، فلا يكفي في مريم بنة عمران أن يقال عنها: (امرأة أحصنت فرجها)، إنها امرأة واحدة بين نساء العالمين تلك كان لها هذا الشأن . . ولو أغفل ذكر اسمها هنا لأفهم ذلك أن هذا لها من حيث إنها امرأة .

كلا . . . إنها امرأة أراد الله سبحانه وتعالى أن يختصها بهذا الفضل العظيم، وأن يجعلها وابنها آية للعالمين .

وليس هذا في شأن المرأة وحدها، بل إن القرآن قد جرى عليه في شأن الرجال أيضاً .

لم يكن العرب يكرهون ذكر المرأة أصلاً . . بل كانت تُذكر في أشعارهم وأخبارهم، وسُمّي كثير من الفرسان والمشهورين والملوك والقبائل بأسماء أمهاتهم . . يقول الشاعر مفتخراً بنسبته إلى أمه:



أنـا ابن دارة معروفـاً بهـا نســبي   وهـل بـدارة يـا للنـاس من عـارِ

فالعرب لم يكونوا يتحرجون في ذكر نسائهم بأسمائهن، زوجات أو أمهات أو بنات، وما فعله القرآن في الذكر أو الحذف كان لمقتضى الحال(1) .

لو كانت التسمية (للحب)، وتركها (للبغض)، لسمى الله تعالى (آسية) باسمها في القرآن الكريم، ولم يقل جل جلاله (امرأة فرعون)، كما سمى الله تعالى جماعة من الكفار أيضاً بأسمائهم وكنّاهم .

وقد نتساءل لِمَ سمى الله تعالى بعض النساء، مثل (امرأة فرعون، امرأة العزيز، امرأة لوط، امرأة نوح)، ولم يقل: (زوج فرعون، زوج العزيز، زوج لوط، زوج نوح)؟ .

تفسير ذلك: أن كلمة (زوج) تتضمن عطفاً بالتساوي بين الزوجين في النفس والمعنى من حيث المهمة الإيمانية، فإن كانا متساويين في الإيمان سميت: (زوجة)، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [الأعراف: ١٩]، ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ﴿ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ولم يقل الله تعالى: **أمسك عليك امراتك!!** .

---

(١) القصص القرآني، عبد الكريم الخطيب، ص١١٦-١١٨ بتصرف .

أما إذا اختل التوازن الإيماني بينهما، فلم يتساويا في الإيمان من أحد الطرفين، فهي (امرأة)، (فامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة العزيز) كنّ كافرات، واختل التوازن الإيماني بينهن وبين أزواجهن من طرفهن، أما (امرأة فرعون) فكانت مؤمنة، لكن التوازن الإيماني لم يتحقق، لأن زوجها كان من الكافرين .

إذاً ليست العبرة بذكر اسم حواء، بل الدور الذي قامت به، لقد كان لحواء الدور الرئيسي في (قصة الخلق)، حيث شاركت آدم عليه السلام في تطوير الأحداث ونموها، والصراع القائم بين قوى الخير والشر لتحقيق لعظة والعبرة من قصة البشر .

إن الله تعالى كرّم المرأة وأكّد على إنسانيتها وكرامتها كالرجل سواء بسواء، بنصوص قاطعة من ذكره الحكيم، إذ استهل (سورة النساء) بآية تثبت إعجازه تعالى، بأن المرأة والرجل من نفس واحد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: ١] .

فالرجل والمرأة في الجنس والأصل، والإنسانية، والتكريم سواء . . ويقصد الله تعالى به أن خلقها من نفس آدم عليه السلام، وعلى صورته وخلقته وطبيعته وبنيته، ويتحقق الانسجام، فيعمر الكون، فتتحقق سُنَّةَ الله تعالى في أرضه، هذا ما قدّره الله تعالى، وما أراده من اختيارهما وذريتهما خليفة له في الأرض .

ولكي نتعمق في دراسة النفس التي يجعلها الله زوجين ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾[النجم: ٤٥]، كان لا بد من ذكر بداية قصة الخلق.

بدأت قصة آدم " بمرحلة الإخبار": إذ أخبر الله تعالى ملائكته أنه سيخلق بشراً من طين، وأمرهم أنه إذا سواه ونفخ فيه من روحه، أن يسجدوا له، ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[ص: ٧١ — ٧٢].

وأخبر الله تعالى ملائكته بخلق آدم، وأنه سيجعله خليفة له في الأرض، وأن هذا الخليفة ستكون له ذرية يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، ولكن سيجعل فيهم الأنبياء، ويرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصدّيقون والشهداء، والصالحون والعلماء، والعاملون والزهاد، ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة: ٣٠]، كانت الحيرة في نفوس الملائكة، التي تسبح وتقدس له، فما حكمة الله تعالى في أمر خلق آدم وذريته؟! .

لكن الله تعالى ردهم إلى اليقين والتسليم في قوله: ﴿ إِنِّىٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، فأعلمهم الله تعالى أن طبيعتهم ليست مهيأة للمهمة التي قدّرها الله تعالى لآدم وذريته في الأرض .

إن التسبيح بحمد الله وتقديسه هو أشرف شيء في الوجود، لكن الخلافة في الأرض لا تقوم بذلك وحده، إنما تحتاج إلى طبيعة أخرى، طبيعة تسعى لعبادة الله تعالى وطاعته في كل شيء، والمعرفة والعلم، والبحث والاستكشاف في الأرض، وفي إعمارها، وتجوز عليها الأخطاء، والتوبة إلى الله، والمغفرة، وأن آدم سيكون نوعاً جديداً من المخلوقات، وستتحقق بوجوده كلمة إلهية عُليا، لا يدركها أحد سواه!! ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

وآدم مشمول بمضمون الآية الكريمة، وتكليفه بالعبادة كما تكلف زوجه حواء بذلك مثله .

فالإنسان إذن مخلوق ليعبد الله، وليست له مهمة غير ذلك كما بينتها الآية الكريمة، فالنفي والاستثناء (وما خلقت . . إلا ليعبدون)، حدد بأسلوب الحصر، حيث حصر الهدف من خلق الإنس والجن على العبادة وحدها، ولا شيء قبلها، فنأخذ من موجز القصة الأولى لخلق آدم عليه السلام قيامه بتعمير الأرض

تطبيقاً لمشيئة الله وإرادته مشاركة مع زوجه وليس وحده، لأن القيام بأعباء التكليف ليس مهمة فردية نستثني منها حواء عليها السلام، وإنما هي مكلفة معه في كل مهمة في الحياة، لكن الله تعالى أكد على عبادته ضمن أوامر ربانية، أمر فيها آدم وذريته، وكلها داخلة في نطاق التكليف الذي خلق الله الإنسان من أجله .

فعمارة الأرض جزء من عبادة الله تعالى، يبدأ بها الزوجان الأولان آدم وحواء، ويقومان بتنفيذ الأعمال التي تفيد الإنسان، وتجعله يقضي أوقاته فيما هو مفيد وصالح لدينه ودنياه، لا شك أنها عبادة، وفي القرآن ما يثبت ذلك: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ [هود: ٦١]، فالإعمار لا يدعو إلى إهمال النفس البشرية أو تناسيها لحساب إعمار الأرض، وإنما جزء من الإعمار، لذلك لا بد من معرفة متطلبات النفس وتحقيق رغباتها في كل ما تصبو إليه إذا كان لا يخرج على الشريعة والحدود أو يتجاوزها، لذلك فإن إشباع النفس وحاجاتها وضرورياتها ولوازمها أمر مطلوب ما دام في ضمن مرضاة الله تعالى، طالما لا يكون فيه مخالفة، لأنه إذا خالف الأوامر والنواهي استحق العقاب، كما أن التطيّب والزينة من الإعمار، إذ لا بد من تعمير النفس بالإيمان وبنعم الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ . . . . ﴾ [الأعراف: ٣٢] .

فاستخدام الزينة الطيبة التي يجعلها الله لفائدة الإنسان ومتعته، هي جزء من عبادة الله، إنه تذوق الجمال والبحث عنه في ملكوت الله وتسخيره في خير دينه ودنياه، فهي عبادة وتعمير:﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ ﴾ [النحل: ٨،]، ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤]

إن ابتغاء الرزق جزء من عبادة الله أيضاً، فالإنسان الذي يمشي في مناكب الأرض ليبحث عن رزقه ورزق ذريته فهو يسعى لابتغاء فضله ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] .

فهذه دعوة من الله تعالى للإنسان أن يعبد الله في عمله وعلمه، وهذا تسهيل من الله تعالى على عباده لكسب مرضاته، فإنهم في كل أعمالهم ذاكرين لله شاكرين له، ما داموا ملتزمين بأوامر الله تعالى ساعين لمرضاته، وليست العبادة بإقامة الشعائر التعبدية في أوقات محددة فقط، وكل هذه تلك من مهمات إعمار الأرض، لأنها لا تعمر إذا دخل الخراب إلى نفس الإنسان .

وهنا لا بد من أن نعلم أن إعمار الأرض وانتعاشها بحياة البشر وحيويتهم لا يكون إلا بالعلم الله، ومعرفته معرفة كاملة، ومعرفة النفس



ودورها وآلية عملها في عملية الإعمار، وفتحها على العلم النظري والتطبيقي وإكمالاً للمعرفة .

وهذا ما يؤكده الله تعالى في قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] .

إذ كلما ازداد الإنسان علماً ازداد خوفاً من الله تعالى وتقرباً منه، وهذا منهج لبني آدم لا بد لهم من سلوكه، وصدق رسولنا الكريم ﷺ في قوله مبيناً أهمية العمل وثوابه عند الله تعالى: (**من أمسى كَالّاً من عمل يده أمسى مغفوراً له**)[1]، (**وإن من الذنوب ذنوباً لا يكفّرها الصلاة ولا الصوم ولا الحج، يكفرها الهم في طلب المعيشة**)، وأضاف الديلمي عن أبي هريره: (**إن في الجنة درجة لا ينالها إلا أصحاب الهموم يعني في طلب المعيشة**)[2] .

بهذا المفهوم للعبادة أمرنا الله تعالى بأن نعبده ونشكره ونسعى لمرضاته، وهذا يفوق قدرات الملائكة ويخالف طبيعتهم، لذا اختار الله تعالى آدم وزوجه وذريته، ليكونوا لهذه المهمة في الأرض، فكان الخطأ والتوبة والمغفرة، فكان الهبوط إلى الأرض بعلم الله تعالى، فسخرها الله تعالى بكل ما يطيب لهم،

---

(١) رواه الطبراني في الوسط، عن عائشة رضي الله عنها، برقم: (١٧٣٨) .

(٢) رواه الطبري وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة، انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني ج١، برقم: (٧٨٣) .

فكانت وسوسة الشيطان والصراع بين الخير والشر، وهي قصة الصراع القائم بين المؤمنين بالله، وبين الشيطان عدو الإنسان وسبب أخطائه وانحرافاته، وهي قصة لم تنته بعد، فمن تبع هدى الله تعالى فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، وتكون له جنات عدن، أما من اتبع الشيطان فكان في جهنم وبئس المصير .

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه: ١٢٣]، وكل ذلك كان يعلمه الله تعالى، وقد أخبر ملائكته بذلك، ولكن حكمة الله بأن يخلق من يصلح لتعمير الأرض بالعلم والعمل والاستكشاف، ويسخرها في خير البشرية، وليكونوا خليفة صالحة لله في الأرض .

❖ ونمضي مع قصة الخلق من (مرحلة الإخبار) إلى (مرحلة التنفيذ) مرحلة خلق آدم، وحواء من بعده قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحجر: ٢٦ — ٣١]



لقد جمع الله تعالى قبضة من تراب الأرض، ومزجه بالماء فصار صلصالاً من حمأ مسنون، فسواه بيديه سبحانه، ونفخ فيه من روحه، فتحرك بإرادته، وقدرته .

ثم أمر الله تعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم [1]، فاستجابوا لربهم خاضعين، وأقبلوا على آدم معظّمين، إلا إبليس، فقد خالف أمر ربه، وانحاز إلى معصيته، وأبى واستكبر وكان من الكافرين فجازاه الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ [ص: ٧٧ – ٧٨] .

سأل الله إبليس عن امتناعه عن السجود لآدم، فاحتج بأنه أفضل منه الذي خُلق من طين، وأن من الظلم أن يُخلق هو من النار – وهو أشرف من الطين – ثم يؤمر بالسجود له، وبذلك فقد نسب إلى الله تعالى الظلم، وأبدى غاية التكبر، فكان مرجوماً ملعوناً إلى يوم الدين .

إن تفسير إبليس غير منطقي!! فالتفاضل بين الإنسان والمخلوقات الأخرى، لا يكون بالتفاضل المادي، بل بشيء أسمى من ذلك، بالعلم والمعرفة والعقل والعمل، والعبادة [2] .

---

١ – السجود: (سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة)، لأن الله تعالى لا يأمر لأحد سواه أن يتوجه بالعبادة .

٢ – مدرسة الأنبياء (عبر وأضواء)، محمد بسام رشدي الزين، دار الفكر دمشق، ط٢، ٢٠٠١، ص١٨ بتصرف.

ومع ذلك فقد سأل إبليس ربه أن يُنظره [1] إلى يوم الدين، وأن يمدّ له في الحياة حتى يوم يبعثون، فأجاب الله سؤاله، وقال له: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١ ﴾ [ص: ٨٠ – ٨١]، ولا شك أن الله حقق رغبته، وذلك لحكمة إلهية أرادها الله تعالى في قصة الخلق، وليختبر به عباده في اختيارهم طريق الخير أم الشر .

ولما استُجيب سؤاله، وتحققت رغبته، لم يشكر الله أيضاً على فضله، بل قابل نعمته بالكفران، وفضله بالجحود والنكران، وقال: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ﴾ [الأعراف: ١٦]، مترصداً لغوايتهم، وجاهداً في إضلالهم، ﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧ ﴾ [الأعراف: ١٧] [2] .

---

١ – ينظره: يمهله .

٢ – ورد في تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠٤: قال الحكم بن إبان عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ ولم يقل من فوقهم، لأن الرحمة تنزل من فوقهم، ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبادة بن عمر يقول: (لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي): " اللهم إني أسألك العافية في الدنيا وفي الآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي"، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة ابن مسلم به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد .




إلا أن الله تعالى وعد بأنه سيحمي عباده الصالحين، فليس له عليهم سلطان إلا من اتبعه فله النار وبئس المصير، ومن هنا حكمة الله تعالى في إبقائه: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٣].

وهكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يخلق في العالم الغيبي مخلوقاً لا تدركه حواسنا ولكن له تأثير في نفس الإنسان يقوى بقوة لنوازع الشر، وتجسد بوسوسة [1] تهيمن على النفس البشرية، فيُمتحن بها الإنسان، وأكبر وأول امتحان كان للنفس البشرية تجسد بالخطيئة الأولى، والتي تمت بوسوسة الشيطان لآدم وحواء، فكان نتيجتها خروجهما من الجنة.

لذا فإن الله تعالى عني بعباده، فتعهد أن يحميهم من سلطانه وسيطرته على الروح البشرية.

وهنا نرى أن إبليس يأخذ دور المشاغب العابث اللاهث وراء انحراف البشر والساعي إلى تدمير حياتهم وإيقاعهم في الخطأ والخطيئة، وهو دور حدده لنفسه خارج إطار قصة إعمار الأرض بالخير والصلاح، وسلك طريقه

---

(١) ورد في صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ٣/ ٦٢٥: الوسوسة: الخطرة الرديئة، والهمس الخفي ما نجده في أنفسنا من الخواطر الرديئة التي تزين للناس ما يضرهم، وسواس: الذي عنى به سبحانه وتعالى بإحدى المعوذتين، ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾.




وحيداً تشرّده النوازع وتأكله الهموم، كلما رأى المؤمنين التزموا بمنهج الله تعالى .

فكما لوجود إبليس حكمة إلهية يختبر الله عباده بها! فإن لاستخلاف آدم في الأرض معنى سامياً من الحكمة الإلهية، التي خفيت عن الملائكة، فإن الله تعالى لو استخلف الملائكة في الأرض، لما عُرفت أسرار الكون، ولما سعوا إلى اكتشافها وتسخيرها لخدمة البشر، فطبيعتهم تخالف طبيعة البشر .

إن قصة خلافة آدم عليه السلام عن الله في الأرض، تكريم له، لما منحه الله تعالى من روحه وعلمه وأسراره، لا يعلمها إلا هو، فقد كرمه وشرّفه بأربع تشريفات: (خلقه بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء)[1] ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة: ٣١] .

ولمّا كان آدم قد اغترف من فيض ربه الكثير، واقتبس من نور علمه الوفير، أمره أن يخبر الملائكة بما عجزوا عن معرفته، ويخبرهم بما قصرت مداركهم عن علمه، بياناً لهم لفضل الله تعالى في خلقه، وإظهاراً لحكمة

١ - صحيح قصص الأنبياء، ابن كثير، سليم بن عبيد الهلالي السلفي الثري، مؤسسة غراس للنشر، الدار البيضاء، ط٢، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ص١٥ .

استخلافه [1]، فناداهم ربهم: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣٣].

عندما أدركوا سر خلقه، وظهرت لهم حكمة استخلافه، فأطاعوا الله تعالى، وسجدوا لآدم صاغرين، أما إبليس فعصى ربه، وأدرك آدم عندها أنه إبليس رمز الشر، وهو عدوه وعدو ذريته الأبدي، كما أدرك أن الملائكة رمز الخير .

لقد كانت العقدة في قصة آدم، عندما رفض إبليس أن يسجد لآدم، ومن هنا يبدأ الصراع، وذلك عندما بدأ الحسد والحقد في نفس إبليس لمكانة سيدنا آدم عند الله تعالى، فطُرد من الجنة جزاء عصيانه، وعدم شكره لله، وجحوده لفضله، طرده الله طرداً مذموماً مدحوراً، فتوعد بالإغواء لآدم وذريته .

ومن هنا يستطيع إبليس أن يستغل نقطة ضعف الإنسان "كبشر" ويتسلل إليه من خلال فطرته في حب البقاء والخلود، ويبدأ الصراع بين آدم وزوجه وذريته من بعده، وبين عدوهم الأبدي إبليس، في قصة الخلق .

وهنا نرى في قصة الخلق والتكليف والإعمار أن السيدة حواء عليها السلام لم تغب عن مسرح الأحداث، وإنما كانت في ظل آدم عليه السلام بالمعنى

---

١ – قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى، تحقيق عبد الكريم زيتوني، ط دار الغيمان دمشق، ص٢٦ .

الخفي وليس المبهم الغامض، فهي شريكة في كل التكاليف الشرعية والعمرانيّة والتربويّة وغيرها من المهمات التي تحسن المرأة الوقوف فيها مع زوجها راعية له معينة على همومه ومواجهة المشكلات التي تعترضه، فإذا كان القرآن لم يصرح بدورها الذي أشرنا إليه، فقد ذكرها بصورة تستحقها: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ . . . ﴾، ولم يشر القرآن الكريم إلى انفراد آدم بحياة خاصة به دون الزوج المشارك بكل شيء حواء عليها السلام، مما جعلها مماثلة له في الدور والتكليف .

ونرى الزوجة المشاركة في الحياة مكرّمة عند الله تعالى كتكريم آدم على التساوي في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾، وبنو آدم ليسوا ذكوراً فحسب، وإنما هم ذكور وإناث، وجمع الله تعالى الجنسين على التعميم في (بني آدم)، وهذا في أكثر من آية في القرآن وفي مواضع متعددة، لأن قصة البشريّة كانت قد بدأت في الشريكين آدم وحواء واستمرت في ذريتهما وما زالت وستستمر، فالتكريم لم يكن فيه استثناء لنوع من النوعين الذكور والإناث، وإنما هو جامع لهما في التكليف والتكريم والتشريف والفضل من

الله تعالى، فكان آدم وحواء عليهما السلام بطلين في قصة الخلق واستمرار النوع البشري .

لقد كرم الله تعالى الإنسان، سواء كان ذكراً أم أنثى، لإنسانيته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٠] .

وقد جاء في تفسير القرطبي [1]: (أن الله سبحانه وتعالى اختص بهذه الكرامة الإنسان دون غيره، ويفسر معنى هذه الكرامة بقوله: أي جعلنا لهم كرماً وشرفاً وفضلاً بأن نفخنا فيهم من روحنا ومنحناهم من علمنا ومعرفتنا وأسرارنا، مما سجدت لهم الملائكة تكريماً لذلك) .

ويتماثل النوعان في تلقي العلم، ومكانة طالب العلم وطالبته، قال ﷺ : "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع" [2] .

---

١ – الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج٥، ط دار الكتب المصرية القاهرة، ١٣٦٠هـ، ١٩٤١م، ص٣٩٠٩ .

٢ – أخرجه الطيالسي عن صفوان بن عسّال، وصحيح الجامع برقم: (١٩٥٦)، ج١، وصحيح الترغيب رقم: (٦٨) .

وكما جاء في تفسير سيد قطب[1]: (لقد كرم الله بني آدم بخلقته على تلك الهيئة، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان، وكرّمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته، والتي استأهل بها الخلافة في الأرض) .

وبذلك يصرّح الله تعالى في كتابه المبين عن تكريمه لهذا الإنسان الذي يشمل آدم وحواء على السواء، فحواء شريكة لآدم في هذا التكريم وهذا التخصيص، كما هي شريكة له في الاستعدادات الكونية لمشاركته مسيرة الحياة على الأرض، من علم ومعرفة واستعداد فطري للعمل والتضحية وللمشاركة في إعمار هذا الكون .

ولهذا التكريم استحق لآدم أن يسكن الجنة، قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥] .

لم يذكر القرآن الكريم مكان الجنة، وإذا كان لا بد لكل قصة من زمان ومكان، فإن الزمان في قصة آدم وحواء عليهما السلام مفهوم ومعلوم، ومحدد بعلم الله تعالى، كما أن المكان معلوم بعلم الله تعالى ولا يستطيع البشر تحديده،

---

١ - في ظلال القرآن، سيد قطب: ٤/ ٢٢٤١، في تفسير سورة الإسراء .

وكل ما يقوله المفسرون عن تعريف المكان وتحديده إنما يقوم على الظن والمقاربة لا على الحقيقة اليقينيّة، واختلف المفسرون [1] فيها: قال بعضهم: إنها جنة المأوى، وإن مكانها السماء، ونفى بعضهم ذلك، لأنها لو كانت جنة المأوى لحرم دخولها على إبليس، ولما جاز فيها وقوع عصيان، وقال آخرون: إنها جنة أخرى خلقها لآدم وحواء، وقال غيرهم: إنها جنة من جنات الأرض تقع في مكان مرتفع .

أما الشعراوي [2] فأكد في سياق قوله: (إنها المكان الذي أطلق عليه الجنة، وهي المرحلة التي قضى فيها آدم وحواء مرحلة من مراحل الإعداد للخلافة

---

١ - تفسير الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ط دار الكتب المصرية القاهرة، ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م، ١١/ ٢٥٣-٢٥٤ . وتفسير الطبري، وتفسير الرازي، ٥/ ١٦٧ (مرجع سابق)، وصحيح البخاري، باب خلق آدم وذريته، رقم: (٣٣٢٦)، موسوعة الحديث الشريف (مرجع سابق)، وقصص الأنبياء، لابن كثير، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، دار الثقافة عمان، ط٥، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، والبداية والنهاية، للإمام ابن كثير، ط السعادة مصر، ط١، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م، ١/ ٧٧، والكامل في التاريخ للعلامة ابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين، ط إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٤٨هـ، ط١، ١/ ٢٠ . وقصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص١٩-٢٥ بتصرف، (مرجع سابق)، وصحيح قصص الأنبياء، لابن كثير، بقلم سليم الهلالي، مؤسسة غراس للنشر، الدار البيضاء، ط٢١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ص٨٣ . وفي ظلال القرآن، سيد قطب،(مرجع سابق)، من آية ٣٠ سورة البقرة . والدر المنثور للسيوطي: ١/ ١٣٥، وتهذيب ابن عساكر: ٢/ ٣٥١ .

٢ - قصص الأنبياء والمرسلين، لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، ط المكتبة المصرية بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص٢٠-٢١بتصرف .

في الأرض)، ونحن نسلم لرأيه، لأن الله تعالى لو أراد من ذكر الجنة (العبرة) لذكرها في قرآنه، إنما العبرة بما جرى فيها من أحداث هامة كمرحلة من مراحل تطور الحدث ونموه في (قصة الخلق)، وما كان لحواء فيها من دور بارز في مشاركتها لآدم هذه الأحداث التي دارت فيها، فهي حلقة من حلقات (قصة خلق) .

وبدأت قصة آدم في مكان في السماء، حيث أمر الله في أول الأمر آدم أن يسكن الجنة، لكنه شعر بالوحشة والوحدة رغم وجود الملائكة، إلا أنه كان يرغب ممن هم من جنسه وطبيعته وبنيته، حتى يكون الانسجام والتوافق بينهما، فكان ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي خلقها الله من جنسه وعلى صورته، حتى لا يحدث بينهما التنافر، بل يكون التآلف فالمودة والرحمة، وتكون السعادة الحقيقية بينهما، وبذلك يحققان ما أراده الله من ذرية تخلف في الأرض، ويقدر لهم العبادة والطاعة، ويختبرهم بإبليس (عدوهم الأبدي) لهم ولذريتهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فيكون بذلك الخير للصالحين وجزاؤهم الجنة وحسن المآب، وطريق الشر للعاصين وجزاؤهم جهنم وبئس المهاد، وهكذا كان للمرأة الأولى مع الرجل الأول دور بارز في الكون الوسيع المعجز .



وكانت بداية هذه السعادة -والتي هي ثمرة المودة والرحمة والتآلف بينهما- حين صار آدم مع حواء في الجنة [1]، فكانت أول زوجة تعترف بها السماء، لأول مخلوق وأول نبي ذكرته الكتب السماوية، فكانت مسيرتها مع آدم جنباً إلى جنب من بداية قصة الخلق، فلم يعد يشعر بالوحدة والوحشة، وجعل الله تعالى فيها كل أسباب السعادة الحقيقية، ومنحهما الحرية في التمتع بكل ما فيها من أطياب وملذات .

إن الاقتراب من شجرة واحدة أراد الله أن يختبر طاعتهما فيها، وذكرهما بعدوهم الأبدي إبليس .

١ - ورد في تفسير الطبري ١/ ٥١٣: وبعض المفسرين في أمر خلق حواء: أن الله تعالى ألقى على آدم النوم، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه، من شقه الأيسر، ووضع مكانه لحماً، وخلق حواء منه، فلما استيقظ وجد عند رأسه امرأة قاعدة، فسألها من أنت؟ قالت: امرأة، قال: ولم خُلقتِ؟ قال: لتسكن إليَّ . فقالت له الملائكة امتحاناً لعلمه: وما اسمها؟ فقال: حواء . قالوا: لِمَ؟ قال: لأنها خلقت من شيء حيّ: قيل: فلما أراد آدم مدّ يده إليها منعته الملائكة، وقالوا: أمهرها . قال: فما صداقها؟ قالوا: أن تصلي على محمد وآله . قال: وما محمد؟ قال: من أولادك خاتم النبيين، ولولاه ما خُلقتَ .

إن تفسير الطبري وغيره اعتبر المرأة مخلوقة من ضلع آدم، كتفسير حسي للعضو، مستندين إلى قول رسولنا الكريم ﷺ : "استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع:، والله تعالى قال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فإن العضو جزء من النفس، وبذلك يكون قد التقى القولان المعجزان في أن المرأة قد خلقت من نفس طبيعة وبنية آدم عليه السلام تكريماً لهما، ليحدث التوافق والانسجام بينهما، ولتكون المودة والرحمة، فتكون السعادة الحقيقية الأبدية .

كما ورد تفسير هذا الموضوع في: تفسير ابن كثير: ١/ ٨٠، وتفسير القرطبي: ١/ ٢٧٥، وفي تفسير الرازي: ٥/ ١٦٧ .

وبذلك يكون قد وجهّ الله تعالى آدم وحواء معاً، واستمرا طائعين لأمر ربهما، متمتعين بنعيم الجنة ورغدها وثمارها، فقد أباح الله تعالى لهما كل ثمار الجنة، ما عدا شجرة واحدة ممنوعة عليهما، والممنوع يتحول إلى شهوة، ومن الشهوة يتسلل الشيطان، وهنا فقد تسلل في فرصته لتحقيق ما توعّد به آدم وذريته من قبل: بأنه سيخرجهم من الجنة [1]!! .

واستغل الاستعداد الفطري لهما في حب البقاء وحب التملك الذي فُطر عليه بنو البشر، فقال: ﴿ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ [2] ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾[طه: ١٢٠]، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[الأعراف: ٢١] .

وعندما أقسم إبليس لآدم وحواء اعتقدا أنه ينصحهما، والمسألة لم تكن مجرد الأكل من الشجرة، بل لا بد أن إبليس في أول الأمر خدعهما ليقتربا من الشجرة، ثم زين لهما ثمارها، ثم بعد ذلك أغراهما بالكل، أي ليبين الله تعالى لهما ولذريتهما من بعده أن المعصية تتم على مراحل [3] . لذا لا بد أن ننتبه إلى أن اقترابنا من أماكن المعصية لا بد أن يوقعنا فيها، وكأن الله تعالى يريد أن يعلّم

---

١ – دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق بيروت، ط٤، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، ص١٣٢ .

٢ – اختلف المفسرون في نوع الشجرة، هل هي سنبلة، أم يقطين، أم تين، أم زيتون؟؟ لكن القرآن الكريم لم يذكر نوعها، ولو كان في ذلك عبرة لذكرها الله تعالى والله أعلم .

٣ – قصص الأنبياء والمرسلين، لفضيلة الشيخ الشعراوي، ص١٨-١٩ بتصرف .




ذرية آدم طريق الطاعة والعصمة من الخطأ، من خلال دروس العبرة والعظة في سيرة حياة والديها آدم وحواء، وله في تدبير خلقه شؤون .

ونجح إبليس في إقناع آدم وحواء حتى أكلا من الشجرة معاً، فالإنسان بطبعه ينسى وقلبه يتقلب، فنسيا أن إبليس عدوهما، وأن الله تعالى حذرهما منه، وبذلك تكون حواء شريكة لآدم في النسيان، فتكون المعصية لهما معاً، لكنهما تنبها فور فعلتهما هذه، فوقفا بين يدي الله تعالى مقرّين معترفين بالخطأ والمخالفة، وقالا: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] .

وهذا اعتراف منهما بالذنب، ثم طلبا من الله المغفرة والرحمة لئلا يكونا من الخاسرين: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقبلت توبتهما لأن الله رحيم بالعباد .

ويقول الشعراوي [1]: (إن الله خلق التوبة، وإنه يقبلها، لذا فلا وجود لواسطة بين الله تعالى وبين البشر، فخطأ آدم تم تصويبه، أما الخطيئة كالقتل وسفك الدماء، فالعقاب عليها إما في الدنيا أو الآخرة) .

---

١ – قصص الأنبياء والمرسلين، الشعراوي، ص٢٠-٢١.

لذا يجب علينا أن لا ننسب إلى أبينا آدم أنه أول من ارتكب الخطيئة، وأنه كان سبباً لإخراج ذريته من الجنة، إن آدم لم يرتكب خطيئة، ولكن ارتكب خطأ، فهو ابن الغفلة والسهو، وإن خطأ آدم ليس من ذنوب الاستكبار على الله كذنب إبليس، وذلك أن آدم طلب هو وحواء بانكسار المغفرة من ربهم .

وهكذا بالتوبة تغلب آدم وحواء على الشر، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له [1] .

وهكذا انكشفت خديعة إبليس بعد أن أكلا من الشجرة، ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] .

(ولم يقل: " فلما أكلا" لأن الأكل يقتضي إعادة المعصية مرات ومرات، بينما مجرد التذوق يتبين منه أنها حدثت مرة واحدة فقط، وحدث التنبه بمجرد حدوثها) [2]، وطفقا يستران عورتيهما ويجعلان ورق الشجر عليها، فتذكرا تحذير الله لهما من عداوة إبليس ﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾[طه: ١١٧] .

---

١ - مكاشفة القلوب، محمد الغزالي، ص٨٠ .

٢ - قصص الأنبياء والمرسلين، للشعراوي، ص١٩، (مرجع سابق) .





ويقول القرطبي [1] في تفسيره: (إن الله تعالى نهى آدم وزوجه عن قبول أي طلب من إبليس، فيكون خديعة لكما وسبباً لخروجكما معاً من الجنة، (فتشقى) يعني أنت وزوجك، لأنهما في استواء العلة واحد، ولم يقل فتشقيا، لأن المعنى معروف، وآدم عليه السلام هو المخاطب وهو المقصود، وأيضاً لما كان الكادّ عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص .

وقيل: الإخراج واقع عليهما، والشقاوة على آدم وحده، وهو شقاوة البدن، وإنما خصّه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان: يعلمان أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية) والله أعلم .

وهكذا نرى أن حواء شاركت آدم في الخطأ والتوبة وطلب المغفرة من الله تعالى، وإن الله تعالى أعلم بخطأه، هو وزوجته وذريته من بعده حيث قال للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ولم يقل: إني جاعل في الجنة خليفة [2] . فقد كرمهم الله تعالى بأن جعلهم له في الأرض، وذلك حتى تتلقى ذرية آدم درساً من والديهما، بأن إبليس بالمرصاد لهما في الحياة الدنيا، وأن الطريق إلى الجنة لا بد وأن يمر بطاعة الله وعصيان الشيطان .

---

١ – الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ص٢٥٣ .

٢ – أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق القاهرة، ط١، ١٩٧٥، ص٤١ .

وقال القرطبي [1] في تفسيره: (كان هذا من آدم قبل النبوة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه: ١٢٢]، فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوة، فجائز عليهم الذنوب وجهاً واحداً، لأن قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين، لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب) والله أعلم .

ويؤكد الشعراوي [2]: (أن الله تعالى يريد أن يؤكد لنا أن آدم يتمثل في عنصرين، في أنه بشر يصيب ويخطئ، ويخالف منهج الله ثم يتنبه فيتوب، وأن فيه عنصر النبوة المعصوم من الخطأ أيضاً، فاجتباه وجعله نبياً، فالاصطفاء جاء بعد المعصية، فآدم فيه بشرية تخطئ وتصيب، وفيه نبوة معصومة، وهذه تتمثل في الأنبياء من ذريته الذين عُصموا من المعصية، لذلك لا يصح لنا أن نقول: كيف يعصي آدم وهو نبي؟! نقول: تنبه أن النبوة لم تأت إلا بعد أن عصى آدم وتاب وتَقَبَّلَ الله تعالى توبته، وهو يمثل مرحلة البشرية كلها منذ خلقه إلى يوم البعث، أليس بشراً؟! لذا لا نقول: طرد من الجنة بسبب المعصية، لأن المعصية

---

١ - تفسير القرطبي، ص٢٥٧ .

٢ - قصص الأنبياء والمرسلين،، للشعراوي، ص٢٣ .



أعقبتها توبة مقبولة ثم نبوة، أما الجنة فكانت مرحلة من مراحل الإعداد للخلافة في الأرض) .

وبهذا نرى حواء تشارك آدم في كل مراحل حياته في هذا الذي سمي جنة، إلى أن يهبطا معاً إلى الأرض، وتبدأ الحلقة الأخيرة من قصة الخلق (أخطر الحلقات)، إذ سيتلقى فيها آدم التكليف من ربه، والتكليف هو عبادة الله وحده لا شريك له، والعبادة التي تتضمن تعمير الأرض والسعي في مناكبها، والابتغاء من فضل الله تعالى .

قال: ﴿ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [الأعراف: ٢٤]، وبذلك تكون حواء أول امرأة خرجت من الجنة وسكنت الأرض، فكانت زوجة أول الخلفاء على سطح الأرض .

وتبدأ المعركة العظمى (معركة الحياة)، ويبدأ الصراع الحقيقي في الأرض بين إبليس وآدم، للتسبب في حرمان كل منهما الآخر من الجنة .

ويحدث الصراع في الحياة الدنيا، بين إبليس وآدم وحواء وذريتهما من بعدهما ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣]، فلا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وبذلك يكون قد انتصر على إبليس، ولا تنتهي القصة (قصة الخلق) إلا بالعودة إلى الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ ﴾ [العلق: ٨] .

ونرى حواء تشارك آدم في مسيرة (قصة الخلق) في السماء والأرض، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، مشاركة إيجابية فعالة، تحقق العظة والعبرة لهداية بني آدم في معركتهما الطويلة مع الشيطان .

لكن هناك من يخالفنا الرأي في قوله [1]: (إن المرأة لم تأخذ دوراً رئيسياً في أية قصة من قصص القرآن، وأن أدوار المرأة كلها ثانوية حتى مع (مريم وحواء)، وأن الشخصيات النسائية لم يجئ بها لتكون رمزاً لتجري على لسانها الأفكار والآراء، كما يراها تابعة لرجل لذا لم يُذكر اسمها عارياً!! وإن ذكر اسمها في (قصة مريم) فلأن الله تعالى أراد أن ينفي عقيدة باطلة ويثبت مكانها أن (عيسى بن مريم بنت عمران) وليس ابن الله، كما يراها تابعة لآدم في كل شيء، يراها ساعدت على إخراج آدم من الجنة مستنداً في ذلك ما جاء في التوراة) .

إن الباحث يغالط نفسه، ما دام استند إلى التوراة التي حُرفت، ونسي أن القرآن الكريم كرّم المرأة الأولى حواء فلم ينسب إليها خروج آدم من الجنة، بل شاركت آدم في الخطأ مشاركتها له في الندم والتوبة وطلب المغفرة .

---

١ – الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ط سينا للنشر، ط١٩٩٤، ص ١٥٠– ١٥٢، ص٣٠٤–٣٠٥ بتصرف .

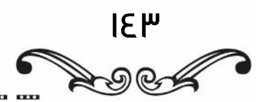
وإن النص القرآني يؤكد على ذكر آدم وأنه المسؤول الأول في ارتكاب الخطأ: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١]، ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢].

إن الله تعالى جعل حواء مشاركة لآدم وليس تابعة له، فأصل الإنسانية (رجل وامرأة) خلقها الله من نفس واحدة، فهي إذاً ليس مخلوقة هامشية لا دور لها في الحياة، وإنما هي مثله تحمل نصيبها من تبعة التكليف ومسؤولية العمل والعبادة، لهذا فهي تخطئ وتُحاسب على خطئها، فهي لم تحاسب لأن آدم أخطأ فقط، بل هي شاركت آدم في الخطأ وأكلت من الشجرة التي أمرهما الله أن لا يقربا منها ولا يأكلا، لذا تحملت ذنب ما اقترفته هي، وليس ذنب آدم، وذلك بمقتضى كمال إنسانيتها واستقلال شخصيتها استقلالاً كاملاً كالرجل، فكل منهما مسؤول بما يعمله من خير أو شر، وكل منهما محاسب على عمله ثواباً أو عقاباً، فهي مصدر الحب الأمومي والتضحية السامية لزوجها وذريتها، وطبيعي أن يكون لها من علو الشأن والمكانة والاهتمام ما يتفق مع طبيعتها ووظيفتها المقدسة التي شرفها الله بها .

فالرجل مسؤول، والمرأة مسؤولة، وكلاهما يكملان جوهرة الحياة في الدنيا والآخرة، ولكل بريقه في هذه الجوهرة، لا يطفئ أحدهما الآخر، ويسرق بريقه، بل كل منهما يضيء نوره ويستمده من إشعاع الآخر .

وبهذا نرى حواء شاركت آدم عليه السلام النسيان والخطأ، والألم والانكسار، وطلب العفو والمغفرة من الله تعالى، شاركته في مسيرة الحياة في السماء والأرض، شاركته في تحقيق سنة الكون، وبدون دورها الأساسي في قصة الخلق، لم يكتمل الحدث، وينمو ويتطور، ويصل إلى الهدف الإيجابي الذي سعت من أجل تحقيقه أمنا حواء وآدم أبو البشر في قصة الخلق، لذلك فدورها رئيسي في قصة الخلق، لأنها ساهمت في نمو الحدث مع آدم عليه السلام إلى نهاية القصة.

إذ إن الشخصية الثانوية لا تساهم في تطور الحدث، وليس لها أثر على تفاعل الأحداث، ويمكن الاستغناء عن وجودها في القصة الفنية، ويتم الحدث بدونها، أما الشخصية الرئيسية فلا يتطور الحدث الفني في القصة إلا بتفاعلها مع الحدث، فهي تساعد على نموه لتصل إلى تحقيق العبرة والعظة والهدف من القصة .

وإنّ في (قصة الخلق) دروساً عديدة وعبراً وأوامر وتكاليف تحققت بتفاعل الأحداث مع الشخصيات الرئيسية (آدم وحواء)، فكانت خير معين لهداية البشرية (ذرية آدم) في معركتهم الطويلة مع الشيطان في الحياة الدنيا .

وهذا يناقض رأي الباحث، الذي يرى أن للمرأة الدور الثانوي في القصة القرآنية حتى ولو كانت حواء أم البشر، ومريم سيدة نساء العالمين، ولو لم يكن لهما الدور البارز والهام والأساسي في القصص القرآني، وفي نمو الحدث لتحقيق العظة والعبرة، لا المتعة الفنية كما هي عليه القصة الأدبية، لما ذكرها الله تعالى في قصصه وجعلهما محوراً أساسياً في الحدث القصصي القرآني .

وكأن باحثنا يراها لا تصلح لأن تقدم فكرة ورأياً، بل تصلح لأدوار محددة في القصة، كما ذكر في بحثه، لكن حواء وغيرها تثبت له غير ذلك، ها هي حواء بدورها في (قصة الخلق) تقدم لنا في بطولتها مع آدم، فكرة التصدي للشر، فالانتصار عليه، وعدم الخضوع لوسوسة الشيطان مرة ثانية، والإسراع في طلب المغفرة من الله تعالى، كما تجسد لنا مع آدم وحدة العلاقة بين الزوجين وحسن سيرها، مما يحقق السكن النفسي والراحة القلبية مؤكدة على قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] .

ولا عجب أنه اعتبر في بحثه القصة القرآنية، " قصة فنية أدبية" وأنها تتحقق فنيتها بنسيج الخيال والبعد عن الواقع، وكلما تعمقت في الخيال تحققت القيمة الفنية لها .

إن خضوع القصة للغرض الديني لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها، والتي نسميها (مظاهر التنسيق الفني في القصة) والذي يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية .

إذ إن من أغراضها ما يتعلق بوحدة الإله، ووحدة الدين، والرسل، ووحدة طرائق الدعوة، ووحدة المصير الذي يلقاه المكذبون، فكيف يكون ذلك بإعمال الخيال والبعد عن جادة الواقع والحقيقة؟! .

إن القصة القرآنية هي قصة واقعية، حدثت في زمن محدد ولها أحداثها وشخوصها الواقعيين، ويهدف الله تعالى منها رسالة هداية، لا متعة فنية فحسب، يهدف العظة والعبرة لأمته، فهو خلق خليفته في الأرض، وعهد أن يحميها من إبليس، بكل الوسائل، والقصة خير وسيلة من وسائل تربية النفس، لقربها من الحقيقة والواقع .



إن الله تعالى أنزل كتابه لهداية البشرية، لا للمتعة الفنية!!، بل المتعة تتحقق في القصص بالانسجام الأسلوبي البارع والمعجز والبيان الساحر الذي سُردت فيه أحداث القصة، والتي لا يشابهها أسلوب كاتب مبدع، لكن الله تعالى أراد أن يحقق العبرة والعظة لعباده بأكثر وسائل التأثير والإمتاع، وذلك من انسجام أساليب بلاغية وبيانية مع الفكرة الواقعية والحقيقية في القصة القرآنية، فتكون العبرة أكثر تأثيراً والعظة أكثر وقعاً، وبذلك نجد أن القرآن الكريم عامة وبقصصه خاصة يؤكد إنسانيته المرأة وكرامتها كالرجل سواء بسواء، ودورها الإيجابي والأساسي في القصة القرآنية .

فقصة الخلق . . وصية لأبناء آدم وحواء في الأرض (تربي المؤمن على أسمى مستويات السلوك، فهي تعلمنا أن أبوينا الأولين أقدما على مخالفة الأمر الإلهي بحسن نية، لأنهما حسبا في الأكل من الشجرة الممنوعة مزيداً من القرار والخلود في ظل الرضوان الإلهي، ولنتعلم كيف يخضع سلوكنا كله لأمر الله تعالى، ونجعل من نضالنا مع الشيطان وسيلة إلى السمو بأنفسنا نحو أكرم هدف إلى مقاومة الشر) [1] .

---

١ - نظرات تحليلية في القصة القرآنية، محمد مجذوب، دار الشرف الرياض، ط٥، ص٣٠ .

تبين لنا قصة الخلق أن العبادة التي يؤجر عليها الله تعالى لا يقتصر مفهومها على إقامة الشعائر التعبدية في الليل والنهار، كالصلاة والصيام والزكاة والحج، إنما العبادة هي العمل شكراً لله، وسعياً لمرضاته، العبادة هي بالعلم والتعلم، فآدم عليه السلام تعلم من علم الله تعالى، وعلّم حواء، وتباهى الله بعلمه أمام الملائكة، وأمرها بالسجود له، العبادة هي بالبحث عن الرزق في البر والبحر، العبادة تذوق الجمال والبحث عنه في ملكوت الله، واستخدام الزينة الطيبة التي سخرها الله لنا .

لقد هيّأ الله تعالى الأرض بكل جميل ومفيد لآدم وذريته، فعلينا أن نسعى في مناكب الأرض لاستغلالها وأن نشكر الله عليها، فهي أمانة ائتُمن خليفته –من ذرية آدم– عليها، فعلينا أن نزيد بمعرفتنا لنتجدد بها، ونحفظ بهدايتها طريقنا إلى الله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]

كما تؤكد القصة فطرة الخلق على الزواج، فمنذ أن هبط آدم وزوجه إلى الأرض وتسعى ذريتهما إلى حفظ النوع البشري، لذا اشتد حرص المؤمنين على ضبط قواعد الزواج، لتحقيق الغاية منه ألا وهي الذرية الصالحة في إطار الشرائع السماوية .

إن شياطين الإنس اليوم تسعى إلى تقويض الأسرة الإسلامية والقضاء على الذرية الصالحة بكل الطرق الشيطانية الهدّامة، فتخرج ذرية آدم من جنة الدنيا كما أخرج إبليس أبويهما قبلهما .

لذا فعلينا أن نرسخ دعائم الإسلام بترسيخ دعائم الأسرة المسلمة الصالحة كما كانت عليه الأسرة الأولى .

تدعو القصة إلى أن باب التوبة مفتوح أمام الجميع، وأن الله تعالى رحيم بعباده، يستر على عباده رحمة بهم وترغيباً لهم في التوبة إليه، فلنسارع في الاستغفار لله تعالى كما فعل أبوانا آدم وحواء: **" وخير الخطائين التوابون"** [1]، وأن لا نضمر معصية ونتمادى فيها، بل نسارع إلى الله تعالى في طلب المغفرة وإلا كان العقاب في الدنيا والآخرة .

إن قصة آدم وحواء تجسد لنا رحمة الله واسعة في قبول التوبة لعباده، فقد رحم ضعفنا ونسياننا، وألبسنا بهذه المغفرة ثوب التقوى والتوبة، وبعد كل هذا العرض نؤكد على الدور الرئيسي والقيادي الذي حققته المرأة " حواء" وكل امرأة في كل زمان ومكان .

---

١ – أخرجه الترمذي، كتاب : صفة القيامة، باب : خير الخطائين التوابون، رقم (٢٦٨٧) .

➤ المبحث الثاني

مريم بنت عمران . . . . . . أم المسيح آية الله الكبرى

نموذج للمرأة الإيجابية في القصة القرآنية

- نسبها الطاهر .
- قصتها كما وردت في القرآن الكريم :

(منذ حلمت أمها بها . . . إلى أن حملت هي بعيسى عليه السلام) .

- اصطفاء الله تعالى مريم رضي الله عنها .
- كفالة زكريا عليه السلام لمريم رضي الله عنها .
- بشارة الملائكة لمريم رضي الله عنها بعيسى عليه السلام .
- ظهور جبريل عليه السلام لمريم في صورة بشرية .
- حملها بعيسى عليه السلام .
- ولادة عيسى عليه السلام .
- مجيئها قومها بعيسى (المعجزة الكبرى) .
- دور مريم بنت عمران في حياة عيسى عليه السلام .
- دروس وعبر من قصة مريم عليها السلام .

مريم البتول

القانتة العابدة . . أم النبي عيسى عليه السلام، وخير نساء العالمين، " مريم بنت عمران" التي شغلت حيّزاً كبيراً من القرآن الكريم لم تحظ به امرأة أخرى، فهي أنموذج المرأة الصالحة من كريم الخلال، وخير الخصال، وصفوة الشمائل من صبر وشكر ورضاً بقضاء الله تعالى .

إنها الأرض الطاهرة التي أنبتت صالحاً، وتحملت من أجله الكثير، فكانت عوناً وسنداً لنبي الله عليه السلام، فكان لها الدور الإيجابي البارز في نشر رسالة المحبة والتسامح والسلام .

لقد عرض البيان القرآني في قصص المرأة (أماً، وزوجة، وابنة، وأختاً، وملكة حاكمة)، فذكر الله تعالى في قصصه الأم، أمثال أم موسى، كما ذكر الزوجة، أمثال: امرأة فرعون، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة العزيز، وذكر الأخت، في أخت موسى، والبنت، في ابنتي شعيب، والملكة الحاكمة، في شخصية ملكة سبأ .

ولم يذكرهن الله بأسمائهن، بل أعطاهن الملامح الأصلية لشخصياتهن حسب الموقف والظروف لتحقيق المثل والعبر من القصة (حسب مقتضى الحال)، كما ورد تفسير ذلك في مبحث سابق .

إلا السيدة مريم المصطفاة على نساء العالمين، ذكر الله تعالى اسمها (أربعاً وثلاثين مرة) [1]، وفي سور عديدة، وذكرت دون اسمها العلمي أحياناً، في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وتكريماً من الله تعالى لها سميت سورة "مريم" باسمها أيضاً، وهي أكثر السور التي فُصل فيها الحديث عنها .

لذا لا بد من سرد قصة العذراء الطاهرة منذ أن حملت أمها بها إلى أن حملت هي بعيسى عليه السلام، فكانت المعجزة الكبرى، بها ومنها!! .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ [2] ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[آل عمران: ٣٣] .

---

١ – القصة في القرآن الكريم، د . محمد سيد طنطاوي: ٢/ ١١٧ .

٢ – اصطفى: اختار، والاصطفاء الاختيار، وإن الاصطفاء كان من آل عمران " أنثى" هي مريم العابدة، من العالمين: أي اصطفى الله كل من الأنبياء على عالم زمانه، وورد ذكر ذلك في قصص النساء في النساء والسنة، إبراهيم محمد الجمل، الناشر مكتبة مدبولي الصغير، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٤-٢٥ بتصرف .



إنّ الله اختار واصطفى " آدم" أبا البشر، بأن جعله خليفة في الأرض، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له ملائكته، واصطفى " نوحاً" لأنه كما يقول الآلوسي " آدم الصغير" والأب الثاني للبشرية، وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله، لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧] .[1]

واصطفى " **آل إبراهيم** " أي عشيرته وذوي قرباه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما .

واصطفى " **آل عمران** " إذ جعل فيهم عيسى عليه السلام الذي آتاه الله البينات وأيدّه بروح القدس، (والمراد بعمران هو والد مريم أم عيسى عليه السلام، وينتهي نسبه إلى إبراهيم عليه السلام) .

إن في هذا التسلسل الذي أوردته الآية الكريمة، دليلاً على أن الله تعالى اقتضت حكمته أن يجعل في الإنسانية من يهديها إلى الصراط المستقيم، فقد ابتدأت الهداية بآدم وخُتمت بمحمد ﷺ الرسالات السماوية .

وفي التعبير بالاصطفاء تنبيه إلى أن آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران صفوة الخلق، إذ إن الرسل والأنبياء جميعاً من نسلهم [2].

---

١ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الآلوسي: ٣/ ١٣١ .

٢ - القصة في القرآن الكريم، د . محمد سيد طنطاوي، ٢/ ١١٩ .

وقد بينت الآية الكريمة أن " الاصطفاء" وقع على آدم بشخصه، وعلى نوح بشخصه، أما إبراهيم وعمران فقد كان الاصطفاء لهما ولذريتهما .

وقد ذكر الله تعالى ممن اصطفاهم " آل عمران" التي كانت مريم منهم [1].

وقص القرآن الكريم من أمر " امرأة عمران" أنها لما حملت نذرت ما في بطنها خالصاً لخدمة بيت المقدس، فلما ولدت أنثى تحسرت – لا لكونها أنثى – بل لأن الأنثى في العرف السائد لا تخدم الأماكن المقدسة، فأبدت أسفها لربها وتضرعها في خشوع، وأعلنت لله تعالى أن سمّتها مريم [2]، وأعاذتها وذريتها من الشيطان الرجيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾[آل عمران: ٣٥ – ٣٦] .

---

١ – المرأة والتربية الإسلامية، الشيخ محمد الأباطيري خليفة، مكتبة الفلاح الكويت، ط١، ١٩٨٤، ص١١ .

٢ – ورد على لسان الطنطاوي في القصة في القرآن الكريم، " مريم معناها في لغتهم: العابدة، فأرادت أمها التقرب إلى الله تعالى والالتماس منه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها"، ص١٢١ .




وقال القرطبي في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :
" ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مسّه إياه، إلا مريم وابنها" (1).

فكان جزاء امرأة عمران على إخلاصها في نذرها، وصدق توجهها لله تعالى، أن تقبّل مريم قبولاً مباركاً، وخرق بها عادة قومها، فرضي أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيته كالذكور، رغم أنها أنثى، وفاء بنذر الأم التقية الصالحة، فتقبلها الله لخدمة بيت المقدس، وقرنها بالصالحين من عباده: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران: ٣٧] .

بهذا نرى كيف يتقبل الله تعالى دعاء الصالحين، ويرعاهم برعايته، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون .

توفي أبو مريم، وكان رجلاً عظيماً في بني إسرائيل وكانت ابنته صغيرة تحتاج لمن يرعاها، فكفلها زكريا والد يحيى عليه السلام وزوج خالة مريم، فقد هيأ لها غرفة في المسجد لا يرقى إليها أحد غيره، فكان كلما دخل عليها وجد عندها رزقاً وفيراً، فقال لها: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فقد هيأ الله لها وسائل العيش

١ – تفسير القرطبي: ٤/ ٦٨ . رواه ابن جرير عن الزهري عن أبي سلمى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

الطي من حيث لا تحتسب، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ — ٣] .

أراد الله أن تكون مريم فاتحة (مرحلة جديدة) من المراحل الإلهية التي تمر بها خليفة الله في الأرض، فكان " عيسى" عليه الصلاة والسلام كلمة الله، وقائد هذه المرحلة، فقد اختصت به مريم ترعاه وحدها فليس له أب، فقد خلقه الله تعالى بكلمة " كن"، وهي الكلمة التي خلق بها آدم من (غير أب ولا أم))[1]، ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] .

وهنا ظهرت الآية الكبرى والمعجزة التاريخية الأولى من نوعها: مخلوق من غير أب اكتملت به العناصر الأربعة الدالة على قدرة الله تعالى وهي:

العنصر الأول: خلق الله آدم من غير أب ولا أم .

العنصر الثاني: خلق الله حواء من آدم من غير أب ولا أم .

العنصر الثالث: خلق الله الإنسان من أب وأم .

---

١ – المرأة والتربية الإسلامية، الشيخ محمد الأباصيري خليفة، ص١٤ .

العنصر الرابع: خلق الله عيسى من أم ولا أب له[1].

ولما رأى القوم هذه المعجزة الجديدة والآية الإلهية الكبرى بولادة عيسى بغير أب وكلامه في المهد وإعلانه للناس بأنه عبد الله ونبيه، انصرفوا إلى بيوتهم حاملين في صدورهم الإيمان بالله، والحب لمريم، والأمل الكبير في المسيح عيسى بن مريم .

قصّ القرآن الكريم قصة مريم ليدل على أن المرأة كالرجل في الإيمان بالله وتبعاته، وأن بينهما عوامل مشتركة في مسيرة الحياة، تؤكد أنهما قوتان تدفعان بالحياة إلى الحركة والاستمرار، وبهما معاً قد يتجهان إلى الخير أو إلى الشر، (كما تؤكد قصة مريم) أن الله اصطفاها كما يصطفي الرجال، لمعاني الحق والبر والإحسان .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢ – ٤٣] .

---

١ – حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، دار اقرأ، بدون تاريخ، ص٢٨٦، وتفسير ابن كثير: ٢/ ١١٥ .

بين الله تتعالى الاصطفاء لمريم بأمرين:

- إن الله تعالى اختارها مُحررة بنذر أمها لخدمة بيت المقدس، ولم يجعل ذلك لغيرها من النساء، (كما اختارها لكثرة عبادتها وشرفها وطهارتها) [1] .
- إن الله تعالى اصطفاها لتكون أماً لعيسى من غير أب، وأسمعها كلام الملائكة، ولم يحصل ذلك لغيرها من النساء [2] .

---

١ – صور من حياة صحابيات الرسول ﷺ، خالد عبد الرحمن العك، ط دار الألباب، دمشق، ط١، ١٩٨٩م، ص١٥ .

٢ – المرأة والتربية الإسلامية، الشيخ محمد الأباصيري خليفة، ص١٥-١٧ بتصرف .

ورد في الفوائد والعبر من عجائب الأقدمين(وهي قصص نبوية صحيحة ممتعة) فيها نحو من مئتين وتسعين ما بين فائدة وحكمة وعبرة، تأليف الشيخ عبد الله التليدي، ط دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ص٣٦: (أن العلماء اختلفوا في نبوة هاجر كباقي النسوة الأخريات مثل: "حواء، آسية، أم موسى، مريم"، كما لهاجر من فضل بأن كرمها المولى جل وجلاله بأن جعل آثارها شعائر للحج يقتدي بها كل من جاء بعدها من الأمم التي تدين بالشرائع الإلهية، وخاصة الأمة المحمدية)، فذهب جماعة إلى نبوتهن، وبه قال أبو الحسن الأشعري وابن حزم وغيرهما، وذهب الجمهور إلى أن النبوة خاصة بالرجال، حتى قال سراج الدين علي بن عثمان الأوشي الفرعاني في بدء الأماني:

وما كانت نبياً قط أنثى   ولا عبد وشخص ذو افتعال



ومن هنا كان الاصطفاء لها فريداً مميزاً تميّزت به على نساء العالمين، وليؤكد الله تعالى أن الاصطفاء يكون للرجال وللنساء سواء لمواقف الخير والصلاح، فيما عدا النبوة، فهي خاصة بالرجال وحدهم .

بهذه القصة الإيمانية بَيَّنَ الله تعالى أن مريم شخصية أساسية في حياة البشر، لما قدمته من مواقف إيجابية هامة في حياتها وحياة ولدها ﷺ، لتكون قدوة لنساء العالمين، ول لم يكن لها الدور الأساسي لما اصطفاه الله تعالى، وسنرى ذلك واضحاً لما حققته من أفعال إيجابية في ترابط الأحداث في القصة القرآنية .

وكانت الملائكة تأتي إلى مريم وتخبرها بهذا الاصطفاء من الله تعالى، وتحثها على الاجتهاد في العبادة، فنشأت مريم على الطهارة والبعد عن الأرجاس والأدناس، محروسة بعناية ربانية .

قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ

هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ١٦ – ٢١].

إن الله تعالى يخبر رسولنا الكريم ﷺ، عن قصة سلفت (قصة مريم) وابنها عيسى عليه السلام، إذ بينما هي في خلوتها ووحدتها تقنت إلى ربها، في مكان بعيد شرقي بيت المقدس، لئلا يشغلها أحد عن العبادة والتقرب إلى الله تعالى، فأرسلنا إليها روحنا، جبريل عليه السلام .

ويقول القرطبي: (إن مريم تنحّت عن الناس ودخلت في المسجد إلى جانب المحراب في شرقيه لتخلو للعبادة، وإنما خص المكان بالشرق، لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق، حيث تطلع الأنوار) [1] .

إن جبريل تشبه لها في صورة بشر سوي الخلق كامل الصورة، وذلك لتستأنس به، وهي لا تعلم أنه "الروح الأمين"، لذا خافته لانفرادها في خلوتها، وظنها أنه يريدها على نفسها، وفي ذلك من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه، فخوفته بالله تعالى، وخصت الرحمن بالذكر لتثير مشاعر التقوى من نفسه إن كان تقياً .

---

١ – تفسير القرطبي: ١١/ ٩٠ .



وكانت الهزة الأولى في مسرى تطور الحدث في القصة، ويظهر أثر دورها على نمو الحدث من خلال حوارها مع جبريل عليه السلام، وقد وصلت إلى أسمى درجات العفة والطهر والاعتصام بالله تعالى .

يجيبها جبريل مخبراً إياها بأنه رسول ربك، بعثني إليك لأهب لك- بإذنه وقدرته- غلاماً طاهراً من الذنوب والمعاصي، كثير الخير والبركات .

فكانت بذلك المفاجأة الثانية، فانتابها هزّة، اعترت روحها، وهي في حيرة!! كيف سيكون موقفها من قومها، ويكون لها غلام ولم يكن لها زوج!! فرد عليها جبريل كما ورد في تفسير ابن كثير [1]: (إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلام وإن لم يكن لك بعل، ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قدير، ولهذا قال: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم: ٢١] ، أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم) .

وبذلك تكون هذه الآيات السابقة قد بينت لنا حالة مريم الانفعالية أثناء حوارها مع جبريل عليه السلام .

وعن التصوير في مشاهد القصة القرآنية " ألوان ":

١- لون يبدو في قوة العرض والإحياء، كقصة نوح عليه السلام .

---

١ – تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٢/ ١١٥ .

٢- ولون يبدو في رسم الشخصيات رسماً بارزاً كقصة سليمان عليه السلام، وبلقيس، وقصة آدم عليه السلام نموذج لشخصية الإنسان في كل مقوماته وخصائصه، يمثل الضعف البشري أمام الرغبة في الخلود .

٣- ولون يبدو في تصوير الانفعالات والعواطف، كقصة مريم . .

كل هذه الألوان من التصوير الفني للقصة القرآنية لا تنفصل عن بعضها، بل لا يطغى أحدها على الآخر فيعرف بها،مع وفائها التام للغرض من القصة [1] .

بهذه الانفعالات التي صدرت عن مريم أثناء حوارها مع جبريل، تدفع عجلة الأحداث إلى النمو لنصل إلى المشهد الثاني من القصة: والذي يجسد حملها بعيسى، والحالة الجسدية والفنية عندما يجيئها المخاض: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[مريم: ٢٢ — ٢٦] .

---

١ - التصوير الفني، سيد قطب، ١٥٤- ١٧٤ بتصرف .

قال ابن كثير رحمه الله [1]: (يقول تعالى مخبراً عن مريم، أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، استسلمت لقضائه تعالى، وعندما نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج، فحملت بالولد بإذنه تعالى) .

تنحّت بحملها إلى مكان بعيد عن أهلها فراراً من قومها حتى لا يعيروها بولادتها من غير زوج، وتمضي أحداث هذه القصة لنرى هذه العذراء في موقف أشد هولاً، فتتصاعد الأحداث ويشتد الصراع كلما اقترب موعد الولادة، وهي وحيدة تعاني حيرة العذراء في أول مخاض ولا أحد بقربها ولا علم لها بذلك .

فأجاءها المخاض- وهو وجع الولادة- إلى جذع النخلة لتتكئ عليه عند الولادة، ولفّها الهم والحزن، فكانت الهزة الثالثة في مراحل نمو الحدث، (فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة، ثم هي تواجه آلاماً جسدية بجانب الآلام النفسية) [2]، فتقول:﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾!! .

---

١ - تفسير ابن كثير، ٢/ ١١٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٥/ ٤١٣١ .

٢ - التصوير الفني، سيد قطب، ص١٥٩ .

وقال الآلوسي [1]: (إنما قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم، استحياء من الناس وخوفاً من لائمتهم، أو حذراً من وقوع الناس في المعصية بسبب لكلامهم في شأنها) .

نلاحظ من خلال هذا المشهد اضطراباتها النفسية، وتداعيات خواطرها، المغموسة بالألم والحيرة، فتكون الهزة الانفعالية الرابعة، والمفاجأة العظمى عندما يكلمها وليدها، وليد الساعة ما إن تهدأ نفسها، فيدخل السكينة على قبلها، ويطمئن قلبها لمواجهة قومها، ويدعوها للشراب من الجدول والطعام من الرطب مما سخره الله لها .

وهنا قد أمر الله تعالى مريم على لسان مولودها بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرطب، مع قدرته سبحانه وتعالى على إنزاله من غير هز أو تحريك .

(وهنا أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أن مباشرة الأسباب في طلب الرزق أمر واجب، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله، لأن المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالاً لأمر مع علمه ويقينه أنه لا يقع في ملكه سبحانه إلا ما يشاؤه ويريده) [2] .

---

١ - تفسير الآلوسي، ١٦/ ٨٢ .

٢ - القصة في القرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ص١٣٣ .




وبذلك تكون الآيات قد عرضت لنا مشهداً من انفعالات مريم العاطفية نتيجة حملها ومخاضها وولادتها، سواء كانت نفسية أم جسدية، وكيف هَدَّأ مولودها من روعها وجعلها قريرة العين هادئة البال، فقد كان لكل منهما دور بارز ساهم في تطوير بنية الحدث من مشهد إلى آخر، حتى نصل إلى ما أراده الله من دروس وعبر من القصة .

فمن مشهد الولادة وآلامها، إلى مشهد مريم عندما التقت بقومها، ووقفت وحدها أمام الملأ تتحداهم بطفلها، فكان الحوار، وكانت الهزة قد انتقلت إلى قومها، والصدمة والمفاجأة الكبرى لما تحمله بين يديها وذلك مع المشهد الثالث للقصة .

قال تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا

كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[مريم: ٢٧ – ٣٣].

وكان اللقاء، وبدأ قومها تساؤلاتهم واستفساراتهم عما جاءت به من منكر بسخرية وتَهَكُّم، فذَكَّرُوْهَا بطهارة أمها، ونزاهة أبيها، فكيف بها ابتعدت عن طريق الطهر والعفاف؟ وبسخرية وتهكم ينادونها: " يا أخت هارون في الصلاح والتقوى"، وهارون رجل صالح في بني إسرائيل (غير هارون أخي موسى)، والأخت على هذا بمعنى المشابهة، وشبهوها به لتقواه تهكماً، أو لِمَا رأوا قبل من صلاحها [1]، وليذكروها بما كانت عليه من صلاح وتقوى كهارون، وبذلك يكونون قد اتهموا مريم بما هي بريئة منه!! لكن كان جوابها لهم بالصمت . . . والإشارة إلى وليدها لينطق عنها!! .

وتبدأ المعجزة المرتقبة والبشرى الكبرى، فينطقه الله تعالى بما يدل على صدق أمه وطهارتها، وأول كلمة قالها: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾، فاعترف لربه بالعبودية، وبقيامه بوظيفة العبيد، بحق العزيز الحميد، بالصلاة والإحسان إلى الخليفة بالزكاة، وبالقيام بكل ما أمره الله تعالى من شعائر سماوية، وذلك

---

١ – تفسير الآلوسي: ١٦/ ٨٨، وأضواء البيان للشنقيطي: ٤/ ٢٧١ بتصرف .

لإرشاد الناس إلى تلك الحقيقة، (بأنه عبد الله)، وليحذر أعداءه من وصفه (هو الله) أو (ابن الله) أو (مشارك له في العبادة) كما اعترف ببره لوالدته . ولم يصدر منه أي فعل ينافي أوامر الله وطاعته .

واختتم المشهد برجاء عيسى لله تعالى الأمان في كل حياته، وبذلك يختم الله تعالى قصة مريم ببيان وجه الحق فيها للخلق في كل زمان ومكان، وأنذر الذين وصفوا عيسى وأمه بما هما بريئان منه بسوء المصير ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[مريم: ٣٤ – ٣٥] .

وبذلك كان لسيدة نساء العالمين الدور البارز في تفاعل الأحداث بتفاعل عواطفها وانفعالاتها، حتى حققت قصتها الهدف والمغزى، والعبرة التي كانت درساً مهماً في تاريخ الإنسانية .

وصدق رسولنا الكريم ﷺ حين قال: (**كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**)[1] .

---

١ – سنن ابن ماجه، باب فضل الثريد على الطعام، عن أبي موسى الأشعري، رقم (٣٤٠٥).

فكانت عوناً وسنداً لنبي الله عيسى الله ﷺ، الذي حمل الرسالة وهو في الثلاثين من عمره، ومضى يطوف البلاد ويدعو إلى الله بالمحبة والتسامح والسلام، فكان داعياً بني إسرائيل للإيمان إليه، لكنهم كفروا به إلا القلة، وتآمروا عليه حتى يقتلوه، فنجاه الله ورفعه إليه، وبعد خمس سنوات من رفع عيسى ﷺ استرد الله أمانته الطاهرة، وراحت مريم محلقة في عالم الملكوت مثالاً للطهارة والعفاف، وكان لها من العمر ثلاث وخمسون سنة، فسلام على الصديقة مريم العذراء حاملة المعجزة الكبرى، والبرهان العظيم عيسى ﷺ [1] (المسيح) الذي تكرر اسمه بلفظ (المسيح) أي (المبارك) كلقب كريم لهذا النبي الذي هو واحد من أولي العزم والرسل، وقد ذكر المفسرون- كما ورد في تفسير الآلوسي- أن إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياء الموتى، كان عن طريق الدعاء، وكان دعاؤه: (يا حي يا قيوم)، ومن بين من أحياهم: (سام بن نوح) [2] .

فكانت معجزته مناسبة لعصره الذي ظهر فيه عيسى ﷺ، ليكون دليلاً على أنه صادق فيما يبلّغه عن ربه، إذ إن الطب في هذا العصر كان قد وصل إلى

---

١ – سمير المؤمنات وأنيس الصالحات، عبد الله بدران، ومحيي الدين بوابيجي، دار الخير، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م، ص٦٦ .

٢ – تفسير الآلوسي: ٢/ ١٦٩، وللتوسع في قصة مريم استندنا على أمهات التفاسير والمصادر لابن كثير، والقرطبي، والطبري، وأضواء البيان للشنقيطي، والقصة في القرآن الكريم، والتصوير الفني لسيد قطب .



درجة عظيمة من الرقي والتقدم، فكان مناسب أن تكون معجزته تتعلق بالطب عن طريق إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله تعالى [1] .

لذا فإننا نحصد العبر والدروس الإيمانية النافعة والعظات البالغة من قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام، لما حققته هذه السيرة العظيمة من دور فعال وأثر إيجابي بالغ في نمو الحدث وتطوره حتى حقق هذا المغزى وهي الدروس التالية:

إن عيسى وأمه من أعظم الأدلة على قدرة الله العظيمة ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، لذا فإن الله تعالى تكريماً ورعاية لهما آواهم في جهة مرتفعة من الأرض، (والمراد بهذه الربوة بيت المقدس بفلسطين)، وهذا إن دل فإنما يدل على أن من سلك طريق الطاعة فهو في رفعة وسمو، ومن سلك طريق المعاصي فهو في انحطاط ودنو!! .

تشريف الله تعالى مريم بنت عمران تشريفاً عظيماً، وتكريماً جليلاً لأنها اعتصمت بالعفاف والطهر طوال حياتها، فاستحقت ذلك، وبهذا نرى

---

١ – القصة في القرآن الكريم للطنطاوي، ص١٦٠ بتصرف .

أن من خضع لله تعالى رفعه، ومن كان مع الله تعالى طاعة، كان الله معه عزاً وكرامةً .

الأخذ بالأسباب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعاً، وأنه لا ينافي التوكل على الله جلا وعلا، ولهذا قالوا: من اعتمد على الأسباب أضلته الأسباب، ومن اعتمد على المسبب (وهو الله) ذلّل له الأسباب، فها هي مريم بنت عمران علمتنا درساً عظيماً في ضرورة السعي والتسبب للحصول على الرزق، وأن نتوكل على الله تعالى في ذلك، فقد هزّت بجذع النخلة ليرزقها الله ما كان قد قُسم لها ومحقق عليها، لكن أخذت بسبب السعي للحصول عليه .

علينا أن نلجأ إلى الله تعالى وحده، ونكون كريمين في طاعتنا مخلصين منيبين لوجهه الكريم، مخضعين أنفسنا لله تعالى، فلن يتخلى عندها الله عنا، بل سيكرمنا من فضله كما كرّم السابقين قال ﷺ : **" ومن نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه"** [1] .

فعلينا أن نطيع الله تعالى فيما نذرناه لوجهه الكريم، كما كانت عليه أم مريم، والتي نذرت مولودها قبل أن تراه لطاعة الرحمن وخدمة بيته الكريم،

---

١ – رواه البخاري عن عائشة . كتاب : الأيمان والنذور، باب : النذر في الطاعة، رقم (٦٣١٨) .




وقبل الله نذرها، لأنها كانت مخلصة النية لله تعالى، ورعى مريم وذريتها وجعلها من الصالحين .

لذا فإن مريم بنت عمران دورها عظيم وأساسي، وهادف في القصة القرآنية، فقد منحها الله تعالى هذه المكانة ليمنحنا قصة هادفة لها بعد إنساني وعقائدي وإعجازي .

ولتكن مريم وأمها ووليدها شخصيات محورية في القصة القرآنية، التي منحتنا دروساً وعبراً عظيمة، فمن أمها تعلمنا أهمية النذر والطاعة لله تعالى، وأن لا نقنط من رحمة الله تعالى، ونلجأ لوجهه الكريم في السراء والضراء .

ومن مريم تعلمنا الصبر والعفة والطاعة وحمل المسؤولية والعمل والسعي لرعاية ابن حمل رسالة سماوية واجهت معه قومها ومجتمعها، فكانت خير نساء العالمين .

ومن عيسى عليه السلام تعلمنا المكانة الرفيعة التي جعلها الله تعالى لمريم خاصة، والمرأة عامة، في القرآن الكريم، نرى دورها واضحاً في إيجابية تفاعلها مع الأحداث، فقد اصطفاها الله تعالى بالتطهير، لتقوم بأنبل وأعظم مهمة، هي مهمة الأمومة في سياق المعجزة الإلهية، فكان لها الدور العظيم والأساسي في محور الأحداث .




وهكذا نجد القرآن الكريم لم يستعرض النماذج النسائية إلا من منطلق إحساسها بدورها الطبيعي الذي منحها الله تعالى إياه: كالأمومة، والزوجية، والأنوثة، وهل نرى أماً تخلت عن دورها، ونالت احترام مجتمعها؟! فما بال قرآننا الحكيم!! وربنا العظيم .



➢ المبحث الثالث

ملكة سبأ (بلقيس)

أشهر ملكة من ملكات العرب

صاحبة السياسة والحكمة

نموذج للمرأة الإيجابية في القصة القرآنية

- القصة كما وردت في القرآن الكريم .
- دور المرأة "بلقيس" في القصة القرآنية .
- دروس وعبر حول القصة .
- فوائد . . . في جو القصة .

ملكة سبأ . . . سيدة السياسة والحكمة

امرأة متوّجة، ملكة في كتاب الله عز وجل، آتاها الله من كل شيء إلا الإيمان بالله تعالى، صاحبة الرأي الناضج والفكر الثاقب، والحزم والفراسة وحسن التدبير .

وكان سليمان عليه السلام قد آتاه الملك، وسخّر له الجن والطير والرياح تجري بأمره، لكنه اتخذ هذا المُلك العظيم وسيلة للدعوة إلى الله تعالى، فلم يترك ملكاً كافراً، ولا حاكماً جائراً إلا ودعاه إلى الدخول في دين الله سبحانه .

وصل إلى علم سليمان أن ملكة تتربع على عرشها ولها مُلك عظيم، وأوتيت من كل شيء، وأنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله .

ومن هنا تبدأ أحداث القصة، قصة سليمان مع بلقيس، وكلاهما يلعبان دوراً أساسياً في نمو الحدث، وكلاهما شخصية واضحة المعالم في القصة: شخصية الرجل، وشخصية المرأة، ثم تظهر شخصية الملك النبي، وشخصية الملكة، مع نمو الأحداث، ولنتابع أحداثها لنرى كيف يبرز دور كل منهما!! .

هذه الآيات الكريمة التالية تجسد لنا المشهد الأول من القصة، حيث تحكي ما دار بين سليمان عليه السلام، وبين جندي من جنوده مملكته، وهو " الهدهد"،

فقال تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾ [النمل: ٢٠ — ٢٦].

كان سليمان يمشي وجنده حوله من الإنس والجن والطير، وكل له واجب مكلّف به، واحتاج نبي الله سليمان عليه السلام أن يعرف منافذ الماء، فأعياه البحث، وكان الهدهد وحده هو الذي يعرف بفطرته أماكن الماء في طبقات الأرض [1].

وأشرف سيدنا سليمان عليه السلام على أفراد مملكته ليعرف أحوالها، فتفقد أحوال الطير، باحثاً عن الهدهد فلم يجده، وكان الملك الحازم يغضب لمخالفة

---

١ – قصص الأنبياء، ابن كثير، ص٣٨٩-٤٠٣ بتصرف .

النظام في مملكته، والتغيب بلا إذن، ولكن لم يكن سلطاناً جائراً، فقد يوجد للغائب عذره، فأقسم ليعذبه أو ليذبحه ما لم يأت بعذر بيّن، وحجة قوية توضح سبب غيابه، وتقنعه بالصفح عنه .

ويبدأ المشهد الثاني بعودة الغائب، ولم يكن زماناً طويلاً، وعاد إلى سيده ومليكه بلسان الواثق الخبير: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ أي علمت بأشياء أنت لم تعلمها!! ولم تصل إلى الإحاطة بها رغم قوتك وملكك، وكشفت سراً ندّ عنك أمره واختفى خبره .

وابتدأ الهدهد بهذه الجملة ليرغبه في الإصغاء إليه، ولاستمالة قلبه لقبول عذره، والتلهف والاستعجال لسماع حديثه!! .

ولكن ما هو "النبأ" الذي أتى به هذا الطائر من سبأ، ولا يعلمه نبي الله سليمان، صاحب الملك العظيم والجاه الوجيه؟

ويقص الهدهد عليه قصة المرأة التي تملك قبيلة سبأ، وتتصرف في أمورها دون أن يعترض عليها أحد أو ينافسها منافس، قد أتاها الله من كل شيء تحتاجه لتصريف شؤون مملكتها، والمحافظة على قوتها واستقرارها، ولها عرش عظيم . . ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ وإنه لشيء عجيب



وأمر غريب أن يركب الشيطان رؤوسهم ويبعدهم عن جادة الصواب والإيمان، فيعبدون الشمس التي هي من مخلوقات الله عز وجل، ويكفرون بالله العظيم؟! فكان أجدر لهم وأولى بهم وهو أولو القوة والمجد، أن يسجدوا لله الذي يعلم ما تُكِنُّ الجوارح، لا إله إلا هو رب العرش العظيم!! .

دُهش سليمان لهذا الأمر العجيب، وقد رأى ألا يفجع الهدهد في خبره، ولا يتعجّل الأمور ويستبق الأحداث، بل قال له بحكمة الملك العادل: سننظر في نبئك، ونتحقق أمر صدقك من كذبك، وإن كان الأمر كما وصفت، فهذا كتابي اذهب به وألقه إليهم، ثم انتظر رأيهم وترقب جوابهم .

ويقول سليمان للهدهد: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٢٧ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل: ٢٧ – ٢٨]، حتى يضعه موضع الامتحان لصدق الخبر الذي جاء به إليه عن مملكة سبأ، وإلى هنا ينتهي دور الهدهد في القصة [1]، وبذلك يظهر دور الحاكم العادل، والنبي الحكيم الذي يستمع لأصغر فرد في دولته، ولا يستهين برأيه، وهو الملك الحازم ذو العرش العظيم .

---

١ – القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور، عبد الكريم الخطيب، مؤسسة الرسالة، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، بيروت، ط١، ١٤٧٠٤هـ – ١٩٨٤م، ص٣٦ .

فالأمم العظيمة لا تستهين برأي صغير مهما حُقّر شأنه!! .

ويبدأ المشهد الثالث، وتحكي السور بعد ذلك ما كان من سليمان عليه السلام، وما كان من ملكة سبأ، بعد أن وصلها كتابه، إذ يظل مضمون الكتاب محجوباً حتى تقرأه "بلقيس" فيتضح لنا، وهذا ما تقتضيه الحكمة والكياسة، وتفرضه ضرورات السياسة، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[النمل: ٢٩ — ٣٥]

وها هي الملكة تقرأ كتاب نبي الله سليمان يدعوها فيه وقومها إلى الله تعالى، فتكشف بذلك لنا عن مضمون الكتاب المرسل إليها من سليمان عليه السلام، وتصفه "كتاب كريم"، وهذا أدب الملوك تقابل به الملكة ما ورد في الرسالة من أدب النبوة والملك معاً، فقد كانت الرسالة تحمل دعوة إلى السلام والإسلام، بعيدة عن التهديد والوعيد، وكانت موجزة بليغة لاقت في نفسها أثراً كبيراً .




وتقدم لنا بذلك نموذجاً للموقف الحكيم، والتصرف الواعي، في إدارة السلطة والحكم، حيث جمعت وزراءها وأمراءها وأكابر دولتها إلى مشورتهم، لاعتدادها بهم، وركونها لآرائهم وحكمتهم، فقالوا: (نحن أبناء حرب وجلاد، لا أهل رأي وسداد، وقد تركنا أمورنا لتدبيرك، وشؤوننا لتفكيرك، فانظري ماذا تأمرين، نكن طوع بنانك ورهن كلامك) .

لمحت الملكة في كلامهم ميلاً إلى الحرب والمدافعة، لكنها أبانت لهم أن الصلح خير، وأن الأجدر بذوي العقول الصائبة أن يبدؤوا بالتي هي خير وأحسن [1] .

ويتضح لنا من خلال هذا المشهد صورة الحاكم الحكيم، الذي يستند إلى مبدأ الشورى مع قومه، ثم يتوخى الخير والأصلح لهم، وفي المقابل صورة القوم الذين يبادلون الحاكم ولاءً بولاء، وحباً بطاعة وإخلاص .

لقد كانت أدرى منهم بما تعنيه الحرب، ولا تريد لقومها الذل والهوان، وكانت قد علمت عظمة سليمان وقوة ملكه، (وهنا تظهر (المرأة) من خلف

---

١ - قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البخاري، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ص١٤٦-١٤٧ .

(الملكة) الأنثى التي تكره الحرب والتدمير، والتي تلجأ إلى سلاح الحيلة والملاينة قبل سلاح القوة والعنف) [1] .

إن الضعف الأنثوي في تكوينها يجعلها تميل إلى المسالمة، رغم قوة الحزم وصلابة الرأي، إلا أنها تخبر قومها بأنه لا بد من مصانعة ومجاملة لتصرف مطامعه عنها، وذلك بكسب مودته، (بأن ترسل له بهديه ثمينة، فعندها تعرف الطريق الذي تسلكه معه، فإن قبلها فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه) [2] .

وهنا يذكر القرآن الكريم ما كانت عليه الملكة بلقيس من دهاء وكياسة، وإيثار السلم على الحرب، واللين على الشدة، وتلوّح لقومها بأن الملاينة مع سليمان عليه السلام، أفضل من المجابهة والمواجهة بالقوة، والتصدي له .

وقال قتادة في بلقيس: (رحمها الله ورضي عنها، ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها!! لقد علمت أنّ الهدية تقع موقعاً من الناس) [3] .

وينقلنا المشهد الرابع إلى قصر سليمان، وموقفه من الهدية، فعندما رآها..
يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ

١ – التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، ص١٧١ .

٢ – القصة في القرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ص٧٠ .

٣ – تفسير ابن كثير: ٦/ ٢٠٠ .




مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾[النمل: ٣٦ – ٣٧] .

وحين تم إعداد الهدية، طلبت من رسلها أن يقفوا على أحوال هذا الملك، ليعودوا لها بتقرير وافٍ عن حقيقته، وقوته في ملكه، إنها تتصرف بحكمة وذكاء، إنها بحاجة لأن تلمَّ بكل أخبار هذا الملك الذي يهددها ويهدد حكمها، وحضورها إليه خاضعة [1] .

وصل الرسول إلى سليمان، ومعهم هدية ملكتهم إليه، قابلهم بالإنكار والاستخفاف والسخرية بتلك الهدية، ورفضه لها، لما آتاه الله من النبوة والملك الواسع، وبيان ما هم عليه من ضيق في الأفق، حيث توهموا أن هديتهم قد تفيد في صرف سليمان عن دعوتهم إلى وحدانية الله تعالى، وتركهم وشأنهم، فقال لهم: قولوا لمن أرسلكم بتلك الهدية: إن هديتكم ستفرحكم لأنكم تفكرون بمتاع الحياة الدنيا، أما أنا فلا يهمني إلا إيمانكم، ولا تراجع عن ذلك، ثم قرن موقفه بالتهديد بأنه لنأتينكم بجنود لا قدرة لكم على مقاومتها، ولنخرجنكم وملكتكم من بلاد سبأ أذلة مهزومين مقهورين [2] .

---

١ – مئة من أوائل النساء، سليمان سليم البواب، دار الحكمة، دمشق، ص ٤٢-٤٣ بتصرف .

٢ – القصة في القرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي،ص ٧٠-٧١ بتصرف .

إن سليمان تجتمع فيه النبوة، والملك، والرجولة في موقفه هذا، فإنه كنبي رفض أن يستسلم لإغراءات بلقيس، ولم يلتفت لهديتها، ولم تصادف مكاناً في قلبه، ولم تحل بينه وبين دعوته كنبي في نشر دين الحق، وهو كملك لم يَعْنِهِ متاع الحياة الدنيا، ولم يفرح لهديتها ويحجم عن القتال، ومن تجاربه السياسية كحاكم يدرك أن هذا الرد العنيف سينهي الأمر مع الملكة، وعندها ستستسلم، ولا ترغب بالعداء، كما يبدو من ضعفها وتنازلها في إرسال هديه له، واستخدامها هذه الوسيلة لمهادنته، وأنها ستجيب دعوته .

وهنا تنهض الرجولة فيه، فهو يريد أن يبهرها (كامرأة) بقوته وسلطانه، وحزمه في اتخاذ القرار من طرفه، بأن تحضر وقومها خاضعة إليه، وتدخل في دين الله تعالى .

جاء الخبر من الرسل إلى الملكة، فعلمت عظمة سليمان وقوة مُلكه، فقالت: ما هذا الملك!!، وأنه ليس من الحكمة الوقوف في وجه نبي [1]، إن إقرارها بنبوته بداية هدايتها واستسلامها، وأنه لا جدوى من الإلقاء بنفسها وقومها في حرب دفاعاً عن الباطل، فبعثت إليه بأنها قادمة وكبار قومها، للنظر فيما تدعونا إليه من دينك .

---

١ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٣/ ٢٠٠ بتصرف .

أراد سليمان أن يُريها ما خصه الله به من العجائب الدالة على عظيم قوته وصدقه في دعوى النبوة [1]، والمعجزات النبوية التي أكرمه الله بها، وذلك ليقودها وقومها إلى الإيمان بالله رب العالمين، ويختبر عقلها وذكاءها فقال:

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٣٨ — ٤٠].

فكان المشهد الخامس، حيث أمر سليمان جنوده أن يحضروا عرش هذه الملكة، قبل أن تحضر إليه وقومها مسلمين، (أي منقادين طائعين مستسلمين لما أمرهم به).

رد عفريت من الجن – الذي سخره الله تعالى لخدمة سليمان- أنا آتيك بعرشها قبل أن تقوم من مقامك، وكأن سليمان قد استبطأ إحضاره عرش تلك

---

١ – صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: ٢/ ٤٠٩ .

الملكة في هذه الفترة التي حددها ذلك العفريت، (أو ربما الأهداف الدينية لا تريد أن يكون للجن قوة، ولو كانوا من جن سليمان) [1] .

وقال رجل آتاه الله علماً وحكمة وإيماناً، أنا آتيك به في طرفة عين، أتى " آصف ابن برخيا" بالعرش، ووضعه بين يدي نبي الله سليمان الذي خرّ ساجداً لله على ما أنعم عليه، (وهنا يستطرد في الشكر على نعمه بما يحقق الغرض الديني للقصة)، وأمر بأن تُغير بعض معالم العرش، حتى يرى مدى قوة عقل هذه المرأة، ويختبر ذكاءها بذلك .

بنى سليمان صرحاً مشيّداً، وجعل له ممراً من زجاج، وجعل فيه السمك، بحيث يخيل لمن يراه أنه بحيرة ماء، ولجّة من لجج البحر، ووضع عرشها داخل الصرح، وبذلك اكتمل الاستعداد وتهيأ سليمان عليه السلام لاستقبال هذه الملكة، يريد بهذا الاستعداد أن يُريها نعمة الله، وأن ما آتاه الله من ملك لا ينبغي لها ولا لغيرها مثله [2] .

ويختم سبحانه هذه القصة الرائعة بمشهد أخير، ببيان ما فعله سليمان بالعرش، وبما قاله للملكة سبأ بعد أن قِدمت إليه، وبما انتهى إليه أمرها، فقال

---

١ – التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص١٧٢ .

٢ – مكانة السيدة مريم العذراء مقارنة بنساء العالمين، نعمة ناصر الشعراني، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م .




تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[النمل: ٤١ — ٤٤].

وهنا يتهيأ المسرح لاستقبال الملكة، فلما جاءت قيل: أهكذا عرشك؟! قالت: كأنه هو، وهنا تمت المفاجأة الأولى للملكة، إنه يريد أن يختبرها اختباراً عقلياً واختباراً إيمانياً، فعندما أمر بأن ينكّروا عرشها، أي يغيروا شكله، فلو أنها جاءت ورأت عرشها كما هو على هيئته، كما كان في سبأ ستعرفه، ولا يعرف سليمان ذكاءها في الجواب، وقوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، إن كان المقصود به الهداية الإيمانية فهو أن تهتديَ إلى الإسلام، وإن كان عقلياً بأن تهتديَ إلى الجواب،﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾، فكأنه يقول لها: إن هذا ليس عرشك، ولكنه قال: هل عرشك مثل هذا؟ فهو يريد أن يختبرها فصعّب عليها السؤال، فماذا قالت؟ نظرت إلى العرش فوجدته مثل عرشها،

ولكن التنكير الذي حدث له يدل على أنه ليس عرشها، فجاءت بجواب يحتمل الحالتين معاً، فماذا قالت؟ ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾.

فعرف سليمان من هذه الإجابة أنها ذكية وحصيفة وعاقلة، أما بالنسبة لهداية الإيمان، فهي تعلم أنها تركت عرشها هناك في بلادها وجاءت إلى سليمان، فكيف جاء سليمان بالعرش بهذه السرعة مع أنها تركته خلفها؟! فلا بد أن هذه قدرة فوق مستوى قدرة البشر [1] .

وقول سليمان: ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ ﴾ أي أتهتدي إلى جواب بجمع الأمرين في المنكر- وهو عرشها- أو تهتدي إلى أنه الذي صنع ذلك إنما يكون مؤيداً بأسرار الكتاب، فنقل العرش بهذه السرعة، فتؤمن .

وقول الله تعالى: ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ إن كان هذا الكلام تكملة كلام بلقيس، فمعناه أوتيت العلم قبل هذه الحادثة، وعلمت أنه نبي، خاصة بعد أن رد الهدية الثمينة، وقال لهم: ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ

---

١ - قصص الأنبياء والمرسلين، فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، ص٣٥٨-٣٥٩ .



تَفۡرَحُونَ ﴾، إلى آخر هذا الموقف، فكأنها تقوله له: نحن عرفنا (قبلها) أي قبل هذه الحادثة أنك نبي، وأسلمنا، أو أن هذا كلام سليمان عليه السلام [1]، والله أعلم .

إذاً نستشف من هذا الموقف أنها لم تكن أقل منه حكمة ودراية وحسن تصرف، وذكاء وحصافة، فكأنها بجوابها تقدم اعتذاراً عن سبب تأخرها في الدخول في الإسلام قبل ذلك .

ثم ختم سبحانه هذه القصة ببيان ما فاجأها به سليمان، لتزداد يقيناً بوحدانية الله تعالى، وبعظم نعمه، فقد بنى الصرح داخل بلاطه من زجاج صاف كالبلور، بحيث يرى الإنسان ما يجري تحته من ماء .

فقال سليمان لملكة سبأ: ادخلي هذا القصر، فلما رأت ما عليه من جمال وإبداع حسبته لجّة، أي ظننته ماء غزيراً كالبحر، فكشفت عن ساقيها لئلا تبتل بمائه . . فقال: ﴿ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ [2]﴾ زجاجية، فأقرّت لسليمان بالنبوة، ولربه بالعظمة والقوة، وقالت في يقين: رب إني ظلمت نفسي بعبادة الشمس، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

---

١ – المرجع السابق، ص٣٥٨-٣٥٩ .

٢ – القارورة: هي إناء من زجاج، كما ورد في الوسيط والوجيز، وتطلق القارورة على المرأة، لأن الولد يقر في رحمها، أو تشبيهاً لها بآنية الزجاج من حيث ضعفها، ومنه الحديث الشريف: "رفقاً بالقوارير"، والمراد بالقوارير هنا: المعنى الأول .

وهكذا كانت بلقيس امرأة كاملة لها دورها الفعال في سير الأحداث، والذي جعلنا نتابع تصرفاتها ونتأمل قدرة الله في خلقه، بأن جبلها على فطرة الإيمان إذا استجابت بفكرها الصائب للهداية، فكانت امرأة بصيرة التفكير، ومعلماً واضحاً على طريق قيادة الشعوب إلى الحق بالحكمة والوعي .

وهذا ما يدفعنا إلى العناية بتعليم المرأة وتثقيفها والاحتفاظ بطبيعتها الإنسانية، في ظل الإيمان بالله، فهو من أقوى ما يدفعها لاتباع الآراء الصائبة، وبهذا التقت فطرة بلقيس مع فطرة سليمان في الإيمان، على سبيل التفكير والتأمل، فآمنت عن حق بالله تعالى .

إن قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام ترشدنا إلى ما أودعه الله تعالى في فطرة المرأة من ذكاء وحصافة، مما يجعلها قادرة على تكييف الأمور وقيادتها، وبذلك يكون لها الصدارة في أدوار الشخوص في القصة مع الرجل، في الاعتماد عليهما ليشاركها في محور القصة القرآنية فيحقق بها الله تعالى العظة والدروس والعبر[1] .

---

١ – للتوسع في هذه القصة رجعنا إلى مراجع وتفاسير عديدة منها: قصص الأنبياء لابن كثير، ص٥١٩ . وقصص الأنبياء للنجار، ص٣٥٠ . والبداية والنهاية: ٢/ ١٧ . والقصص القرآني لعبد الكريم الخطيب، ص٣٦، والقصة في القرآن الكريم لمحمد سيد طنطاوي، ص٦٥، والتصوير الفني في القرآن لسيد قطب، ص١٧٠ . والجامع لأحكام القرآن، وتفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي، وقصص القرآن محمد أحمد جادد المولى، ص١٤٦ .




إن ملكة سبأ نموذج المرأة العاقلة الحكيمة التي استطاعت بعقلها وحكمتها أن تدير شؤون مملكة، فكان لها الدور الذي نقلتهم به من الضلال إلى الهداية، وذلك عن طريق ذكائها وحصافتها وحكمتها في الإحساس بقدرة الله تعالى وعظمته، فهي تمثل مكان الحكم والقيادة، لم تقلّبها عواطف الضعف التي تضعف موقف كثير من النساء في مثل هذه الأزمة التي أحاطت بها وبمملكتها، بل استقبلت الأزمة بعقل يقظ وإرادة ثابتة، وتصرفت بقوة وحكمة في أمور مملكتها مع المشورة في الأمر، واتخاذ القرار الصائب لمصلحة الجميع، إنها صاحبة القرار في النهاية، لأن العقل يحكمها، والحكمة توجهها .

وتنتهي القصة بقدومها إلى سليمان معلنة ولاءها له، ولكنه ولاء العقل للحجة المنطقية الواضحة السليمة لقلبها وعقلها .

وهكذا كانت بلقيس امرأة متكاملة تستخدم الحيلة والملاحظة لتتجنب الحرب وتدعو إلى السلام، ولكن ليس لأول وهلة ومع أول مفاجأة، بل حكّمت عقلها وحكمتها، وبحصافة وذكاء أدركت قدرة الله تعالى، وذلك مع المفاجأة الثانية في الصرح العظيم .

ويُسدل الستار على قصة دينية وُجهتها الدين، تبرز الانفعالات النفسية التي ترسم نماذج إنسانية .




نستمد من مواقفهم قصة العظة والعبرة، لأنهم عاشوا واقعاً وحقيقة في زمان ومكان محدد من تاريخ الإنسانية، لذا لا بد من الاستفادة من تجاربهم، وأن ننهل من دروس حياتهم – العبرة والعظة- الكثير، ومنها:

١- أن الله تعالى قد أعطى بفضله وإحسانه سليمان عليه السلام نعماً عظيمة منها (النبوة والملك والعلم النافع)، ولكن قابل هذه النعم بالشكر لله، واعترف بفضله عليه، ولم يجحد نعمه، فزاده الله من نعيمه، فمن حمد الله وشكره لا شك أن الله يزيده من فضله بما يفوق طاقة البشر، فإنه قادر على كل شيء ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، فقد أُتي بعرش بلقيس بقدرة الله تعالى، ودعاء هذا العبد المؤمن الذي دعا ربه، فإذا عرش بلقيس قد انتقل من اليمن إلى بيت المقدس بطرفة عين، إنها معجزة من المعجزات التي سخرها الله تعالى لسليمان (المعجزة الخارقة) للعادة، لم يستطع العلم حتى الآن، ولن يستطيع أن يحلها أو يكشف عنها، وهذه كرامة الله يُكرم بها عباده الصالحين .

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠] .

وإن الله تعالى يختار لعباده محنة المسرة ليشكره، ويبتليه بالمضرة ليصبّره، قال ﷺ : **(عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن اصابته ضراء صبر فكان خيراً له)** [1] .

٢- عن رسالة سليمان (كنبي) محاربة الكفر ونشر دين الله، وعلينا أن نستفيد من سيرة سليمان ﵇، بأن نحارب الضلال والكفر- كل من موقعه – فالتاجر يحارب الكفر في عدم ترويج البضائع للدول العميلة والكافرة، فيكون له دور بنّاء في محاربة الكفر والكفار، والطالب بعلمه ووعيه وثقافته التي تجعله يحارب الكفر وثقافات الدول الملحدة، التي رسالتها هدم الدين وبذور الإيمان في شبابنا .

المعلم له دور في بناء النفوس بالعلم الذي يحارب فيه الكفر والضلال، فالحرب تبدأ بكلمة، وعليه أن يحمل هذه الرسالة بإخلاص، فيزرع في نفوس النشء روح الدفاع عن دين الله .

٣- إن الأمم لا تُرفع أعمدتها إلا بثلاث، بالإيمان بالله، وبالعلم النافع، وبالقوة .

---

١ – رواه مسلم في صحيحه عن صهيب بن سنان الرومي، كتاب: الزهد، باب: في احاديث متفرقة . صحيح مسلم بشرح النووي: ١٨/ ١٢٥ .

فإن تخلينا عن أحد هذه الأعمدة ضاعت الأمم، إن الإيمان بالله تعالى والإخلاص له يأمرنا بأن ندعو إلى الله تعالى، ونقوم بأداء رسالتنا بإخلاص .

فإن النبي سليمان عليه السالم أكد برسالته لبلقيس إخلاصه لدينه في دعوته لها ولقومها إلى وحدانية الله تعالى .

والعلم النافع الذي ملكه سليمان كان معيناً له في نشر دعوته، وتسخيره لعبادة الصالحين: **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥] .

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل: ٤٠]، فنرى صاحب العلم بأسرار أسماء الله تعالى، دعا الله (يا حي يا قيوم) فكان له من معجزات ما لم يقدر عليها أحد، فأحضر عرش بلقيس بطرفة عين، فالعلم فاق قدرة الجن، فكانت المدة التي استطاع أن يحضر عرش بلقيس بقدرته تعالى أقل من الزمن الذي أقر عفريت من الجن أنه سيحضره ، وكأن الله تعالى أراد أن يفصّل لعباده بأن لا حاجب بين الله وعبده.

أما القوة فنراها في قوله: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل: ١٧]، إن القوة التي منحها الله تعالى

لسليمان، قوة فائقة لم يمنحها لأحد، فاستسلمت بلقيس أمام مظاهر هذه القوة، إذ أنها شعرت أن الله وراء قوته، فآمنت بالله .

٤- إن سليمان عليه السلام كان يمثل الحاكم اليقظ المتنبه لأحوال رعيته، يتابع شؤونها صغيرة وكبيرة، ويظهر ذلك عندما تَفَقَّدَ الطير فوجد الهدهد غائباً، وهو واحد من آلاف الخلائق الذي هم تحت قيادته .

فهذه دعوة لكي يقوم الإنسان بمهمته على أتم وجه، فالإمام يتفقد رعيته، والحاكم يتفقد رعيته، والأم والأب يتفقدان أولادهم فهم في حكم رعيتهم، فلو تم ذلك على أكمل وجه، سلمت الدنيا، ومن فَرَّطَ في الأمور الصغيرة واستصغر أمرها، فلا يستبعد أن يفرط بأمور كبيرة هامة لا يقدّر حجمها، فتكون الطامة الكبرى .

٥- المشورة (فمن استشار ما تاه)، فلا بد من الأخذ بآراء الصغير والكبير، فالأمم العاقلة الرشيدة، لا يُهان فيها الصغير ولا يُنتقص فيها الكبير.

ولتكن ملكة سبأ أسوة حسنة لنا نأخذ بحكمتها ودرايتها للأمور وعدم التسرع والتهور في الحكم، والمشورة والأخذ بها، ثم الحسم والتقرير لما هو أرجح وأسلم للمصلحة العامة، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل: ٣٢] .

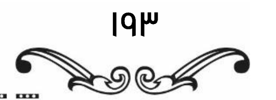
قال القرطبي: وفي هذه الآية دليل على صحة علاقتها مع قومها والأخذ بمشورتهم ورأيهم، وإخلاص وولاء قومها لها، وإيمانهم برجاحة عقلها واتخاذ القرارات البناءة: ﴿ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾ [النمل: ٣٣]، فرُبَّ واردة كانت، شاردة عن أفكارنا وأذهاننا، والآية الكريمة تؤكد اتخاذها القرار الذي توصلت إليه برجاحة عقلها وحصافتها ورويتها في قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٥]، قال عمر ابن الخطاب: " رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوبي" .

وبذلك يدعونا الله تعالى في قصته من خلال الرسالة التي أداها كل من سليمان وبلقيس إلى ضرورة المشورة قبل اتخاذ أي قرار، وأن لا نستصغر أيّ رأي من أي مصدر، فربما كانت السلامة في آرائهم .

٦- توظيف الهدية في هدف سام، ورسالة نبيلة، وتفقد الهدية قيمتها المعنوية إذا فقدت هدفها، قال ﷺ : **" تهادوا تحابوا "** [1] وكأن رسولنا الكريم ﷺ يؤكد على أن الهدية رمز من رموز المحبة لا تهدف إلى مصلحة مادية أو اجتماعية أو . . . . .، بل تكون كما أمرنا رسولنا الكريم ﷺ بها، فتكون قد وقعت في النفس موقع الندى على زهر الياسمين في صباح أمل جديد، وإلا لما

---

١ – أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب : المريض، باب : قبول الهدية، رقم (٥٩٤) .

اختبرت بلقيس إيمان سليمان عليه السلام، بهدية!! ليحل الود والسلام مكان العنف والدمار، ولقد كان رسولنا ﷺ يقبل الهدية ويكافئ عليها .

٧- إن قصتنا تدعونا إلى السلم كما كانت ملكة سبأ، بأن سارعت إلى الدخول في الدين الحق، وفضلت السلم على الحرب، وإلا لما قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧]، وذلك لعنادهم، فكلما كان الإنسان هيناً ليناً، بعيداً عن العناد كان قريباً من الإيمان، وخير دليل الملكة بلقيس، فقد استجابت لأوامر الله تعالى ودعوة الملك سليمان، دون أن تستبد برأيها، وتدخل حروباً ضاربة ينتج عنها الذل والعار والعبودية، فلم تستبد بملكها، إذ كان ملك الله تعالى في نفسها أعظم وأكبر، فآمنت وأسفت على تأخيرها بالكفر وعبادة الشمس من دون الله تعالى .

بهذا نرى بلقيس نموذج الملكة الحكيمة الحاكمة، التي كان لها دور مهم في حياة المرأة، وقد أثبت الله تعالى بذلك (أن امرأة قد تفوق الرجال في رجاحة عقلها)!! . وقد يفوق رجل عظيم قَدْرُهُ نساء في رجاحة عقله، فليس المقياس المادي واختلاف النوع والجنس هو التفاوت بينهما، بل المقياس أعمق من ذلك، وذلك فيه بعد النظر والحكمة والعقل والتعقل والحكم الصائب .

إن قدرة الله تعالى في خلقه تكون في الرجل والمرأة على حد سواء، لذا كان للمرأة دورها الهام والبارز والإيجابي في سياسة الدولة، ولتكن بلقيس قدوة

لمن يتهور في حكمه، ويأخذ الأمور في سفاسفها، وبسطحية وتهور، فربما كانت سبباً وجيهاً لهدم أمة، أو إعمارها، فاختيار المرء دليل عقله!! .

فوائد نستقيها من أجواء القصة:

١- **من عجائب الطير:** (بمناسبة الحديث عن الهدهد)، من غابات غينيا قام عالمان من علماء البيولوجيا بالعمل في خطة بحثية حول الببغاء، فلفت انتباههما أن الببغاوات بعد الانتهاء من تناول الطعام المكون من بذور ثمار بعض النباتات والأشجار يقوم الببغاء بتناول وجبة من التراب، حاول الباحثون معرفة السبب في ذلك؟ فكان السبب والسر الإلهي هو أن طعام الببغاوات المكون من بذور بعض الأشجار والنباتات البرية والغنية بالعناصر الغذائية والمعادن، هذا الطعام أيضاً يحتوي على نسبة من السموم القاتلة الفتاكة، وحبيبات التراب تجذب تلك الحبيبات السامة (تنقية لها)، فتمنع امتصاصها في أمعاء الببغاء، فلا يؤثر السم في الطائر وتترسب السموم حتى تخرج دون أن تمتصها الأمعاء، من الذي هدى الببغاوات إلى ذلك؟ إنه الله رب العالمين، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠].

٢- **ومن عجائب النمل:** بمناسبة أن استوقفت نملة سليمان عليه السلام وسمع كلامها فازداد شكراً لله العلي القدير، بهذه المناسبة نتوقف مع عالم النمل، لندرك قدرة الله وعظمته .



وهو عالم غريب عجيب، فالنمل مهندس بارع في البناء وخبير في التخطيط، وعليم بأساليب التخزين والتهوية، وهو فلاح بارع يزرع ويحصد ويخزن ويربي الماشية [1] !! .

ومساكن النمل تحتوي على طبقات كثيرة، وبكل طابق غرف كثيرة فيها أماكن لراحة العائلات، ومخزن لادخار الأقوات، ومطعم لتناول الوجبات، وثكنة عسكرية في حالة تأهب واستعداد للخوض في المعارك مع نمل آخر، أو مع عدو يشكل خطراً أو تهديداً لمملكة النمل، بالإضافة إلى مقبرة لدفن من يموت من النمل، فضلاً عن جناح خاص للملكة، ومكان لوضع البيض والعناية به، ومكان لتربية صغار النمل، وإصطبل لبقر النمل وهو نوع من أنواع الحشرات وهو المن أو البق يسرح به النمل في الصباح ليتغذى على أوراق الشجر والنباتات أو يجلب له الغذاء إذا تعسر إخراجه، ويقوم النمل بزراعة أنواع من الفطريات والنباتات وحصدها .

وقد شوهد في أفريقيا نمل يصنع الجسور لعبور الموانع المائية .

وللنمل أساليب علمية بارعة في التخزين والتهوية، فهو يقسم الحبة إلى فلقتين حتى لا تنبت فتفسد، لكنه يقسم حبة الكزبرة إلى أربع فلقات حتى لا

---

١ – المرأة في القصص القرآني، أحمد محمد الشرقاوي: ٢/ ٥٥٧ .

تنبت، لأن نصفها ينبت، وإذا أصاب الحبوب بلل أو رطوبة ينشرها النمل في الشمس حتى لا تفسد!! وقد قام أحد العلماء بدراسة عالم النمل سنوات عديدة، وحسب ذات يوم ما قامت به نملة في أعمال الحفر والبناء ونسبة إلى جسمها وإلى شغل الإنسان وجسمه، فوجد أن مجهودها بالنسبة لحجمها يساوي مقدار حفر رجل خليجين وإقامة أربعة حوائط من طين .

وقام أحد العلماء بالتأمل ببعض النمل، ولاحظ أن النملة إذا وجدت طعاماً من حبوب أو حشرات أو غير ذلك فإن قدرت على حمله بنفسها تحمله

إلى حجرها، وإن لم تقدر عينت مكانه وذهبت لاستدعاء من يعينها، فقام العالم بنقل الطعام الذي وصلت إليه نملة فكان كلما استدعت من يعينها قام العالم بنقل الطعام الذي وصلت إليه نملة، فكان كلما استدعت من يعينها على حمله لم يجدوه مكانه، لأن العالم كله ينقله إلى مكان آخر، فيرجع النمل إلى مساكنه وتعود النملة إلى البحث، فتعثر على الطعام فتذهب وتستدعي النمل، فيقوم العالم بنقل الطعام حتى لا يعثر النمل عليه، وتكرر ذلك مرات عديدة، حتى ظن النمل أن النملة تكذب عليهم فقاموا بمحاكمتها، وأعدموها بتمزيقها تمزيقاً، فكان جزاء الكذب في عالم النمل هو الموت!! حتى النمل لا يغفل عن القيم والمبادئ، فسبحان الله تعالى له في خلقه شؤون! .




الفصل الثاني

نماذج سلبية في عهد الأنبياء

المبحث الأول: امرأة العزيز في عهد يوسف عليه السلام .

المبحث الثاني: امرأة نوح في عهد نوح عليه السلام .

المبحث الثالث: امرأة لوط في عهد لوط عليه السلام .






➢ **المبحث الأول**

امرأة العزيز - زليخا -

مثال كيد النساء العظيم

في عهد نبي الله يوسف ﷺ، ومحنته مع العفاف

نموذج للمرأة السلبية في القصة القرآنية

تمهيد

قصة يوسف احسن القصص!!

- تبدأ القصة **بالمشهد الأول** برؤيا يوسف التي يقصها على والده يعقوب عليهما السلام .
- **المشهد الثاني:** المؤامرة البشعة ضد يوسف من إخوته .
- **المشهد الثالث:** الحوار بين الإخوة وأبيهم .
- **المشهد الرابع:** الجريمة الغامضة .
- **المشهد الخامس:** الخداع والكذب في سردهم حقيقة الجريمة .
- **المشهد السادس:** يوسف من البئر إلى بيت العزيز .
- **المشهد السابع:** مراودة امرأة العزيز يوسف، وعصمته .
- **المشهد الثامن:** حديث النسوة في المدينة عن مراودة امرأة العزيز ليوسف .
- **المشهد التاسع:** موقفها منهن (خديعة قابلتها خديعة) .
- **المشهد العاشر:** السجن طريق النجاة .
- **المشهد الأخير:** براءة يوسف وتربعه منصباً هاماً في مصر .
- **دور المرأة في حياة يوسف** عليه السلام **.**
- **دروس وعبر من القصة القرآنية .**

روي أن اليهود سألوا الرسول ﷺ أن يحكي لهم عن يوسف أحد أنبيائهم القدامى، فنزلت سورة يوسف كاملة، وبالاسم نفسه، وبتفصيلاتها الدقيقة، تسلية للرسول ﷺ بما مرّ عليه من الكرب والشدة في عام الحزن، وتخفيفاً لآلامه بذكر قصص المرسلين، وكأن الله تعالى يقول له: لا تحزن فإن بعد الشدة فرجاً، انظر إلى أخيك يوسف وما حدث له من صنوف البلايا والمحن، والصبر على البلاء، وجعله عزيزاً في أرض مصر، ومُلكه خزائنها فكان السيد المطاع، فمن صبر على بلائه لا بد له من الفرج، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[يوسف: ٣].

واختلف العلماء لِمَ سميت هذه القصة بأحسن القصص، فقيل: لأن يوسف تجاوز عن إخوته فيها وصبر عليهم وعفا عنهم، وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والعفة والغواية، وسير الملوك والممالك، والرجال والنساء، وحِيَل النساء ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقه، وتعبير الرؤيا وتفسيرها [1].

---

١ - أنبياء الله، أحمد بهجت، ص١١٨ .

وقال فيها الإمام النيسابوري: (ووجه حسنها اشتمالها على الغرائب والعجائب والنكت والعبر، وأن الصبر مفتاح الفرج، وأن ما قضى الله كائن لا محالة له، لا يرده كيد كائد ولا حسد حاسد) [1].

إن قصص القرآن الكريم لها أبعادها الإعجازية والتي تحقق الدروس والعبر التي يريدها الله تعالى لعباده، ما دامت تحقق الأهداف الدينية، لذا فلا مفاضلة بين آيات الله المحكمات، لأن الله تعالى لم ينزل لعباده إلا ما له أحسن الفضل في زمانه وتوقيت حدثه، ومدى تحقيق النور والبشرى منه ليرشد الضالين وينير الصالحين بنوره، إلا أن الله تعالى أقرّ في سورة يوسف أنها أحسن القصص لما تقدم للإنسان من عبر وعظات ودروس هامه في حياته، فهي سورة غنية بالمشاهد والانفعالات، ونعتقد أن ثمة سبباً هاماً يميّز هذه القصة، ولكن كل قصة في القرآن الكريم من موقفها وأثرها تشكل أحسن القصص .

وقصة يوسف تمضي في خط واحد منذ البداية إلى النهاية، يلتحم مضمونها وشكلها، ويفضي بك لإحساس عميق بقهر الله وغلبته ونفاذ حكمه، لتعلم أن الله إذا أراد قضى المراد، ولا جدال فيما أراد .

---

١ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري، ط البابي الحلبي، ١٣٨١هـ، ط١، ص ١٢-٨٠ .



كما أن في هذه القصة دلالة قاطعة على نبوة يوسف وعصمته عليه السلام، لأن مثل هذه الأخبار المعجزة ما كانت تعرف إلا عن طريق الوحي .

لقد تعرض يوسف طوال حياته لمؤامرات كانت تأتيه من ألصق الناس به " إخوته" كاد له إخوته جريمة قتل للتخلص منه، ثم عدلوا عنها واختاروا نفيه، وقع هذا وهو صبي، وبيع في سوق العبيد في مصر، واشتراه من اشتراه بثمن بخس، ثم تعرض لإغواء زوجة رجل هام، فلما رفض إغواءها أُلقي به في السجن، وظل سجيناً فترة، ورغم هذا الهوان كله، فقد وصل أخيراً إلى حكم مصر، واعتلى عرشها، وصار وزير الملك الأول، وبدأ دعوته إلى الله من موقع السلطة الحاكمة، ونفذ تدبير الله تعالى وقضى أمره [1].

والقصة تبدأ برؤيا، وتنتهي بتعبير هذه الرؤيا!! .

المشهد الأول: يجسد لقاء يوسف بأبيه وما دار بينهما من حوار . ﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ

---

١ – المرجع السابق، ص١١٩ .

ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٤ – ٦].

وتبدأ قصة يوسف بهذه الرؤيا التي يحكيها لأبيه يعقوب عليه السلام، فيحس يعقوب من رؤيا ابنه أنه سيكون له شأن ومكانة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، ولكن يحذره أن يحكيها لإخوته فيكيدون له [1] ولهذا جاء في بعض الآثار: " استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود" [2].

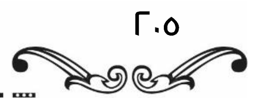
وينتهي مشهد الحوار بين يوسف وأبيه.

المشهد الثاني حيث تُحاك فيه المؤامرة البشعة ضد يوسف عليه السلام من أقرب الناس إليه، من إخوته: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ

---

١ – قصص الأنبياء، لابن كثير، ص١٩٠–٢٠٧ بتصرف.

٢ – الكامل لابن عدي، الطبراني في الكبير، أبو نعيم في الحلية، البيهقي في شعب الإيمان، عن معاذ بن جبل.



مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧ — ١٠].

رغم استسلام يوسف لأمر أبيه وعدم إخباره إخوته عن رؤياه، إلا أنهم اجتمعوا معاً ليدبروا مؤامرة يتخلصون بها منه، فهم لا يحبون التصاقه بأبيه، وينكرون امتلاء قلب الأب به!! . واستقروا على إلقائه في البئر والتخلص منه.

ويبدأ **المشهد الثالث** . . . إذ يبدأ بالحوار بينهم وبين أبيهم، بعتاب خفي وإثارة للمشاعر: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [يوسف: ١١ — ١٤].

ثم يتم بذلك تنفيذ المؤامرة من خلال هذا **المشهد الرابع** المؤلم، فيصحبونه معهم إلى الصحراء، واختاروا بئراً ترفده القوافل، وهمّوا بإلقائه فيه، إلا أن الله أوحى إلى يوسف أنه ناج فلا يخف، وأنه سيلقاهم بعد يومهم هذا وينبئهم بما فعلوه، لكن تفصيلات أحداث المشهد لا يذكرها القرآن الكريم، بل تذوب ... لتنقلنا إلى مشهد آخر ... **المشهد الخامس** حيث ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً

يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٦ — ١٧].

وأدرك الأب أنهم يكذبون، وعبّر عن هذا بقوله: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

وتظهر حكمة هذا النبي يعقوب ﷺ، في أنه يسأل الله الصبر الجميل، والاستعانة به تعالى على جريمتهم بحق أخيهم، وينتهي مشهد الإخوة مع أبيهم . . لتُسلط الأضواء على البئر الذي أُلقي فيها يوسف في **المشهد السادس** . . وشاءت الأقدار أن تمر قافلة في طريقها إلى مصر، فتتجه إلى البئر للتزود بالماء، فَأَدْلَوْا دلوهم، فتعلق به يوسف، فلما رآه ذلك الرجل قال: يا بشرى**!!** فكان أول سلّم يصعده في طريقه إلى المجد . . ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

وبذلك يكشف الله تعالى مضمون القصة البعيدة في بدايتها، لقد انطبقت جدران العبودية على يوسف، أُلقي في البئر، أهين، حرم من أبيه، التقط من البئر، صار عبداً يباع في السواق، اشتراه رجل من مصر، صار مملوكاً لهذا

الرجل، وانطلقت المأساة، وصار يوسف بلا حول ولا قوة إلا بالله [1]، فما دام الله معه، فستكون له القوة والسلطة والمجد بإذنه تعالى، إن الله غالب على أمره، ينفذ تدبيره رغم تدبير الآخرين، فيتحقق وعد الله، وقد وعد الله يوسف بالنبوة، وها هو يلقى محبة من صاحبه الذي اشتراه، وها هو السيد يقول لزوجته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١]، وبذلك تنتقل حياته من الجبّ إلى العزّ في بيت العزيز في مصر، إذ نشأ يوسف عليه السلام على تقوى الله وطاعته، وحسن الخلق، فأعطاه الله الجمال والعلم، فكان قمة للعفة والأمانة والطهر، وعنه قال رسول الله ﷺ : **" إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم صلوات الله عليهم وسلامه"** [2] .

نشأ في بيت العزيز غلاماً مكرماً عزيزاً لما تحلى به من طاعة وولاء لسيده وأهل بيته، وقد ذكر القرآن الكريم (امرأة العزيز) بهذا الاسم، إلا أن

---

١ - أنبياء الله، أحمد بهجت، ص١٢٤-١٢٥ بتصرف .

٢ - أخرجه البخاري، كتاب : الأنبياء، باب : قوله تعالى :﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ ﴾ [يوسف: ٧] ، رقم (٣٢١٠).

الروايات تناقلت اسمها وعرفت بأنها (زليخا) [1]، وجاء ذكرها في القرآن الكريم في معرض قصة نبي من أنبياء الله الكرام، لتسجل في صفحات القرآن المجيد (قصة الصراع) بين (الفضيلة والرذيلة)، ولتصورها مثالاً لصراع الغريزة عند النساء، كما تجسد شخصية يوسف ﷺ مثالاً للعفة والطهارة والاعتصام بالله تعالى .

فكانت قصتها مع النبي يوسف ﷺ عبرة لمن يعتبر من النساء، ومثالاً لضرورة محاربة النفس عند جنوحها إلى مهاوي الشر والرذيلة .

وتبدأ حلقة جديدة في حياة يوسف ﷺ حينما يبلغ مبلغ الرجال، وتراوده التي هو في بيتها عن نفسه، وبهذا يبدأ المشهد الهام في حياة طهر وعفة يوسف من قصته مع امرأة العزيز . . فتشير القصة إلى **المشهد السابع**، حيث يسلط الله الأضواء على امرأة خرجت عن طبيعة الأنثى في عفتها وحيائها، مندفعة وراء الشهوة والغرائز الحيوانية التي تملكتها وسيطرت عليها، ناسية

---

١ - للتفصيل في موضوع امرأة العزيز في قصة يوسف اطلعنا على المراجع التالية: قصص الأنبياء لابن كثير، ص١٩٠، وتفسير القرطبي، ص١٦٥، وتفسير ابن كثير، ص٤٧٤، وتفسير الطبري: ١٣/ ٦٤، والدر المنثور للسيوطي:٤/ ٥٩١، والبداية والنهاية: ١/ ١٩٠ والتصوير الفني في القرآن لسيد قطب، ص١٦٧، وقصص الأنبياء والمرسلين للشعراوي، ص١٧١، وقصص القرآن لمحمد احمد جاد المولى وآخرون، ص٧٦، القصص القرآني لفضل حسن عباس، ص٣٩٨، المكتبة الثقافية بيروت، وقصص الأنبياء للثعالبي، ص١٠٨ .

الخوف من الله تعالى، مطيعة وسوسة الشيطان الرجيم، كما تعرض القصة شخصية يوسف، والتي تملأ نفسه خشية من الله، فيصدها عن سبيله:

١- بطاعة الله تعالى، ٢- وولاء لسيده .

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٢٣ — ٢٩] .

ففي هذه الآيات يتصاعد الحدث وينمو بتفاعل الشخصيات الرئيسية مع عناصر القصة من زمان ومكان وحدث وحوار .

فالمكان هو بيت العزيز الذي ضمه وحواه وانتشله من الضياع إلى الأمان .

والزمان هو فترة تغيّب العزيز عن بيته، انصرافاً في شؤون الدولة، إذ كان وزير مصر والقائم على خزائن الدولة .

ويبدأ الحدث بمراودة امرأة العزيز يوسف عليه السلام عن نفسه، وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي ذات الجمال والمال والمنصب، وغلّقت الأبواب عليهما، وتهيّأت له وتصنعت، ولبست أحسن الثياب وأفخرها، ومع أن يوسف عليه السلام شاب فتي بديع الجمال والبهاء، في مقتبل العمر، لكن لم تهزّه الشهوة وتأخذه وتنسِه ربه، إذ أنه نبي من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه من مكر النساء [1] .

فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء، في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء: " **سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منها حتى يعود إليه، ورجل تصدق**

---

١ - قصص الأنبياء، ابن كثير، ص١٩٤ .



بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله"[1] .

لقد طال عليها الأمد بالتلميح، واستنفذت جميع أساليب التعريض والتلميح، ولم يعد أمامها لكي تصل إلى مرادها إلا التصريح، فقامت بتغليق الأبواب، ودعت يوسف إلى نفسها قائلة: هيت لك، وبذلك لجأت بهذه العبارة الواضحة الأبعاد والإحساس، للتصريح برغبتها واندفاع غرائزها، وغلّقت الأبواب، دليل على إصرارها على الفاحشة ولفتها النظر ليوسف إلى ما تريد منه لتهييء الجو للمعصية .

لكنه مع ذلك يُعرض عنها، علّها تعود إلى رشدها وتخاف الله رب العالمين.

وما أبدع قول الإمام القشيري في التعبير بإحساسه عن تصوير هذا الموقف في قوله: (ولما غلقت عليه أبواب المسكن، فتح الله له باب العصمة، فلم يضره ما أُغْلق بعد إكرامه بما فُتح) [2] .

---

١ – رواه البخاري في صحيحه كتاب : الزكاة، باب : الصدقة باليمين، رقم (١٣٥٧)، (٨١/ ٢٤)، (٨٦/ ١٩)،ومسلم كتاب : الزكاة، باب : فضل إخفاء الصدقة، رقم (٢٤٢٧) .

٢ – لطائف الإشارات، الإمام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري القشيري الشافعي، ط دار الكتاب العربي القاهرة، بدون تاريخ، ٣/ ١٧٧ .

إن المرأة في هذا المشهد تسعى إلى نمو الحدث وتفعيله بينها وبين يوسف من حيث الشكل والمضمون، من حيث البنية الفنية للقصة لتطور الحدث للوصول إلى الصراع، فالعقدة، فلحظة التنوير، بغية الوصول إلى خاتمة تتحقّق فيها العبرة والدرس العظيم من هذه القصة القرآنية، كما حققت تطوراً حاسماً في مضمون الحدث، فقد وصلت بعرضها وطلبها إلى قمة الحدث، حيث أصبح الطلب مكشوفاً، ويُعرف وضوح طلبها وإصرارها على الفاحشة في قولها: " هيت لك"، كانت إجابته قاطعة وحاسمة لإنهاء الحدث في قوله: " معاذ الله!!" وبذلك لا يجحد بما أنعم الله عليه من نعم كثيرة في حياته عامة، وفي محنه خاصة، وقد فضل الله عليه أن منحه (العلم والحُكم)، ووضعه في صفوف الأنبياء الصالحين، فكيف يعصي ربه؟! بل كيف يخون سيده الذي منحه الحب والأمان؟! وهو العبد المملوك، لم يُشعره بمعنى العبودية، بل اتخذه ولداً، وطلب من زوجه أن تكرم مثواه!! إنه بذلك يجحد بفضل ربه، ويتبع أهواء الشيطان، فحاشا لله أن يكون من الظالمين: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[يوسف: ٢٣].

فيصرّ على عدم عصيان ربه، ولا ينوي العزم في الأمور معها، وهو الذي كرمه الله فأعده إعداداً خاصاً يتناسب وشرف النبوة، ويبدأ الصراع بينه

وبينها، ويتصعد مع نمو الأحداث، فهي تثأر لأنوثتها، فتسعى للانتقام منه، ولكن دون هلاكه فهي أسيرة حُبِّهِ .

أما هو ﷺ فكان يتصدى لها ولمكايدها بطاعة الله والاعتصام بحبله، فمن يكن مع الله كان الله حسبه .

لقد دعته بكل الطرق والحيل، وحبكت خيوط المؤامرة وهي المرأة الجميلة، ويوسف في عنفوان شبابه، إلا أنه أبى الحرام واعتصم بالله تعالى، فعصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه منها، وهرب منها طالباً الباب ليخرج منه فراراً من المعصية، فاتبعته في أثره، محاولة التمكن منه، وهنا شقت قميصه من دبره، (لأن يوسف كان هو الهارب، والمرأة هي الطالبة) .

وتكون المفاجأة ويبدأ **المشهد الثامن** حيث تظهر شخصيات أخرى تساعد على تحريك الحدث وتحقيق الصراع فيه، ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، ويُفتح الباب ويدهش الزوج مما رآه!! وهنا يظهر كيد المرأة، فتتهم الفتى، ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾، ولكنها امرأة تعشق، فهي تخشى عليه الردى، فتشير بالعقاب المأمون: ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، لقد اتهمته وهي المُتَّهَمَة!! لكن يوسف يجيب بصدق: " هي راودتني عن نفسي"، ويستشهد بقميصه المقدود من الخلف، ويجد من يؤيده في

استشهاده، وقيل في الشاهد: (أنه كان صغيراً في المهد، قاله ابن عباس، وروي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك واختاره ابن جرير، وروى فيه حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس، ووقفه غيره .

وقيل: كان رجلاً قريباً إلى بعلها، وقيل: قريباً إليها، وممن قال أنه كان رجلاً ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدي ومحمد ابن إسحاق وزيد بن أسلم) [1] والله أعلم .

وكان تأويل الشاهد: ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدّت مَقْدَم قميصه ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت به فانشق قميصه لذلك، ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أي هذا الذي جرى من مكركن، أنت التي راودتيه عن نفسه، ثم اتهمتيه بالباطل .

---

١ – ورد في قصص القرآن لابن كثير ص١٥٩ .

ثم أضرب بعلها عن هذا صفحاً فقال: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾، فطلب من يوسف أن لا يذكره لأحد، وأدرك الزوج خيانة زوجته، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها والتوبة إلى ربها، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه .

وحول هذه الآية الكريمة التي تجسد دور المرأة واضحاً ومهماً في نمو الحدث وتفاعله، كما عليه الرجل أيضاً، جرت آراء كثيرة حول ذلك: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾

اتفق المفسرون: حول همها هي بالمعصية .

واختلفوا: حول همه هو بها: (والله أعلم بتأويل كتابه، وأشد تعظيماً الأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم) .

ويقول القرطبي في تفسيره [1]: (قال الحسن: إن الله عز وجل لم يذكر معاصي الأنبياء ليعيرهم بها، ولكنه ذكرها لئلا ييئسوا من التوبة، مع أن لزلة الأنبياء حِكَماً، زيادة الوجل [2]، وشدة الحياء بالخجل، والتخلي عن عجب العمل، والتلذذ بنعمة العفو بَعْدَ الأمل، وكونهُمُ أئمةَ رجاءِ أَهْلِ الزَّلَل) .

---

١ – تفسير القرطبي، ص١٦٨ .

٢ – الوجل: شدة الخوف .

وقال القشيري أبو نصر: (وقال قوم جرى من يوسف همّ، وكان ذلك حركة طَبْعٍ من غير تصميم للعَقْدِ على الفعل، وما كان من هذا القبيل لا يؤاخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد، وتناول الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمم عزمه على الأكل والشراب، لا يؤاخذ بما هجس في النفس، والبرهان عن هذا صرفه عن هذا الهمّ حتى لم يصر عزماً مصمماً) [1] .

قلت: هذا قول حسن، وممن قال به الحسن، قال ابن عطية: الذي أقول به هذه الآية إن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة لم يصح، ولا تظاهرات به رواية، وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتي حُكْماً وعِلْماً، ويجوز عليه الهمّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته، وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهمّ الذي هو خاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حلّ تكته ونحوه، لأن العصمة مع النبوة، وما روي من أنه قيل له: " وتكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء" فإن معناه العدة بالنبوة فيما بعد .

---

١ - تفسير القرطبي، ص١٦٨ .



قلت: ما ذكره من التفصيل صحيح، لكن قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ يدل على أنه كان نبياً على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء، وإن كان نبياً فلم يبقَ إلا أن يكون الهمّ الي هم به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر، وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لا قدرة للمكلّف على دفعه، ويكون قوله: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ إن كان من قول يوسف أي من هذا الهمّ، ويكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف لمخالفة النفس لما زكّى به قبل وبرأ، وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾، على ما تقدم بيانه، وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق، فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله، فما تعرّض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفرّ منها، حكمة خُص بها، وعملاً بمقتضى ما علّمه الله" [1] .

---

١ - المرجع السابق، ص١٦٨ .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " **قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة، وهو أبصر به، فقال: ارقبوه، فإذا عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جَرّاي (١)** " [2] .

وفي الصحيح: " **إن الله تجاوز لأمتي عما حدّثت به نفسها ما لم تعمل أو تكلّم به**" وقد تقدم [3] .

قال ابن العربي: كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية – وأيّ إمام- يعرف بابن عطاء! تكلم يوماً على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نُسب إليه من مكروه، فقام رجل من آخر مجلسه فقال: يا شيخ! يا سيدنا! فإذاً يوسف همّ وما تم؟ قال: نعم، لأن العناية من ثَم، فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم، وانظر إلى فطنة العامي في سؤاله، وجواب العالم في اختصاره واستيفائه، ولذلك قال علماء الصوفية: إن فائدة قوله: ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سبباً للعصمة .

---

١ – جرّاي: أي من أجلي .

٢ – رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب : الإيمان، باب : إذا همَّ العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، رقم (٣٥٢) .

٣ – رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، والطبراني، ورواه الطبراني في الكبير عن عمران بن حصين .

وللعلماء في " برهان ربه" آراء يذكرها القرطبي في تفسيره: وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، والجواب محذوف لعلم السامع، أي لكان ما كان!! .

وهذا البرهان غير مذكور في القرآن، فروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن زليخا قامت إلى صنم مكلل بالدرّ والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة، فقال يوسف: أنا أولى أن أستحي من الله، وهذا أحسن ما قيل فيه، لأن فيه إقامة الدليل، وقيل: رأى مكتوباً في سقف البيت: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال ابن عباس: بدت كفّ مكتوبٌ عليها: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴾ [الانفطار: ١٠]، وقال قوم: تذكر عهد الله وميثاقه .

وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أنملته يتوعده، فسكن، وخرجت شهوته من أنامله .

وبالجملة فذلك البرهان آية من آيات الله تعالى، أراها الله يوسف حتى قوي إيمانه، وامتنع عن المعصية) [1] .

---

١ – تفسير القرطبي، ص١٦٩ .

ولكننا نؤكد على براءة يوسف ، كما أكد الشهود على نزاهته وطهره، وخير شهادة وأكبرها وأعظمها شهادة الله ببراءته، حيث قال: ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾، كما شهدت المرأة نفسها بعد ذلك على براءته عندما رجعت إلى ربها .

وشهادة نسوة المدينة اللاتي جمعتهن امرأة العزيز لتكيد بهن فقلن: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴾ ،﴿ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾، أو شهادة شاهد من أهلها، أو شهادة قريب له، أو شهادة طفل معجزة أنطقه الله بالحق .

لذا فتفسيرهم باطل وفيه إجحاف وظلم في حق يوسف ، إذ همّ لكنه لم يفعل .

إننا نرى أن (الهم) هو (الميل)، وهذا أميل إلى الصواب مع نبي الله الذي عصمه الله من السوء والفحشاء، وقد فسر الهم بالميل بعض المفسرين، ونؤيد رأيهم بذلك .

إن أي فعل من الأفعال قبل أن يقع يمر في النفس، وهناك خمس مراتب يمر بها الفعل، وهذه المراتب هي: الهاجس، والخاطر، وحديث النفس، والهمّ، والعزم [1] .

أما الهاجس والخاطر، وهما أول ما يطرأ على النفس، ثم يأتي حديث النفس، وذلك حينما يتم الأمر، فيحدث به الإنسان نفسه، فإما أن يرفضه وينتهي الأمر، وإما أن يقبله فعندها يسمى (هماً)، والمراحل الأربع ليس عليها مؤاخذة من الله تعالى .

أما الهم: فلأن النبي ﷺ يقول في حديثه: **" فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعلمها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة"** [2] .

تبقى المرحلة الأخيرة وهي العزم، وهذه المرحلة الأخيرة هي التي يحاسب عليها الإنسان فقط، العزم على الفعل، إنها النية، وقد فسّرت بها الآية

---

١ – القصص القرآني، إيحاؤه ونفحاته، د . فضل حسن عباس، ص٤٠٠ بتصرف .

٢ – رواه البخاري في كتاب: الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة، رقم: (٦١٢٦)، ورواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، رقم: (١٣١) .

الكريمة: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، ويوسف عليه السلام لم يكن منه هذا العزم، وإنما الذي كان منه هو الهم فقط .

ولكن قد ينفي آخرون عن النبي عليه السلام أن يكون منه الهم هذا، وآخرون لهم رأي آخر يردون على ذلك، (بأن النبي عليه السلام بشر ومتكامل الرجولة، وقد وُجد في ظروف مواتية لاختبار رجولته، فلا أعظم عند الله من امتناعه رغم كل هذه الظروف والموجبات، فهو غالب كل ذلك، وقال إني أخاف الله رب العالمين، فلو لم يكن منه الهم لكان عديم الحاجة إلى النساء، إن هناك فرقاً كبيراً بين من يترك الشهوة خشية الله، وبين من تتركه هذه الشهوة، لعجز في نفسه) [1] .

أما لو لم يكن عنده هذا الميل لما كان جهاد النفس في طاعة الله في مثل هذا الموقف .

في هذا المقام يحضرني قول رسولنا الكريم ﷺ : **" ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلَحت صلَح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"** [2].

---

١ – القصص القرآني، د . فضل حسن عباس، ص٤٠٠ (مرجع سابق)

٢ – جزء من حديث: " إن الحلال بين وإن الحرام بين"، متفق عليه عند البخاري ومسلم .




فالهدى والضلال، لا يجتمعان في قلب واحد، فإذا امتلأ القلب بنوره الكريم وبطاعته، فيكون الله قد فضل على عباده بذلك، إذ ينفر القلب من أي معصية، ومن صلح قلبه تصلح عينه فتنفر من رؤية الفحشاء والمنكر، ومن صلح قلبه تنفر أذنه من سماع الفحش والدعوة للمعصية، ومن صلح قلبه صلَح جسده وصلحت روحه، وصلحت نواياه وأفعاله .

فالقلب الذي تنوّر بالإخلاص لا مكان فيه لظلمات السوء والفحشاء، فهو قلب مشغول بطاعة الله، ولا يعرف الأغراض الدنيوية، وهذه شهادة من الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] ، فيقف بينه وبين المعصية حاجز كبير متين في قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾، إن خشية الله تعالى تمنعه من العزم في أي أمر .

وجاء على لسان إبليس -قاتله الله- اعترافه بضعفه وهزيمته أما الصالحين، ويشهد ببراءة يوسف عليه السلام وأمثاله من الصالحين والمخلصين لله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢ — ٨٣] .

وبذلك يكون يوسف عليه السلام أسوةً حسنة لمن يجد في نفسه الشهوة والنزعات الحيوانية، وتتغلب عليها مخافة الله .

أما برهان ربه الذي رآه، فهو ما أودعه الله تعالى في قلبه من الخشية مما منّ عليه به من مراقبته، ومن هنا كان من المخْلصين الذي اسُتخلصوا من الصفوة المختارة، (ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين) [1] .

وهنا تظهر شخصيات ثانوية " نسوة المدينة"، تساهم في عرض هذا المشهد **المشهد التاسع**، ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ

---

١ - الكشاف للزمخشري، للإمام محمود بن عمر، ط دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ١٤٠٦هـ: ٢/ ٤٥٦ .

إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٠ – ٣٤].

في هذه الآيات يتبين لنا اسم المرأة هي " امرأة العزيز" وأن الرجل الذي اشتراه هو عزيز مصر، وكبير وزرائها .

وفي هذا المشهد يذكر الله تعالى ما كان من قبل نساء المدينة في الطعن على امرأة العزيز، والتشنيع عليها في مراودتها فتاها، وحبها الشديد له، وهو لا يساوي هذا، وهو مَوْلى من الموالي، وليس أهلاً لذلك [1]، ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ .

فلما سمعت بتشنيعهن عليها والتنقص من قدرها، وتعييرها بمولاها وعشقها له، أحبت أن تبسط عذرها عندهن، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن، فأرسلت إليه فجمعتهن في منزلها، وأعدّت لهن متكأ وفاكهة ونحوه، وآتت كل واحدة منهن سكيناً، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام، وأمرته بالخروج عليهن، فلما رأينه أعظمنه وأجللنه وقلن: ما نظن أن يكون مثل هذا بشراً، وبُهرهن بحسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحززن في أيديهن

١ – أنبياء الله، أحمد بهجت، ص١٣٢ .

بتلك السكاكين، ولا يشعرن بالجرح، وقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[1] .

وقد جاء في حديث الإسراء: " **فمررت بيوسف وإذا هو قد أُعطي شطرَ الحسن** "[2]، قال السهيلي وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحسن البشري، ولهذا يدخل أهل الجنةِ الجنةَ على طول آدم وحسنه، ويوسف كان على النصف من حسن آدم، ولم يكن بينهما أحسن منهما، كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام .

لقد انتصرت امرأة العزيز على النسوة، عندما رأت منهن ما رأت، وجرى عليهن ما جرى من تقطيع أيديهن وما ركبهن من المهابة، والدهشة عند رؤيته ومعاينته، ومدحته بالعصمة فقالت: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي امتنع، ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[يوسف: ٣٢] .

---

١ – تفسير ابن كثير، ص٤٧٦ .

٢ – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب : الإيمان، باب الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلاة، رقم (٤٢٩) .

وما كان من بقية النساء إلا أن حرضنه على السمع والطاعة لسيدته، فأبى أشد الإباء، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣]، فإن وَكَلْتَنِي إلى نفسي فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فيعترف بضعفه أمام الله تعالى وأنه لا يقويه إلا الله، ولا يعصمه ولا يحفظه إلا الله، إن السجن على وحشته أروح على نفسي من مجاهدة الباطل مع هؤلاء النسوة، في السجن أصبر على بلائك وأزيد إيماناً بقضائك، وفيه أعدّ نفسي لإقامة الحق .

فاستجاب الله له، وأدخله السجن، فجعل له الأسباب، وذلك بسبب شكوى امرأة العزيز التي قالت لزوجها: (إن هذا العبد العبراني فضحني في الناس وأخبرهم أني راودته على نفسه، ولست أطيق أن أعتذر بعذر، فإما أن تأذن لي لأخرج فأعتذر، وإما أن تحبسه، فما كان من العزيز إلا أن أمر بحبسه بعد علمه ببراءته، وذلك دفعاً للتهمة عن امرأته) [1] .

---

١ – قصص الأنبياء، للنيسابوري أبي إسحاق، ص١٠٨ .

هكذا نجد امرأة العزيز تنقلنا من مشهد إلى مشهد في أحداث القصة، فهي العنصر المحرك في فعلها وإصرارها المستمر بقولها: لئن لم يفعل ليسجنن، وهي التي جعلت يوسف عليه السلام متحركاً حين حاصرته من كل جانب .

ونواصل المسيرة معها ومع النبي يوسف عليه السلام، لنصل إلى حياته في السجن، هذا المشهد المأساوي في السجن كان **المشهد العاشر** من أحداث قصة يوسف، ورغم ما للسجن من قسوة، وما فيه من عزلة إلا أن أمثال يوسف عليه السلام ممن يحملون العقيدة السليمة والمبدأ القويم يجدون فيه راحتهم لنشر أفكارهم وعقائدهم .

وهكذا كان يوسف عليه السلام حيث رأى فيه نزلاء السجن من الصفات الخيرة، ما جعله موضع حبهم وتقديرهم، فمكث في السجن يواسي المحزونين وينصح الأشقياء، ويدعوهم إلى الخير، وشاع عنه تأويل الرؤيا وتعبيرها، وهو علم لا يطلع عليه ويفقه به إلا أصحاب القلوب الطاهرة النّيرة، ولقد أكرمه الله بمعرفة هذا العلم، كما كان يدعو إلى دين التوحيد، وذم عبادة ما سوى الله عز وجل، وصغر أمر الأوثان وحقرها وضعف أمرها، ونشر فيضاً من علمه وقبساً من فضله .

ثم شاءت العناية الإلهية أن يخرج من السجن، بعد أن مكث فيه دهراً، لكن خرج بعد كل هذه المحن الذي ابتلي بها، والمصايد التي نصبت له من محنة

كيد الإخوة، إلى محنة الاسترقاق، إلى محنة المراودة، إلى محنة السجن التي أعقبها الفرج والرخاء، وخرج منها عفيف النفس طاهر الروح .

لقد دخل الرجل الحصيف السجن ظلماً، وإنه لن يأمن إذا خرج أن يُردَّ ظلماً كما دخل أول مرة، فوجد الفرصة مناسبة للحصول على الضمان والبراءة لخروجه، إن يوسف كبر عليه أن يخرج من السجن وعليه سمة المجرمين الخائنين، ليقف أمام الملك، فأراد ألا يخرج من السجن إلا وهو ثابت البراءة مرفوع الرأس أبيض الصحيفة، فذكر الحادثة على وجهها وأنه بريء منها، وأن الجانية إنما هي امرأة العزيز التي بهتته في وجهه، وأن الإشاعة في البلد كانت أن امرأة العزيز راودته عن نفسه، وآية ذلك: النسوة اللاتي قطعن أيديهن، فإنها لما سمعت أنهن لائمات لها دعتهن إلى دارها، وقطعن أيديهن لما رأينه، وراودته عن نفسه أيضاً لها ولأنفسهن، وأن امرأة العزيز أقرت أمامهن قائلة على الملأ منهن: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف: ٣٢]، وبذلك نفذت وعيدها بإلقائه في السجن [1]، وهو بريء مما

---

١ – قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص١٢٩، ط مكتبة دار التراث .

يستوجب سجنه، وشهادتهن بما سمعنه من امرأة العزيز برهان براءته وتثبيت قوله .

وننتقل إلى **المشهد الحادي عشر** ليجسد الاستفتاء الذي حقّق فيه الملك بين النسوة، ليصل إلى براءة يوسف، فأحضرهن الملك، وسألهن عن شأنهن في ذلك اليوم الذي راودت فيه يوسف عن نفسه، فكان جوابهن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ .

وقالت امرأة العزيز بعدما عادت إلى رشدها وأنابت إلى ربها: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥١ – ٥٣]، اعترفت بذنبها، والمعترف بالذنب كمن لا ذنب به، وأعلنت أن نفسها هي عدوها الأول، أمرتها بالفاحشة [1]، ثم جاء الشيطان ليزين لها ما تهوى، فكانت أسيرة شهوتها .

---

١ – تنبيه الغافلين، نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي ص٢٢٧ .



ولما آمنت بالله وحده تزوجت به عليه السلام، ثم انفردت عنه، وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى العزيز الجبار [1].

ويروى أنه وجدها عذراء، فأصابها فولدت له رجلين، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام والله أعلم .

وتنتهي القصة **بالمشهد الأخير** في حياة يوسف عليه السلام، ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴾ [يوسف: ٥٤]، ويأنس يوسف من نفسه رشداً، فيطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض فهو حفيظ عليم، (فمن كان أميناً على الأعراض، فهو أولى أن يكون أميناً على الأموال وخزائن الأرض) [2].

وشاءت العناية الإلهية أن يتربع أعلى المناصب الدنيوية بعد مسيرة المحن الصعبة، من كيد الإخوة، إلى الإلقاء في البئر، إلى محنة الاسترقاق وبيعه في الأسواق، ومحنة المراودة وهي أعظم المحن وأشدها فتنة، ثم محنة السجن، وهي محنة شاقة وعصيبة، وبعد هذا الثبات والصبر والابتلاء يكرّم الله عبده

---

١ – مكاشفة القلوب، للإمام محمد الغزالي ص٤١ .

٢ – التذوق الجمالي لسورة يوسف، محمد علي ابو حمد، ط دار البشير، عمان ص١، ١٤٠٥هـ، ص٨٤ .

ونبيه، بالتمكين في الأرض، فيختاره الملك ليكون قائماً على خزائن الأرض، لما رأى من عفته وأمانته وصدقه وعلمه، لما يرضي الله .

فكان في عداد أنبياء الله تعالى، وآتاه الله الحُكم والعلم، فالحكم هو النبوة، والعلم هو ثمرات النبوة، فكان له الشأن العظيم في الدنيا والآخرة، وتتم النعمة على يوسف عليه السلام بعد ذلك بلقاء الأهل واجتماع الشمل، فيكون مشهداً استثنائياً وبذلك تتحقق رؤياه التي بدأ بها قصته ومشوار محنته، فتتحقق رؤياه ويتحقق قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقد حصدنا بعد هذه الأحداث في قصة يوسف عامة، والمشهد الهام في قصته مع امرأة العزيز خاصة، كثيراً من العبر والدروس المستفادة نذكر منها:

١- **العفة والصبر**، الصبر على محنة العفاف، في زمن تسلط الأضواء على المغريات الدنيوية، ويزين الشيطان سبل الفساد أمام الشباب، لتكون هذه السورة درساً بليغاً في العفة، فها هي المرأة تلعب في القصة القرآنية دور الإنسان الذي جرفته شهواته وغرائزه، فاستسلم لها وانقاد مطواعاً دون أن يمنعه من ذلك وازع ديني أو اجتماعي أو داخلي، بينما يوسف عليه السلام مثّل لنا القدوة الحسنة للصبر والعفاف والطهارة أمام كل وسائل الشر والفساد والإغواء، لكن من مُلِئَ قلبه بنور الإيمان لم يجد ظلامُ الفحشاء طريقاً إلى قلبه،

فلْنَسْمُ بغرائزنا الإنسانية التي فطرنا الله عليها، ليرفع من قيمة الإنسان أمام حيوانية الغريزة، ولنجعلها في إطار عمل مشروع وشرعي تُبْارَك بالحلال، ويأخذ المرء جزاء من الله عليها في الدنيا والآخرة، فإن الله تعالى لم يجعل شهوة الإنسان في حرام، إلا وله مثلها في حلال، مع أن الشهوة الحلال يُؤْجَر عليها بدليل الحديث الصحيح: قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال:**" أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر"** [1] لذا دعانا الله تعالى للتأسي بمدرسة يوسف عليه السلام في طهره وصبره على تحمل قساوة العيش في السجن، ودخوله مظلوماً على أن يرتكب الفاحشة .

٢- **العدل في الحكم والمساواة حتى ولو كان على نفسه وأهله،** فكم من الظلم تحمّل يوسف عليه السلام في محنته بالسجن، فَظُلْمٌ أن يُطْلَق المجرم سراحه، ويسجن البريء، ويتهم بشرفه وعرضه وخلقه قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النساء: ١٣٥].

---

١ – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب : الزكاة، باب : بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (٢٣٧٦) .

فهذه دعوة من الله تعالى لكل من تسوّل له نفسه أن يظلم، فتدعوه هذه الآية للعدل في حكمه، ولو كان على نفسه وأهله، فقد ظُلم يوسف ﷺ، وكيد له من امرأة العزيز، وكانت النتيجة أن وضع أمام خيارين، إما المعصية وإما السجن، ففضّل قسوة السجن على ارتكاب المعصية، فرعاه الله تعالى إلى أن ثبتت براءته، وهنا قد نتساءل لو أن العزيز كان له موقف حاسم من حزم وغيرة على زوجه، هل كان تصرفه ظالماً، وهل نرى يوسف في السجن مظلوماً، رغم براءته وأمانته وعفته ووفائه له، إن العزيز كان ضعيفاً أمام المرأة التي خانته، ولم نر منه موقفاً يحفظ كرامته ومروءته، بل كان همه أن يطوي الأمر حتى لا تنتشر الفضيحة وهو صاحب المركز والجاه في الدولة .

إن موقفه المتهاون الذي يدل على ضعف في غيرته أو ربما فرط في حبه لزوجته جعله ينقاد وراء رأيها بسجن يوسف ﷺ، فكان مُقدّراً على يوسف ﷺ، لذا كان أحب إلى نفسه، من ارتكاب الفاحشة ومعصية الله تعالى .

٣- **الهوى:** قال ابن الجوزي فيه: (قال الشعبي: إنما سمي الهوى، لأنه يهوي بصاحبه) [1]، وصاحب الهوى لا يرى إلا الهوى فيسيطر عليه ويعمي

---

١ - ذم الهوى، ابن الجوزي، ط دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ص١٦ .

بصيرته، قال ﷺ : " حبك الشيء يُعمي ويُصم" [1]، ويقول ﷺ : **" ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فهوى متّبع، وشحّ مطاع، وإعجاب المرء بنفسه"** [2]، فنجد امرأة العزيز ملك عليها هواها فعماها عن الإبصار بنور الحق، فسلكت غواية الشيطان، وأطاعت نفسها وغرائزها واندفعت وراءها إلى الهاوية، إلى أن هداها الله إلى نوره، فنراها هدأت نفسها، وتوازنت شخصيتها، فتابت إلى الله ولجأت لعبادته، فُقبلت منها توبتها، فالله غفور رحيم بالعباد، وكافأها بالزواج منه عليه السلام .

٤- **الدعاء:** فهو مخ العبادة، واللجوء إلى الله تعالى في السراء والضراء، هو قمة العبادة، وها هو القرآن الكريم في قصته يحدثنا عن محنته، ولكننا لم نسمع كلمة واحدة في سجنه تبين ضيق نفسه أو يأسه، بل سمعنا

---

١ - رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي الدرداء، ٥/ ١٩٤، ورواه الإمام أبو داود في السنن عن باب في الهوى، حديث: (٥١٣٠)، ٤/ ٣٣٤ .

٢ - أخرجه البزار في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، (كشف الأستار عن زوائد البزار)، حديث ٨٠، ١/ ٥٩، ورواه أبو نعيم في الحلية عنه ٢/ ٣٤٣، (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الأصفهاني، مطبعة الأنوار المحمدية) وكذلك أخرجه عن ابن عباس: ٣/ ٢١٩ .

تضرعاً وصبراً واحتساباً، ولنستمع إليه وهو يناجي ربه: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾، ثم يشكر ربه، ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ .

وهذا يذكرنا بقوله ﷺ : **" عجبت من قضاء الله للمؤمن، إن أمر المؤمن كله خير، وليس ذلك إلا المؤمن، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له"** [1] .

تدعونا القصة أيضاً إلى التوازن بين الروح والجسد، وإن تغلب القوة الروحية (المتمثلة في العلم والحكمة والإحسان والإدراك الواعي والقلب السليم والنفس الطاهرة) على الجسد وغرائزه، إنما هو ثمرة من ثمرات النبوة وقبساتها .

فعلينا أن نقتدي بنفحات الأنبياء صلوات الله عليهم، وليكونوا قدوة وأسوة حسنة لنا، وأن نستعيذ بالله تعالى ونعتصم به في لحظات ضعف النفس البشرية، وأن نسمو بأنفسنا ويكون لنا خير معين .

---

١ – مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٦/ ١٥، عن صهيب ﷺ .




➢ المبحث الثاني

امرأة نوح ـ واغلة ـ

أبي البشر الثاني بعد آدم عليهما السلام

وأول الرسل إلى الأرض

((محنته مع الصبر))

نموذج للمرأة السلبية في القصة القرآنية

- التعريف بنوح نبي الله ﷺ : مثال رائع للصبر والثبات على الحق والحكمة والدعوة إلى الله تعالى .
- دعوة نوح ﷺ للتوحيد .
- موقف قومه من دعوته .

- **موقف ابنه كنعان من دعوة أبيه .**
- **موقف زوجه من دعوته .**
- **دور المرأة في قصة نوح .**
- **دروس وعبر في قصة نوح .**

قدم لنا القرآن الكريم في ثنايا قصصه نماذج رائعة عن المرأة الصالحة القانتة المطيعة لزوجها والمساندة له في السراء والضراء، فكان لها الدور الإيجابي الهام في نشر الدعوة الإسلامية .

كما قدّم لنا نماذج أخرى كان لها الدور السلبي في الحياة خاصة، وفي الدعوة الإسلامية عامة، مما كانت نماذج شريرة تدعو إلى الباطل، ولا تساند الحق في دين الله تعالى، فكانت نهايتها شنيعة وعبرة لمن اعتبر!! .

وقصة نوح عليه السلام تعرض لنا نموذجاً عن المرأة التي تنحرف عن طبيعتها ودورها الهام في مناصرة زوجها، ومؤازرته ودعمه أمام المصاعب والشدائد، إلى هاوية العصيان! فكيف بها لو كان زوجها نبياً وتعيش في بيت نبوة، يحمل رسالة سماوية طاهرة، لكنها رغم ذلك تخرج من هذا البيت ناكرة، جاحدة بدلاً من ولائها لزوجها وطاعتها لله تعالى، فتكون أكثر الناس عداء له، فتستحق العذاب وبئس المصير: ﴿ وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠] .

لذا كان لا بد من ذكر مقتطفات من حياة نوح عليه السلام لتحديد مكانة تلك الزوجة الكافرة، وأثرها في حياته وفي دعوته ورسالته .

ولكي نتعرف على صغر شأنها بعد أن كرّمها الله بأن جعلها زوجة لنبي، لكنها رفضت التكريم وعارضت دعوة زوجها، ولم تكتف بالمعارضة، بل أخذت تضلل من حولها، وبذلك تمزقت أواصر الأسرة وتفككت عراها، فخانت الله تعالى بالكفر، والفسوق الذي اعتنقته، وبعبادة الأوثان، وخانت زوجها بتكذيبها لرسالته ونبوته، ولن يشفع لها كونها زوجة نبي، فقد قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر: ٣٨] .

مرت عجلة الزمن على البشرية، ومن بعد آدم عليه السلام، فنسي الناس خالقهم وابتعدوا عن دين التوحيد، وتسرب الشرك إلى معتقداتهم، وأصبحوا يعبدون الأوثان من دون الله تعالى، (ففسد اعتقاد الناس، كما تسرب الخلل إلى سلوكهم، فقسم المجتمع إلى طبقتين، طبقة الأشراف وهم الأغنياء والكبراء، وطبقة الأراذل وهم الفقراء والضعفاء) [1] .

---

١ - للتوسع في القصة انظر المراجع والتفاسير التالية : تاريخ الطبري ١/ ١٨٣، وقصص الأنبياء لابن كثير،ص٨٨، وقصص الأنبياء للنجار، ص٦٩، والدر المنثور للسيوطي: ٨/ ٢٩٤، ومروج الذهب: ١/ ٥٢، وصحيح مسلم (٢٩٣٦) في الفتن، وأنبياء الله: أحمد بهجت، وقصص الأنبياء والمرسلين للشعراوي، ونظرات

فاختار الله تعالى نوحاً من بين أولئك القوم لينذرهم عذاب الله إذا تمادوا في غيّهم وضلّوا عن أمر ربهم، فقد كان أعظم إنسان في عصره، لم يكن ملكاً ولا رئيساً ولا غنياً، بل كانت عظمته في نقاء قلبه وطهر نفسه، وعقله الراجح الذي كان يحمل الأفكار والقدرة على تغيير قومه، وكان على الفطرة مؤمناً بالله تعالى قبل بعثته إلى الناس، إذ إن كل الأنبياء مؤمنون بالله تعالى قبل بعثهم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: ٣]، فكان يحمد ربه على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، وكان من أولي العزم من الرسل الذين أخذ الله عليهم الميثاق، كما اصطفاه الله تعالى على العالمين:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وهداه الله تعالى إلى الحق: ﴿وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ [الأنعام: ٨٤]، كما شهد له بالعبودية: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١]، ومنحه الله السلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:

تحليلية في القصة القرآنية: محمد مجذوب، وسمير المؤمنات وأنيس الصالحات لعبد الله بدران، ومحي الدين بوابيجي، دار الخير دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص١٨ .



٧٩]، وأرسله الله بدين الإسلام كما جاء على لسانه: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] [يونس: ٧٢] .

وهكذا أرسل الله نوحاً عليه السلام لينذر قومه من العذاب الأليم، ويردهم إلى دين التوحيد، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، فقال﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾[نوح: ٢ – ٣]، فأول ما بدأ بدعوته (تطهير قومه من الشرك والوثنية) ودعوتهم إلى دين الله والإيمان به وحده لا شريك له: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[الأعراف: ٥٩] .

تحرك القوم تجاه نوح باتجاهين: (الفقراء والضعفاء)، فلمست الدعوة قلوبهم بالرحمة فاستكانوا لها، ورجعوا إلى الله طائعين، واتجاه (الأغنياء والأقوياء والحكام والرؤساء) فقد شنوا حرباً ضد نوح عليه السلام .

---

١ – مدرسة الأنبياء، محمد بسام رشدي الزين، ص٢٤ .

وأول اتهامهم أنه بشر مثلهم، فكيف سيصغون إلى دعوته، فهو لا يمتاز عليهم بشيء، فسخروا منه ومن عقيدته، ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾[هود: ٢٧].

إن نوحاً لم ينكر ذلك وأكد لهم أنه بشر، وأن الله تعالى يرسل إلى الأرض رسولاً من البشر مثلهم، لكن الحرب استمرت بينه وبين الكافرين، ولم يلجأ إليه إلا الفقراء والضعفاء، فهاجموه وسخروا منه لأن أتباعه فقراء وضعفاء وأراذل، ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[هود: ٢٧].

وزاد الصراع حِدَّة بينه وبين رؤساء قومه، ولجأ الذين كفروا إلى المساومة معه بأن يطرد الضعفاء الذين آمنوا به، تقززاً من أن يجتمعوا معهم في دين واحد، ﴿ * قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾[الشعراء: ١١١]، رد عليهم نوح ﵇ بأنه لا يستطيع أن يطرد المؤمنين من رحمة الله، فهم ضيوف الله، والرحمة ليست بيته، بل بيت الله، وإنني رسول الله مبلغ وناصح لكم، ولا أريد منكم ثروة أو مالاً، وإنما أطلب أجري من الله العلي القدير، ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ




ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٢٩ – ٣٠].

وبذل نوح منتهى الجهد أن يتبعه قومه في الإيمان بالله تعالى وأن يتركوا عبادة الأوثان والأصنام، إلا أنهم لم يستجيبوا وطال الزمن في دعوته لهم!! ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤]، ولكن دون جدوى، فقلوبهم قاسية كالحجارة، وغشاوة الكفر عمت عيونهم عن الحقيقة، فتمادوا في غيّهم، فلجأ نوح بصبر ودون كلل لدعوتهم إلى دين الحق، فكان يدعوهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهراً، ويضرب لهم الأمثال، ويشرح لهم الآيات، ويبين لهم قدرة الله تعالى في كل ما يدور حولهم وفي أنفسهم، ودعاهم إلى الله تعالى، ففروا منه، وكلما دعاهم ليغفر الله لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستكبروا عن سماع كلمة الحق، فالحق صوته قوي، لكن لا جدوى من قومه، فيئس نوح ﷺ من هدايتهم، فحكى الله تعالى ما لقيه منهم:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ

وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ﴾ [نوح: ٥ – ٨].

فحزن نوح لأنه لاحظ أن عدد المؤمنين لا يزيد، بينما يزيد عدد الكافرين، واستمر في دعوتهم ومجادلتهم، وظل قومه على كبريائهم وكفرهم، فاشتد حزنه عليهم.

أوحى الله إليه ألا يحزن عليهم، ساعتها دعا نوح على الكافرين بالهلاك، قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]، برَّر نوح دعوته بقوله: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴾ [نوح: ٢٧]، لكن حتى دعاؤه على الكافرين لم يكن تشفياً إنما من أجل العقيدة.

قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٦ – ٣٧].

وبذلك يصدر الله تعالى حكمه على الكافرين بالطوفان، ويستجيب لدعائه.

أكد الله تعالى لنوح عليه السلام أنه سيصنع سفينة، فتكون أداة لنجاته هو ومن اتبعه، طبقاً لتوجيهاته وبمساعدة الملائكة، وأنه سيغرق الذين ظلموا مهما كانت مكانتهم أو قرابتهم للنبي، وينهاه أن يتوسط لهم .

وبدأت رحلة سيدنا نوح عليه السلام في الأرض، من زرع الأشجار ثم قطعها، ثم نجارتها، وانتظر سنوات وسنوات حتى كان له ذلك، فكانت سفينة عظيمة، (بقدرة الله تعالى) .

وبدأت سخرية قومه منه ومن سفينته التي سينجو بها ومن معه من العذاب النازل بهم، استبعاداً منهم لحدوثه، فكان هو أيضاً يسخر منهم ومن غفلتهم وجحودهم بحق ربهم، وبعدهم عن الهدى، وصار يتهددهم بذلك العذاب .

فلما أتمّ نوح عدته وجاء الموعد رأى الأمارة التي بينه وبين ربه على ابتداء الطوفان، وهو أن يفور تنور أهله، أمره الله أن يحافظ على النوع، فيجعل فيها من كل نوع زوجين، كما أمره أن يحمل معه أهله المؤمنين والقلة المؤمنة من غير أهله، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾[هود: ٤٠] .

وقيل: إن نوحاً عليه السلام قد جعل السفينة ثلاثة أدوار خصص الدور الأول للحيوانات والوحوش، وخصص الدور الثاني للمؤمنين وطعامهم، وخصص الدور الثالث للطيور، ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[هود: ٤١].

وعاش جميع ركاب السفينة بسلام ضمن توازن رتيب، كان نوحٌ ربانَهم، وعم السلام فيها فلا يعتدي أحد على أحد، وأعطى الله أمره للسماء فانهمرت، وللأرض فتفجرت عيونها: ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴾ [القمر: ١١ – ١٣]، وقد صور الله تعالى هذا المشهد الرهيب بقوله:﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ ﴾[هود: ٤٢]، وهكذا تحركت عاطفة الأبوة في قلب نوح عليه السلام، فنادى ابنه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[هود: ٤٢].

ردّ الابن: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾[هود: ٤٣].

بهذا الحوار القصير انتهى اتصاله بابنه، وهاج الطوفان وحالت بينهما الرؤية، ﴿ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾[هود: ٤٣]، وشاءت رحمة الله بنوح عليه السلام أن يغرق ابنه بعيداً عن عينه، واستمر الطوفان، ثم صدر




الأمر الإلهي إلى السماء والأرض أن تستقرا، ورست السفينة على الجودي (وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور) [1]، وقيل كان ذلك يوم عاشوراء، فصامه نوح وأمر من معه بصيامه [2]، وقال رسول الله ﷺ : **"صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر وعيد الأضحى"** [3]، وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨] .

فعاد الهدوء إلى الأرض بأمر ربه، وانحسرت المياه عنها، وبذلك يكون قد طهّر الطوفان الأرض بمن عليها من الكافرين، وهلكوا جميعاً، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] .

ذهب الهول بذهاب الطوفان، وانتقل الصراع الخارجي إلى نفس نوح الداخلية!! وبدأ يتساءل عن ابنه، ولم يكن يدري أن ابنه كافر، وأن الأمواج طوته مع الكافرين، بل كان يدري أنه مؤمن عنيد آثر اللجوء إلى جبل على ركوب السفينة، فتحركت عواطفه فنادى ربه، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ

---

١ – قصص الأنبياء لابن كثير، ص٧٨ .

٢ – أنبياء الله، أحمد بهجت، ص٥٧

٣ – رواه ابن ماجه في سننه: ١/ ٥٢٤ عن طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه، وقال البوصيري في الزوائد: ٢/ ١٠٨ : هذا إسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة .

رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥]، قال سبحانه: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦]، بهذا الخطاب الإلهي أنهى الله تعالى رابطة العصبية، ليحل مكانها رابطة العقيدة .

فأدرك نوح عليه السلام ما يريده الله من خطابه له، فتاب إليه طالباً المغفرة: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧]، وبذلك يكون قد منح الله نوحاً ومن معه السلام والبركات: ﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٨] .

وهبط نوح من سفينته، حيث أطلق سراح الطيور والوحوش، فتفرقت في الأرض، ونزلها المؤمنون آمنين، ووضع جبهته على الأرض، وسجد لله العلي القدير، ثم نهض ليحفر الأساس لبناء مسجد عظيم لله، فيسدل القرآن الكريم الستار على قصة نوح الذي أوصى لأولاده من بعده وهو يموت أن يعبدوا الله وحده لا شريك له .



وأما امرأة نوح، وهي أم أولاده كلهم وهم: (**حام وسام ويافث ويام**- ويسميه أهل الكتاب كنعان، وهو الذي قد غرق- و**عابر** التي مات قبل الطوفان)، وقيل: إنها غرقت مع من غرق من الكافرين، وذلك لكفرها والله أعلم [1] .

لقد سردت القصة ولم تظهر لامرأة نوح مساحة واضحة في أحداثها، إلا أن دورها كان هاماً وأساسياً في مضمون الحدث، وكان له أثر كبير على مجرى الأحداث، قال تعالى فيها: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[التحريم: ١٠] .

إن هذه الآية حديث صريح عن موقف امرأة نوح التي ظلت على كفرها فلم ينفعها زواجها من نبي الله نوح ﷺ، والخيانة هنا: هي الخيانة في الدين بمعنى الكفر، وليس المقصود بها الخيانة بمعنى الزنى [2] .

---

١ - قصص الأنبياء لابن كثير، ص٧٤ .

٢ - المرأة في القصص القرآني، د . أحمد محمد الشرقاوي، دار السلام القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م: ١/ ١٤٣ .

قال ابن عباس ﷺ: (ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتها في الدين) [1].

وقال الإمام ابن كثير: **"فخانتاهما"** أي في الإيمان، لم توافقاهما على الإيمان ولا صدقتاهما في الرسالة، فلم يُجْد ذلك كله شيئاً، ولا دفع عنهما محذوراً ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي لكفرهما، وقيل للمرأتين: ﴿ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ ﴾، وليس المراد بقوله: **"فخانتاهما"** في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء [2].

لم تدخر امرأة نوح جهداً في التصدي لدعوة الخير والتوحيد، بل أصرت واستكبرت فكانت من الكافرين، لم تصدق ما يقوله نوح ﷺ، بل خرجت إلى القوم تحكي لهم قوله، فاستهزؤوا بنوح وسخروا منه، وكان الأولى بها أن تصدقه وتكون أول المؤمنين به، لا سيما وأنها أعلم الناس بأحواله، وأقرب الناس منه، إلا أنها آثرت الكفر والضلال الذي كان عليه قومها، وسخرت معهم من زوجها، (ولأول مرة يدخل قلب امرأة الخوف مما سمعته عن

---

١ – المرأة في قصص القرآن، د. أحمد محمد الشرقاوي: ١/ ١٤٣ .

٢ – تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٩٣ .

الطوفان، لكنها مع ذلك لم تبالِ بهذا الخوف، ومضت إلى قومها تخبرهم بما فعل زوجها) [1]، وازدادت السخرية من نوح وما صنعه، إذ إن امرأته أقرب الناس إليه لا تؤازره ولا تصدقه!! ولا تؤمن برسالته! ولم تقم بما أمرها الله تعالى بدورها في التكليف كما كانت عليه المرأة منذ عهد حواء، لقد كرّمها الله تعالى بأن جعل لها دوراً هاماً في حياة الرجل، فهي مكملة مشاركة تربطها رابطة مقدسة " المودة والرحمة"، لكنها خانت الأمانة، وتخلّت عن دورها المقدس في الحياة المشتركة بينها وبين زوجها نوح عليه السلام، واتخذت لنفسها طريقاً آخر، فلم تكن عوناً على قومه، بل كانت عليه، (فكان هلاكها بسبب بغيها وانحرافها عن الطريق المستقيم، إذ كانت كافرة برسالة سيدنا نوح عليه السلام، وتقول عنه: إنه مجنون) [2]، وإذا آمن أحد من قومه أخبرت الجبابرة من قومها [3]، فضربها الله مثلاً للكفر، وكفر المرأة من أكبر الكبائر، ولا يعود ضرره إلا عليها، إذ لا تنفع شفاعة نوح لها، وقربه لها، ولا يلحق الزوج منهما عار ولا

---

١ - قصص الأنبياء، إبراهيم محمد الجمل، ص١٢٤ .

٢ - الجامع لحكام القرآن للقرطبي: ١٨/ ٢٠٢ .

٣ - النور المبين في قصص الأنبياء، نعمة الله الجزائري، ص٨٤ .

فضيحة بين الناس[1]، بل أدخلها الله نتيجة ما اقترفت يداها من عمل السوء نار جهنم وبئس المصير .

وقال الإمام القشيري[2] في لطائف الإشارات: (إن الجسارة على الزلة وخيمة العاقبة، ولو بعد حين، ولا ينفع المرء اتصاله بالأنبياء والأولياء إذا كان في الحكم والقضاء من جملة الأشقياء) .

وانتهى دورها في حياة نوح ﷺ، وفي أحداث قصته، بغرقها هي وابنها الذي طاوعها على الكفر والضلال، وظلت قصتهما في القرآن الكريم آية أمام المؤمنين على أن الهداية قد تكون بعيدة حتى عن أقرب الناس للداعي .

أما الدروس والعبر التي نحصدها من هذه القصة فهي أولها وأهمها:

١- **قضية التوحيد**: إن الله تعالى جعل الهداية للبشر جميعاً منذ عهد آدم ولكن كانت الشياطين لهم بالمرصاد تبعدهم عن هدايته، فبعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

---

١ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٨/ ٢٠٢ .

٢ - لطائف الإشارات للإمام القشيري: ٣/ ١٤٩، ط دار الكتاب العربي .



مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأكبر عبرة من هذه القصة أن الطريق إلى السلام والأمان بالإيمان، يبدأ من نقطة الرشد والهداية إلى العقيدة الصحيحة، التي بُعث بها النبيون، وأن الله يذيق عباده الظالمين جرّاء ما ظلموا به أنفسهم باتباعهم الكفر والضلال، يذيقهم الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة، ويبدأ العقاب مع نقطة الانحراف عن جادة الصواب . . ليرينا الله من آياته .

ولم يكن الطوفان مصير قوم نوح إلا واحداً من ألوان العقاب التي أعدها الله للباغين، وليست الحروب المدمرة والأمراض والجفاف والسيل والخوف الذي يملأ الأرض من جرّاء هذه الكوارث إلا صوراً من العذاب الذي يصبه الله تعالى على الظالمين، ولكنهم لا يبصرون ولا يعقلون، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩].

فقد بينت هذه القصة أن الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى صبر طويل، ومجادلة منطقية وحوار حكيم، فلنأخذ درساً من صبر نوح عليه السلام- الف سنة

إلا خمسين عاماً- رغم رميه بالجنون والضلال، فقابل ذلك بالحوار العقلي الهادئ الحكيم، دون أن يُكرههم على الإيمان، ولا أن يسألهم الأجر والمال والرياسة، وهذا ما دعانا إليه الحنيف: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

٢- **المساواة والتفاضل بين الناس:** وقد وضع الله تعالى ميزان التفاضل بين البشر منذ آدم فقال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وما يؤسفنا الآن أن ميزان التفاضل أصبح مادياً بحتاً، فكم نصبت العروش لأصحاب الملايين، ووقف الفقير ينتظر فتاتهم!! .

(كما أعطتنا هذه القصة درساً بأن الكافر يعاقب على كفره، ولا تنفعه قرابته من أهل الإيمان، نسباً أو صهراً، كما أن المؤمن يثاب على إيمانه ولا يضره قرابته من الكافرين في النسب أو المصاهرة) [1]، ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة: ٣]، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، **"يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول ﷺ لا أغني عنك**

---

١ - المرأة في القصص القرآني، د. أحمد محمد الشرقاوي: ١/ ١٤٥ .




من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً" [1]، فلا شفاعة لكافر، قال الله تعالى عن حال الكفار يوم القيامة: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

إن الله سبحانه أمر نوحاً عليه السلام بصناعة السفينة، وقد امتثل نوح لأمر الله، وصنع السفينة بيديه وبمساعدة المؤمنين، وفي هذه القصة إشارة إلى الحث على الصناعة والحرفة، وكانت مهمة السفينة أن يركب فيها الناجون ليسلموا من الطوفان، وفي ذلك إشارة إلى أن النجاة يصنعها الإنسان بيده، ثم يتوكل على الله تعالى، فعلى الأمة أن لا تقف مكتوفة اليدين أمام الباطل والظلم لتغرق فيه، بل تسعى جاهدة للتخلص منه، وإن الأمة التي تعتمد عليها غيرها في صناعة مركب نجاتها، ولا تصنعه بيدها، تكون قد عرضت رعيتها للهلاك والغرق في طوفان الكفر والضلال [2].

إن القصة ألغت رابطة النسب في العصبية، وأحلت مكانها رابطة العقيدة والإيمان، والعمل الصالح، وقال الله سبحانه وتعالى لنوح: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ

---

١ – رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب التفسير، باب وأنذر عشيرتك الأقربين، سورة الشعراء: ٢١٤، حديث: (٤٧٧٩)، فتح الباري: ٨/ ٣٦٠. ورواه النسائي في السنن بألفاظ متقاربة عنه في كتاب الوصايا، باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين: ٦/ ٢٤٨.

٢ – مدرسة الأنبياء، محمد بسام رشدي الزين، ص٣٤-٣٥ بتصرف.

أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، وهذه زوجه، رغم ما يربطهما من رابطة مقدسة، إلا أننا نراها لم تجمعهما المودة والرحمة .

ونلحظ في قصة نوح أنه لم يرد ذكر امرأته مقارنة مع ذكر امرأة لوط، والذي سنتطرق إليه في المبحث الثاني في قصة امرأة لوط .

مع أن القرآن الكريم ذكر المرأتين معاً في سورة التحريم، ربما لأن امرأة نوح لم يكن لها ذلك الدور الذي كانت تقوم به امرأة لوط، فقوم لوط كانت جرائمهم كثيرة ومتعددة، من قطع السبيل، وفعل المنكرات الكثيرة، لكن قوم نوح كانت عقيدتهم الشرك والتعالي، وفي هذا الجو لن يكون للمرأة دورها في مثل هذا الجو الطبقي، ولهذا كان القرآن يطوي ذكر المرأة في قصة نوح ويكتفي بالقول: ﴿ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠]، وإن لم يكن لها دور على المساحة الحياتية في قصة نوح، إلا أنه كان لها دور فعال مؤثر ساعد على تفعيل الأحداث في حياة نوح ، وكان تأثيره على ابنها كنعان الذي أنشأته تنشئة غير صالحة .

فإن دور الأم عظيم وخاصة في بيت النبوة، ولكن رغم ذلك فإنها لم تؤثر على دعوة نوح ورسالته، ولو أنها أثرت على نفسيته من حيث علاقة المرأة بالرجل، (علاقة مودة ورحمة)، فأين المودة والرحمة من امرأة خانت زوجها

بمخالفتها أمر الله؟! وسخرت منه ومن دعوته مع قومها، وادعت بأنه مجنون؟! فكانت عبرة لمن اعتبر، لأنها تخلت عن دورها الذي كُلفت به من الله تعالى.

ورغم ما قامت به من عصيان ربها، إلا أن هذا يدل على أن المرأة حرة كالرجل في اتخاذ قرارها بنفسها، وتحديد مصيرها حتى ولو كان هلاكها، فبينما اختارت امرأة فرعون طريق الإيمان والتضحية في سبيل الله رغم أنها تعيش في ظل رجل كافر طاغية، نرى امرأة نوح ولوط قد اختارتا طريقاً مقابلاً لها، طريق الضلال، رغم أنهما تعيشان في ظل نبيين طاهرين، فكان الهلاك لهاتين المرأتين وبئس المصير .

وبهذه النهاية نسدل الستار على واحد من أروع الدروس، حققته هذه القصة القرآنية، قصة نوح عليه السلام .

➢ المبحث الثالث

امرأة لوط – والهة ـ

ابنِ أخي سيدنا إبراهيم عليه السلام

ودعوة لوط إلى طهارة النسل

نموذج للمرأة السلبية في القصة القرآنية

لمحات من قصة لوط عليه السلام وزوجته وتتضمن ما يأتي:

- لمحة عن نبي الله لوط عليه السلام، ومدى قرابته من نبي الله إبراهيم عليه السلام، وقومه .
- دعوة نبي الله لوط عليه السلام قومه .
- موقف قومه من دعوته .
- امرأة لوط تخالف أمر الله .
- الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام .
- موقف قوم لوط من أضياف لوط عليه السلام .
- وجاء أمر الله!! .
- موقف الإسلام من اللواط .

- هلاك المكذبين الظالمين من قومه .
- نجاة لوط وبناته .
- هلاك امرأته لخيانتها .
- دور المرأة في قصة لوط .
- **دروس وعبر من قصة لوط، ودعوة إلى طهارة النسل .**
- **لمحة عن انتشار اللواط في المجتمعات الغربية بسبب الفراغ الديني والخواء الروحي.**

ذكر القرآن الكريم زوجة لنبي كريم هو نبي الله لوط ﷺ، فكانت مثالاً للذين كفروا وضلوا عن طاعة الله .

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[التحريم: ١٠] .

لقد رضيت هذه الزوجة التي شرّفها الله بأن تكون زوجة لنبي، رضيت الذل والهوان، واختارت طريق الكفر والضلال بخيانتها لزوجها!! .

ولكي نقف على دور هذه المرأة الخائنة لزوجها، لا بد من سرد جزء من قصة حياة نبينا لوط ﷺ، لنرى دور الخيانة الأنثوية، الذي لعبته امرأة لوط في حياته، فمن الأمور العظيمة التي وقعت في حياة إبراهيم الخليل، قصة قوم لوط ﷺ، وما حل بهم من النقمة الكبيرة، والدمار الشامل .

إذ كان لوط ﷺ ابنَ أخي إبراهيم ﷺ، وكان أول المؤمنين بإبراهيم، إذ هاجر لينشر عقيدة التوحيد ﴿ * فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وطهر الله سريرته فأدخله في رحمته ووصفه بأنه من الصالحين، ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[الأنبياء: ٧٥] .



وقد آتى الله لوطاً العلم والحكمة، ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٤] . وهذا من كرم الله تعالى ورحمته به .

أما قومه فيقول المفسرون: إن الأرض التي كان يعيش عليها قومه تقع في غور الأردن على البحر الميت، وقد عُرفت باسم " سدوم" .

فقد وصفهم ابن كثير: (لها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية، وأردئهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون، فقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذُّكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النساء لعباده الصالحين) [1] .

وقال الفيروزأبادي: (ظل لوط في صحبة عمه إبراهيم عليه السلام حتى استقر به المقام في قرية سدوم بالأردن، ولقد أرسله الله إلى أهل هذه القرية) [2] .

وكان قوم لوط يقومون بفعل الخبائث بأنواعها، في إتيان الرجال، وقطع الطريق، واقتراف المنكرات والفواحش في النوادي جهاراً، ولا يرعوون

---

١ – قصص الأنبياء لابن الكثير، ص١٥٨ .

٢ – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، المكتبة العلمية بيروت، بدون تاريخ: ٦/ ٥٥ .




لوعظ واعظ، ولا نصيحة من عاقل، ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٠ — ٨٢].

وقد شاعت الرذيلة في القرية بأسرها عدا بيت واحد، على الرغم من فساد زوجة صاحبه، وقد جاء في حديث الملائكة لإبراهيم: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥ — ٣٦].

أرسل الله تعالى لوطاً عليه السلام إلى قومه ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن الفواحش وما يخالف عقيدة التوحيد، فكان مصححاً لعقيدتهم، مصلحاً مصوباً لسلوكهم، فقال: ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٦٢].

فقدم لهم الأساس الأول في إصلاح نفوسهم وأخلاقهم وسلوكهم، وإصلاح عقيدتهم، فإذا صلحت العقيدة استقام سلوك الإنسان، وذلك لأن العقيدة في القلب كالشمس مركز الدائرة، إذا اهتزت العقيدة اهتزّ الكيان كله



تماماً، كما تنحرف الإبرة المغناطيسية إذا حيل بينها وبين الاتجاه المرسوم لها فتهتز .

وبَيَّنَ لهم أنه لا يريد زعامة ولا ثروة، ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء: ١٦٤] .

وقال الإمام ابن كثير: (بعث الله لوطاً عليه السلام إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، فلم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم يعهدونه ولا يألفونه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم – عليهم اللعنة–.

قال الوليد بن عبد الملك الخليفةُ الأموي: (لولا أن الله تعالى قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أنَّ ذَكَرَاً يعلو ذكراً) [1] .

رد قوم لوط على نبي الله عليه السلام بالتكذيب برسالته أولاً: ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ ﴾[الشعراء: ١٦٠]، وطلبوا من لوط عليه السلام التوقف عن نشر

١ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٣٢٠ .

رسالته، وتهديدهم إياه بالطرد والإخراج من القبيلة ثانياً: ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، واستمروا على فجورهم وكفرهم، حتى صارت الطهارة في عرفهم جريمةً يُعَاقب عليها بالطرد ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وقد طلبوا الاستعجال بالعذاب من الله، برهاناً على صدق لوط في دعوته: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فطلبوا منه وقوع ما حذرهم منه من العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم، وكان أجدر بهم أن يطلبوا المغفرة ورحمة الله تعالى.

فما كان من نبي الله لوط عليه السلام حين ردّه قومه إلا أن دعا عليهم، فسأل اللهَّ رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

فغار الله لغيرته، وغضب لغضبه، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبه، وبعث رسله الكرام وملائكته العظام، فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه



بالغلام العليم (إسحاق)، وأخبروه بما جاؤوا له من الأمر الجسيم والخطب العظيم)[1] . ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾[الذاريات: ٣١—٣٤] .

وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١— ٣٢] .

ودخلت ملائكة الله إلى المدينة على هيئة شبان حسان، فحسبهم لوط بشراً، وضاق بهم ذرعاً لما رأى من جمالهم، وكان هذا اختباراً من الله تعالى قوم لوط وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطاً عليهم السلام، وذلك عند غروب الشمس، فخشي إن لم يضفهم أن يضيفهم غيره ولكنه ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، وخبأهم عليه السلام في بيته، وطلب إلى أهله عدم إخبار أحد بوجودهم .

---

١ – قصص الأنبياء لابن كثير ص١٦١ .

وهنا يظهر موقف زوجه، لقد خانت الأمانة، ومضت إلى قومها فقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط!! .

وقد ذكر القرآن خيانتها فقال: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾[التحريم: ١٠] .

أما ابنتاه فكان موقفهنَّ يخالف موقف أمّهن في الخيانة، فعندما التقتا بالضيفين عند باب المدينة قالت إحداهما: مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، فرقّت عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه . . أرادك فتيَانِ على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، وقد كانوا نهوه أن يضيف رجلاً فقالوا: ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(1)[الحجر: ٧٠] .

أما موقف قوم لوط عليه السلام من أضيافه فقد قال تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾

---

١ – قصص الأنبياء لابن كثير، ص١٦٣ .



قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٧٨ — ٨٠].

هنا وضع جبريل يده عليه وقال له: بلى، بل أنت تأوي إلى ركن شديد، وهو الله، وما إن وصل قوم لوط من زوجته خبر وصول شبان حسان عند لوط عليه السلام، حتى استبشروا بالفاحشة، وهرعوا إلى بيته محاولين الاعتداء على ضيوفه، فحاول لوط تذكيرهم بتقوى الله ونصحهم وإيقاظ الرشد في عقولهم، فأصبح يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً، لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد، كما ورد في الحديث، وكما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وفي قول بعض الصحابة والسلف، وهو أب لهم، وهذ كقوله: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦٥ — ١٦٦].

وفي قوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾، نهيٌ لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة، وشهادة عليهم بأنه

ليس فيهم رجل له مِسْكَةٌ ولا فيه خير، بل الجميع سفهاء، فجرة أقوياء، كفرة أغبياء [1] .

وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه، فقال قومه – عليهم اللعنة- مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد: ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود: ٧٩]، يقولون: لقد علمت يا لوط أنه لا أَرَب لنا في نسائنا وإنك لَتعلم مرادنا وغرضنا .

وبهذا الكلام القبيح واجهوا رسولهم الكريم، ولم يخافوا سطوة العظيم، ولهذا قال عليه السلام: ﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠]، فودّ لو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب، (ويقال: إن قوم لوط لم يكن منهم أحد يجتمع معه في نسب لأنهم من سدوم، وهو من بلاد الشام، وكان أصل إبراهيم ولوط من العراق، فلما هاجر إبراهيم إلى بلاد الشام هاجر معه لوط، فبعث الله لوطاً إلى أهل سدوم، فقال: لو أن لي منعة وأقارب وعشيرة لكنت أستنصر بهم عليكم ليدافعوا عن ضيفاني) [2] .

---

١ – المرجع السابق، ص١٦٣ .

٢ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ط دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ : ٦/ ٤٧٨ .



وإن طلبه المنعة والنصرة من عشيرته لا يتنافى مع التوكل على الله تعالى، لأن التوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب، وهذا ما دعانا الله إليه .

وقال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: (وأما قول النبي ﷺ: " **يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد**" فالمراد بالركن الشديد هو الله سبحانه وتعالى، فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها، ومعنى الحديث - والله أعلم- أن لوطاً عليه السلام لما خاف على أضيافه ولم يكن هناك عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب عليه، فقال في ذلك الحال: لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي أو آوي إلى عشيرة تمنع لمنعتكم، وقصد لوط عليه السلام إظهار العذر عند أضيافه وأنه لو استطاع دفع المكروه عنهم بطريق ما لفعله، وأنه بلغ وسعه في إكرامهم والمدافعة عنهم، ولم يكن ذلك إعراضاً منه عليه السلام عن الاعتماد على الله تعالى، وإنما كان لما ذكرناه من تطييب قلوب الأضياف)[1] .

قالت الملائكة لتطمئن قلب لوط لما هو عليه من خوف على أضيافه الذين هم الملائكة: ﴿ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ ﴾[هود: ٨١] .

١ - شرح النووي على صحيح مسلم: ٢/ ١٨٥ .

في هذه اللحظة العصيبة تكشف الملائكة عن حقيقتها ومهمتها، وقال الإمام القشيري: (لما ضاق به الأمر: كشف الله عنه الضر، فعرّف إليه الملائكة) [1].

فتقدمت الملائكة إلى لوط عليه السلام آمرين له بأن يسريَ وأهله من آخر الليل: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ [هود: ٨١]، عند سماع صوت العذاب المروع إذا حل بقومه، وأمروه أن يكون سيره في آخرتهم كالساقة لهم [2].

ولأن امرأته خانته وأيّدت قومها ضد نبي الله عليه السلام، فإنها استثنيت من النجاة، وحاق بها العذاب: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الحجر: ٦٠]، ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١]، فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم، وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة، الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب، وعبرة يتعظ بها الألبّاء من العالمين، ﴿ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١].

وجاء أمر الله . . .

---

١ - لطائف الإشارات للقشيري: ٣/ ١٤٩ .

٢ - قصص الأنبياء لابن كثير، ص١٦٥، وتاريخ الطبري: ١/ ٣١٠،ومروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ط دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٦هـ، والميزان في تفسير القرآن، محمد حسن الطباطبائي، ط مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١٤٠٣هـ .



خرج لوط عليه السلام بأهله، وهم ابنتاه، ولم يتبعه من قومه رجل واحد، ويقال: إن امرأته خرجت معه، ولكن هلكت مع الهالكين [1]، ﴿ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٤ — ١٣٥]، أي في الهالكين .

يقول الإمام القرطبي: (إن امرأة لوط لما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت: واقوماه!! فأدركها حجر فقتلها) [2]، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ [هود: ٨٢ — ٨٣]، لقد فصل القرآن الكريم ألوان العذاب التي حلت بقوم لوط عليهم السلام .

---

١ – قصص الأنبياء لابن كثير، ص١٦٥ .

٢ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٠/ ٣٨، والهدّة: الخوف وما يقع من السماء . لسان العرب: ٦/ ٤٦٣١ مادة هـ د د .

قال ابن كثير: (اقتلعهنّ جبريل بطرف جناحه من قرارهن، وكن سبع مدن، بمن فيهن من الأمم المجاورة، فرفع الجميع حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليَها سافلها) [1] .

لقد قلبها الله تعالى فأهوى بها فنكس عاليَها سافلها، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مسوّمة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه، من الحاضرين منهم إلى بلدهم والغائبين عنها أو المسافرين أو النازحين من الشاذين، وتوجه بعدها لوط إلى إبراهيم، وقص عليه نبأ قومه وأدهشه أن إبراهيم يعلم، ثم مضى الاثنان ينشران الإسلام في أرض الله الواسعة .

ولهذا ذهب العلماء إلى أن اللائط الشاذ يُرْجَم سواء أكان مُحصناً أو لا، ونص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة، وقال ﷺ : **" من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به"** [2] .

---

١ – قصص الأنبياء لابن كثير،ص ١٦٦ .

٢ – رواه أبو داود في سننه ٢/ ٤٦٨ حلبي، والترمذي في سننه: ١٥/ ٢٤/ ١٤٥٦، وابن ماجه في سننه .



وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل، ويتبع بالحجارة كما فُعل بقوم لوط [1] .

ولقد جعل مكان تلك البلاد بحيرة [2] منتنة لا ينتفع بمائها، فصارت عبرة ومُثلة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذّب رسله واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٨ – ٩]، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥] . فمن نظر بعين الفراسة والتوسم في نهاية قوم لوط، وكيف جعلها بعدما كانت آهلة عامرة، هالكة غامرة؟! كما روى الترمذي وغيره مرفوعاً: " **اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**" [3]، اقرأ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥] .

---

١ – قصص الأنبياء ابن كثير، ص١٦٧ .

٢ – يقال إن البحيرة الحالية التي نعرفها باسم (البحر الميت) هي مدن قوم لوط السابقة، كما ورد في أنبياء الله لأحمد بهجت، ص١٠٧ .

٣ – حديث رواه الترمذي : كتاب تفسير القرآن، باب : ومن سورة الحجر، رقم (٣٤١٩) .

فالقصة هنا لم تكن للسرد الإخباري، ولكن للدلالة على أن مخالفة شرع الله تعالى ستكون لها نتائج خطيرة، ليست العقوبة وحدها، وإنما العقوبة التي تعم المجتمع الذي تتفشى فيه هذه الأمراض الاجتماعية الشاذة في كل شيء، والمخالفة لكل شريعة ومنهج أنزله الله تعالى، ولذلك فقد عرض الفقهاء لهذه المسألة ونتائجها، قال الإمام ابن القيم: (جمع الله أنواع العقوبات بين الإهلاك وقلب ديارهم عليهم والخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء، فنكل بهم نكالاً لم ينكله بأمة سواهم، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها حين تُعمل عليها) [1].

لقد كانت قصة لوط ﵇ تعرض لنا قصة المرأة التي خانت زوجها وخالفت شرع الله في تحصين بيتها والمحافظة على أسرار زوجها، ووجوب مناصرته والوقوف إلى جانبه في نشر رسالته . قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠]، وهذا الهوى هو ما تصرّ عليه النفس الأمّارة من انحرافات ترفضها الشريعة ويستنكرها العرف.

فالعاقل الخائف من ربه، يمتثل لأوامره ويقبل طاعته، ويقبل ما أرشده إليه رسولنا الكريم ﷺ من إتيان ما خلق الله من الزوجات الصالحات

---

١ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، ط دار الكتب العلمية بيروت، ص٢٥١ .



بالحلال، والجواري من السراري، وإياه أن يتبع غواية الشيطان، فيحق عليه الوعد والعذاب الشديد .

ونتوقف عند موقف زوجه، ودورها في قصة لوط، لقد ذكر الله تعالى في آيات كريمات قصة أهل لوط عليه السلام، وامرأته والهة، وما أحله الله بها من مصير بائس، لتكون عبرة لمن اعتبر، بأنه لا يغني أحد في الآخرة عن قريب أو نسيب، إذ فرق بينهما الإيمان والتوحيد .

لقد كانت على دين قومها جاحدة بأنعم الله تعالى، خائنة لأسرار زوجها، وكانت عيناً لقومها على من يكون عند لوط عليه السلام من الضيوف، فخالفت منهجه وعقيدته، في الوقت الذي كان لها أن تكون بيت سره، وسنده في أنه مرسل من الله تعالى لا يستطيع أن يفرض إيماناً حتى على امرأته، فإن اهتدت فلها، وإن لم تهتد فستنال جزاءها العادل من الله تعالى .

ولذلك فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [التحريم: ١٠] .

أي الذين رفضوا منهج الله تعالى، فالله أعطى حرية الاختيار بين الكفر والإيمان، ولم يقيد هذه الحرية حتى في زوجات الأنبياء [1] .

---

١ – قصص الأنبياء والمرسلين للشعراوي، ص١١١ .

وبذلك يكون دورها من حيث المضمون هاماً، لأنها تخلت عن التكليف الذي منحها الله تعالى إياه في تربية أبنائها وتنشئتهم التنشئة الصالحة، وفي مساندة زوجها ومؤازرته في حياتهم الخاصة، لذا كان تخليها وتخلفها عن هذا الدور في مجرى الأحداث له أثر هام، فما بالنا وهي زوجة لنبي!! .

إن النبي يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدعوة وأهميتها، وتدرك تماماً ما يقوم به الزوج وما يتحمله من أعباء الدعوة، وما يعانيه من مشاق، فتقف إلى جانبه تيسّر له مهمته وتعينه عليها، لا أن تقف عائقاً وشوكة في طريقه!! .

فالمرأة لها مكانة عظيمة ومنزلة كريمة وركن حصين في بناء الأسرة، وهي لبنة في بناء المجتمع السليم، وبتخليها عن دورها في حياة زوجها تهز أركان هذا الكيان! .

كما أن الشخصية الرئيسية لا يمكن الاستغناء عنها في القصة القرآنية من حيث النظرة الفنية للقصة .

وإن امرأة لوط (كامرأة) تشكل دوراً هاماً في حياة الرجل، ويظهر دورها، في حرية اختيارها الكفر ومخالفتها أوامر الله تعالى في اتباع عقيدة زوجها، وكان هذا الموقف دليلاً على حرية العقيدة، ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] .




فها هي السيدة خديجة رضي الله عنها، إن ثقتها في الرجل – نبي الأمة – الذي أحبته وأخلصت له، أعطته ثقة عظيمة بنفسه، لقد كانت تضفي جواً من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة [1]، إن الدعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر تحمله النبي ﷺ، فإذا وُفّق الداعية لزوجة صالحة، فإن ذلك من أهم أسباب نجاحه ونجاح دعوته .

وصدق رسولنا الكريم إذ يقول: " **الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**" [2]، (فالمرأة تنتابها عوامل القوة والضعف، والنصر والهزيمة، وتستقيم وتنحرف، لكن رسالتها الأولى ترتبط بواجباتها الزوجية والأمومة) [3]، فإن تخلت عن دورها المقدس هذا، كان لها الأثر المهلك على كل أفراد الأسرة .

إذاً فإن دورها في القصة ليس مقروناً إذا كانت كافرة أم مؤمنة، وليس الغرض من المثل الذي ضربه الله تعالى في الآية السابقة أن يقال إن امرأة لوط

---

١ – تراجم سيدات بيت النبوة رضي الله عنهن، د . عائشة عبد الرحمن، ط دار الحديث القاهرة، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، ص١٨٨ .

(٢ – رواه مسلم في كتاب الرضاع برقم: (١٤٦٧)، ص١٩٠ .

(٣ – مدخل إلى الأدب الإسلامي، د . نجيب الكيلاني، سلسلة مضيئة تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والدينية، قطر، ط١١٤٠٧هـ، ص١٠٧ .

كانت خائنة، وليبين أنها خائنة لأمانة الزوجية من جهة، ومنحرفة عن منهج الله من جهة ثانية، إضافة إلى جريمتها في اشتراكها بآثام قوم لوط وشذوذهم، فهي تدلهم على أضياف لوط ﷺ، وهي تعلم أنهم يريدون بهم سوءاً لو استطاعوا ذلك .

لذا فإن المرأة كان لها دور بارز في قصة لوط، لما لها من دور في حياته، فالمرأة شريكة لزوجها مكلفة به من الله تعالى منذ عهد حواء، لذا فإن دورها في حياته واضح، وفي قصته رئيسي، ولو أنها لم تأخذ مساحة كبيرة في الأحداث، بل ساهمت في نمو الحدث وتطوره، بحيث ساندت قومها على زوجها، لذلك لم تنجُ وكانت في عداد المجرمين .

قال تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٠ -١٧١] .

والعجوز معروف، وهو من تقدمت به السن وتجاوز الستين، والغابرين: الهالكين، وكأن الله تعالى يخبر رسوله لوطاً بأن هذه الزوجة التي لم تكن أهلاً للزواج من نبي الله لوط وخانته في نبوته، وأنها ستهلك مع العصاة المذنبين، إنها ستظل في الدار ولا تخرج مع الذين اتبعوا لوطاً، وسيصيبها ما يصيب غيرها من الهالكين، وفي المثل العربي:" هذا أمر غبر وقته" أي ذهب وقته

ومضى [1]، لذا فهي تستحق هذه النهاية، فهي لم تكتف بأن كفرت بلوط ﵇ وبرسالته، بل أثارت العدوانية عليه، وتجرأت على معصية الله ومعاونة الكافرين على كفرهم، محرضة لهم على عمل الفواحش، ومعينة لهم، فكانت سبباً لمتاعب زوجها، وكان الأولى بها أن تقوم بدورها " المودة والرحمة"، فتسانده وتصدقه، وهو الأقرب لمعرفته ومعرفة مدى صدقه!! .

لقد كانت بجانب النور والهداية فرفضته، لتعيش الظلمة والشقاء مع القوم الظالمين، نالت عقوبتها في الدنيا مع قومها، أما في الآخرة فناداها ربها: ادخلي النار مع الداخلين، لأنك خائنة لزوجك في عقيدته ودينه، ولن ينفعك أن زوجك نبي، وهذا جزاء الخائبين، فكانت مثلاً لكل امرأة تسول لها نفسها أن تكفر بالله العلي العظيم .

لقد قدمت لنا هذه القصة والدروس والعبر ونحن نقف أمام ركام هذه المدن المندثرة بمن فيها، متسائلين عما يمكن أن نفيد ونعتبر من نهاية قوم بهذه النهاية البشعة!! ونهاية امرأة كانت تعيش في بيت النبوة بيت النور والإيمان، فاختارت الخيانة والضلال، ونرى قدرة الله تعالى وعظمته أن ينجي القوم الصالحين في وسط هذا الخضم العميم، ليكونوا قدوة لأولي الألباب، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ١٠٣] .

(١ - قصص الأنبياء والمرسلين للشعراوي، ص١١٣ .

فأول درس نتعلمه من هذا العبد الطائع والنبي الصالح عليه السلام، كرم الأخلاق في رعاية الضيف والنزيل، وهذا يدل على عراقة الأصل والمروءة والكرم، ولنا في أنبياء الله أسوة حسنة، إن حمايته لضيفه من القوم الفاسدين، يدل على التضحية والصبر والفداء والإيمان العظيم في تقديم بنات قومه أو ربما بناته في رابطة الحلال لقومه فداء لأضيافه، لعلهم يكفوا عن الآثام والشرور في أنفسهم، ويوجههم إلى الخط السليم في النفس البشرية، ودليله على أنه أراده لهن في الحلال قوله: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ ﴾ [هود: ٧٨]، فالطهر هو رمز العفة والقداسة التي تؤدي إلى الحلال، وهو بذلك لم يخالف شرع الله الذي أنزله لعباده، فقدّم البنات حلالاً شرعاً، بدل ارتكاب جريمة هي أبشع الجرائم على الإطلاق، وتقديمه للبنات إنما هو دعوة إلى الزواج الحلال شرعاً ليبتعد الناس عن ارتكاب الجريمة في الحرام، وذلك ليقضي على الفاحشة الأولى من نوعها في تاريخ البشرية، وهي الجناية على الفطرة الإنسانية، وقتل النسل وضياع الأمة، لذا فإن هذه القصة تقدم العبرة والحذر ممن تسول له نفسه اقترافَ أبشع هذه الذنوب والمعاصي .

رأيت الذنوب تميت القلوبَ وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوبَ وخير لنفسك عصيانها



فاللواط من أكبر الفواحش، ومن أفحش الكبائر، وهو شذوذ وانحراف وفسوق ضلال، ومزلة للرجال، لأنه يقتل فيهم الرجولة والمروءة والشهامة، كما هو مفسدة للنساء، إذ ينصرف الرجال عنهن، وقد تلجأ المرأة إلى الزنى، بالسحاق لإشباع رغبتها، كما فعل نساء قوم لوط، واللواط جناية على الفطرة السليمة، ومفسدة للشباب، حيث ينصرفون عن الزواج الحلال، وينغمسون في أوحال تلك الفاحشة، كما يترتب على اللواط قلة النسل، وبذلك تتقوّض أركان الأسرة، وينفرط عقد المجتمع وتنهار الحضارات [1].

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: (**يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله من أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقُصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسِّنين وشدة المُؤونة وجور السلاطين عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم يَنقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم شديداً**) [2].

(١ - المرأة في القصص القرآني، د. أحمد محمد الشرقاوي، ص٢٢٧-٢٢٩ بتصرف.

(٢ - رواه ابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب العقوبات عن ابن عمر، حديث: ٤٠١٩، ٢/ ١٣٣٣، ورواه الحاكم في المستدرك: ٤/ ٥٤٠ وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في كتابه صحيح سنن

وبذلك يكون قد خصص الله تعالى في قصته (مدرسة نبي) بكاملها للحديث عن إصلاح الممارسات الجنسية الخاطئة، والتي أخذت أبعادها الآن تحت اسم الحرية، وحقوق الإنسان لممارسة أعمال تدمر نسل الإنسان .

إن القانون الذي أنزله الله تعالى من تحريم الزنى، وتحريم الشذوذ، ينسجم مع فطرة الإنسان، والحث على الزواج الشرعي، لذا فإن الله عاقب قوم لوط بعقوبة تناسب الإنسان، وذلك بإبادة القوم جميعاً لأنهم كانوا يسعون إلى إبادة البشرية بانقطاع النسل .

أما زوجه، فأعطانا الله تعالى منها درساً عظيماً بأن الكافر يعاقب على كفره، مهما بلغت درجة قرابته من أهل الإيمان، كما يثاب المؤمن على إيمانه، ولا يضره قرابة الكافر في شيء، فتلك العجوز التي شبت وشابت على الكفر، كانت في غفلة عن النعيم الذي هي فيه، فقد بدّلت النور إلى ضلال، ولم تؤدَّ دورها تجاه ربها وزوجها، فتاهت مع التائهين، فلتكن عبرة لمن تسير على مسارها، فلا بد أن عذاب الله آتٍ .

ابن ماجه رقم: ٣٢٤٦، ٢/ ٣٧٠، وسلسلة الصحيح حديث: ١٠٦ ١/ ١٧٦، وقال: الحديث بمجموع طرقه وشواهده صحيح بلا ريب .

وخير ما نختم به دروسنا وعبرنا من هذه القصة القرآنية، دعوة إلى التوحيد، فهي أساس دعوة جميع الأنبياء من لدن آدم ﷺ، حتى رسوله الله ﷺ .

وقد بدأ لوط في تربية النفس مع قومه وإبعادهم عن الفاحشة، بعرض عقيدته عليهم، فمن صلحت عقيدته صلح كل ما فيه، فهذه دعوة من نبينا لوط ﷺ لكل من يرى في نفسه الضلال والفساد أن يلجأ إلى الله تعالى، فهو الطريق إلى الإصلاح المنشود، وهو الأساس المتين الذي تبنى عليه النفوس الصالحة، فمن لا يردعه دينه فﷺ!! .

وها هي المجتمعات الغربية [1] وقد انتشر اللواط فيها انتشاراً واسعاً، مع كثرة النساء وانتشار البغاء، لأن في الدول الغربية قوانين وتشريعات تبيح اللواط وتشجع عليه طالما كان بين بالغين دون إكراه .

وفي دائرة المعارف البريطانية [2] أن الشواذ جنسياً خرجوا من دائرة السرية إلى العلنية، وأصبح لهم منتدياتهم – نوادي العري- وحدائقهم ومراحيضهم الخاصة بهم، وتعرف الشرطة هذه الأماكن وتقوم على حمايتها ورعايتها .

(١ – ورد في المرأة في القصة القرآنية، أحمد محمد الشرقاوي .

(٢ – دائرة المعارف البريطانية: ١٢/ ٦٠٤، ط سنة ١٩٨٢م .

وهناك آلاف الجمعيات في الغرب ترعى شؤون الشواذ جنسياً، وتطالب لهم بمزيد من الحقوق، ولقد أصبحوا قوة لا يستهان بها، وورقة رابحة في الانتخابات العامة والرئاسية، ولقد وجدنا كبار الساسة والقادة يخطبون وِدَّ الشواذ ويغرقونهم بالوعود إن هم وقفوا بجانبهم في حملاتهم الانتخابية، وإن نسبة كبيرة من الشواذ تتبوأ مقاعد حساسة ومناصب هامة في الحكومات والجيوش في أمريكا وأوروبا .

وفي أوروبا وأمريكا كنائس مخصصة للشواذ يباح فيها للرجل أن يتزوج بالرجل، وللمرأة أن تتزوج بالمرأة، بل إن بعض الجامعات في الولايات المتحدة تخصص منحاً دراسية للشواذ فقط، ومن هذه الجامعات جامعة (سير جورج وليافر)، ولا يمكن للطالب أن يحصل على منحة بتلك الجامعات إلا إذا ثبت أنه شاذ جنسياً .

وفي اجتماع مجلس الكنائس الإنجليزية وافق المجلس بأغلبية الأصوات على إباحة الشذوذ الجنسي بشرط حدوثه بين بالغين مختارين، وكان كبير الأساقفة هو الذي قاد الحملة التي تهدف إلى إباحة الشذوذ، ولقد صرح قائلاً: (إنه يشعر بالقلق لما يصيب الشخص المصاب بالشذوذ الجنسي من ظلم




القانون، في حين يستطيع أي شخص آخر أن يدمر أسرة ويشردها بدون عقاب يوقع عليها) [1] .

يقول الأستاذ فتحي يكن في كتابه الإسلام والجنس: (إن انحراف التربية وانعدام الحس الديني، وفساد الأخلاق، من شأنها جميعاً أن تهيئ الأجواء المناسبة للانحراف والشذوذ، إن الفراغ والترف وتمييع مواقف القوانين الوضعية من الجرائم الأخلاقية والجنسية من الأسباب الرئيسية الكامنة وراء ظاهرة الشذوذ الجنسي) [2] .

وأخيراً بعد هذه الجولة في المجتمعات الغربية التي تجعلنا نشعر بالتقزز منهم، والرأفة لحالهم، وإن دل على شيء فإنه يدل على بعدهم عن الحق، وتغلب المادة على الروح، والترف المؤدي إلى الانحلال، والبعد عن التعاليم الإلهية والتشريعية، التي تعين الفرد على الانحياز عن نطاق الفضيلة .

والفواحش (من زنى . . . ولواط . . . وسحاق) كلها أفتك أسلحة الشيطان في الكيان البشري، ولكن فاحشة اللواط تمثل رأس الحربة في هذا الميدان .

(١ - المرأة في القصص القرآني، أحمد محمد الشرقاوي، ص٢٣١ .

(٢ - الإسلام والجنس، فتحي يكن، ط مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص٤٩ .

فإن لِلّواط أضراراً نفسية واجتماعية وصحية، ومفسدة للنساء والرجال معاً، مما يؤدي إلى انعدام التناسل، ووقف النمو البشري، وتفكك المجتمع، وضياع الأسرة التي هي أولى ضحايا هذا الوباء الشيطاني .

وخير دليل على انتشار هذا المرض الفتاك في المجتمعات الغربية انعدام الجو الأسروي والترابط الاجتماعي بين الأفراد .

وتبارك الله العلي الرحيم بعباده، الذي جعل لكل صالحة ثمرتها من السلامة والسعادة، وجعل لكل مفسدة عاقبتها من الضياع والمرارة، وفي وباء الإيدز الذي يهدد مواطن الفساد في العالم اليوم، موعظة جديدة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

الفصل الثالث

نماذج إيجابية وسلبية للمرأة في عهد الرسول ﷺ

المبحث الأول: خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ،" نموذج إيجابي"

المبحث الثاني: أم جميل (حمالة الحطب) ، " نموذج سلبي"

➢ **المبحث الأول**

خديجة بنت خويلد

زوجة رسول الله ﷺ، رضي الله عنها

((القرشية الأسدية الطاهرة))

سيدة في قلب المصطفى ﷺ

وأم المؤمنين الأولى رضي الله عنها

نموذج إيجابي للمرأة في عهد الرسول ﷺ

سيرة خديجة العطرة رضي الله عنها

- **المرحلة الأولى: من قصة حياة خديجة مع الرسول ﷺ، والزواج المبارك، وأثرها على حياته ﷺ قبل الدعوة .**
  - **خديجة الزوجة:** ودورها المادي والمعنوي في إسعاد زوجها وإكرامها له .
  - **خديجة الأم :** ودورها في تربية أولادها وبناء أسرة صالحة .
- **المرحلة الثانية: من قصة حياة خديجة مع الرسول ﷺ، (ونزول الوحي)، وأثرها على حياته ﷺ بعد الدعوة .**

(الرؤيا الصادقة، البشرى الكبرى من ورقة بن نوفل، زمن النبوة، خديجة أول المؤمنين، موقف قومه منه ومناصرتها ومؤازرتها له، احتمال الأذى والحرب معه في الحصار، مساندته في الدعوة، تكريم الله لها وتبشيرها ببيت في الجنة، وجبريل يقرئها السلام) .

- **المرحلة الثالثة: من قصة حياة خديجة مع الرسول ﷺ (وعام الحزن)**

(انهيار الحصار، العودة إلى مكة، وفاة خديجة ووفاة عمه، عام الحزن وتوالي المصائب على الرسول الكريم ﷺ، الوحدة والوحشة بعد فراقها، الوفاء لها وإكرامها بعد وفاتها) .

- **دور المرأة في حياة الرسول ﷺ**
- **الدروس والعبر .**

تمهيد

ذكرنا آنفاً قصة نساء في حياة أنبياء الله تعالى، وتتبّعنا بعض أدوارهن وموقفهن، فمنهنّ المؤمنة المجاهدة المحسنة، ومنهن الكافرة الخائنة التي لم تخلص لزوجها، ولم تستحق أن يكون زوجاً، وذكرنا السيدة مريم عليها السلام وامرأة فرعون، وزليخا زوجة يوسف عليه السلام .

لذا كان لا بد من الوقوف أمام أعظم سيدة في الدنيا، وهي السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ وأم أولاده وبناته عليهم السلام، ذلك أنّها أخلصت له، وقدّمت كل ما استطاعت من أجل نصرة زوجها النبي ﷺ في تحمل أعباء الرسالة ونشر دين الإسلام، فكانت مثلاً للمرأة المؤمنة المخلصة المُبَشَّرَة بقصر في الجنة من ذهب إكراماً لها ولمكانتها عند النبي ﷺ، وتكريم لله تعالى لها لأنّها أكرمت زوجها ووضعت أمامه كل ما تملك من مال وجاه، ودفعت في سبيل الدعوة ثروتها التي وضعتها بين يدي النبي ﷺ .

وهي وإن لم تكن صاحبة قصة مُفْرَدة في القرآن الكريم إلا أنها حظيت بدور بارز ومؤثر فيه، فهي ذات الأثر الواضح في نزول الآيات الأولى من سورة المدثر، كما أنها أول من سمع كلام الله تعالى بعد نزوله على قلب النبي ﷺ حين رجع من حِرَاء يرجف فؤاده، فدخل على خديجة فقال:" **زمِّلُوني زملوني**"، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: "**ما لي؟**" وأخبرها

الخبر، "**لقد خشيت على نفسي**"، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ [1]، وتُكْسِب المعدوم [2] وتَقرِي الضيف [3]، وتعين على نوائب الحق [4] [5] .

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه، وتؤازره في أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه في مغارم الجهاد المرّ، وتواسيه بنفسها ومالها، يقول رسول الله ﷺ : **(آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرمتُه من غيرها)** [6] .

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك

---

١ - تَحمِل الكَلّ: تعطي صاحب الفقر ما يريحه من ثقل مؤونة عياله .

٢ - تُكسِب المعدوم: تبذل العطاء للفقير .

٣ - تَقْرِي الضيفَ: أي تُكْرمه في تقديم ضيافته وإحسان مأواه .

٤ - تعين على نوائب الحق: أي إذا وقعت مهمة من مهمات الإنسان لأحد أعنت فيها بالخير .

٥ - الكل: الثقل، ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك، وكسب المعدوم وهو إعطاء الفقير تبرعاً، والنوائب: الحوادث .

٦ - رواه الإمام أحمد في مسنده: ٦/ ١١٨ .



فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قَصَبٍ لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ)1(.

ولذلك لما وقع في أسرى بدر خَتَنُه أبو العاص زوج زينب بنت رسول الله ﷺ وخديجة، وكانت قد بعثت في فدائه بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة، أدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة، واستأذن أصحابه في إطلاق أبي العاص ففعلوا، واشترط رسول الله ﷺ على أبي العاص أن يُخْلِيَ سبيل زينب، فخلاها فهاجرت إلى رسول الله ﷺ.

من هنا اخترت السيدة خديجة نموذجاً للمرأة الحرة المؤمنة المخلصة، وأول امرأة تتبع زوجها وتدخل الإسلام مخلصة في كل مواقفها على الرغم من كل الضغوط التي واجهت بداية الدعوة .

السيرة العطرة: في رحاب الطهر والبركة، وفي ظلال النقاء والفضيلة، نتفيأ بظلال سيرة أطهر نساء العالمين، أم المؤمنين)2(الأولى، خديجة بنت خويلد – القرشية الأسدية- زوج سيدنا محمد وحبيبنا رسول الله ﷺ .

---

١ - صحيح البخاري: باب تزويج النبيﷺ خديجة وفضلها ١/ ٥٣٩ .

٢ - يقال لأزواج النبيﷺ أمهات المؤمنين، الرجال دون النساء، بدليل ما رواه (ابن سعد والبيهقي) عن مسروق أن امرأة قالت لعائشة: يا أمّة، فقالت: لست لك بأمٍ، إنما أنا أم لرجالكم . أخرجه ابن سعد في الطبقات: ٨/ ٦٤،

ونشأت خديجة ﵂ على الفضائل، واتصفت بالعفة والشرف والسمو، فكانت امرأة عالية الهمة واسعة الأفق، مفطورة على التدين والطهر، حتى عرفت في الجاهلية " بالطاهرة" .

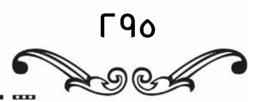
كانت خديجة بنت خويلد ﵂ زوجاً لأبي هالة بن زرارة التميمي، فمات عنها، ثم خلفه عليها عتيق بن عابد المخزومي، ثم تزوجها النبي ﷺ، فكان لها في سيرته أطيب الأثر!! .

وكانت خديجة ﵂كثيرة الإصغاء إلى أحاديث ابن عمها ورقة بن نوفل عن الأنبياء، وكانت تشعر بأن شيئاً ما يسيطر على أحلامها ويجعلها تشعر بالاطمئنان والسكينة .

وذات ليلة [1] رأت فيما يرى النائم شمساً عظيمة تهبط من سماء مكة لتستقر في دارها، وتملأ جوانب الدار نوراً وبهاء، ويفيض ذلك النور من دارها ليغمر كل ما حولها بضياء يبهر النفوس، هَبَّتْ من نومها، فإذا الليل ما يزال

والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٧٠، وقال القاضي ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ٥٤٢: (قيل: ذلك عام في الرجال و النساء، وقيل: هو خاص للرجال، لأن المقصود بذلك إنزالهن منزلة أمهاتهم في الحرمة حيث يتوقع الحِلَ، والحِلَ غير متوقع بين النساء، فلا يحجب بينهن بحرمة، وبذلك فإن أمهات المؤمنين يعني في تعظيم الحرمة، وتحريم نكاحهن على التأبيد، كالأمهات، هذا كما ورد في كتاب أزواج النبي للإمام محمد ابن يوسف الصالحي الدمشقي، ط دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م، ص٣٥ .

١ - نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، ص ١٨-٢٠ بتصرف .



يسربل الدنيا بالسواد، بيد أن ذلك النور الذي بهرها في المنام لا يزال مشرقاً في وجدانها، ساطعاً في أعماقها .

تساءلت خديجة . . . شمس في داري؟! .

نور يضيء الدنيا من هذا البيت؟! إن هذا لشيء عجيب؟! .

وعند الصباح هبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لتجد تفسيراً لحلمها البهي في ليلتها الظلماء، وراحت تقص عليه ما رأت في منامها .

كان ورقة يصغي إلى خديجة في اهتمام، ما إن انتهت خديجة من كلامها حتى تهلّل وجهه بالبِشْر، وارتسمت على شفتيه ابتسامة الرضا، ثم قال لخديجة في هدوء ووقار: أبشري يا ابنة العم، لو صدق الله رؤياك ليدخلن نور النبوة دارك، وليفيض منها نور خاتم النبيين . . . الله أكبر . . . . ماذا تسمع خديجة؟

وشردت لحظات . . . . وسرت في بدنها قشعريرة!! .

أفاقت من شرودها، وراحت تسأل ورقة بن نوفل عن خاتم النبيين وعن صفته، وعن أحواله، وابن عمها يجيبها في هدوء العلماء العارفين .

وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال وتجارة واسعة، وتستأجر من الرجال في مالها من تثق بهم ليتجروا لها .

وكانت أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، وصفاته العطرة، تنتشر في كل مكان، وكان يُعرف بالأمين، ويلتقي نسبه مع نسبها في قصي بن كلاب [1] .

وعُرف عن خديجة أنها صاحبة فراسة ونظرة ثاقبة، فرأت في محمد ﷺ الشاب الأمين الذي تريده لتجارتها، فكان لها ذلك .

لمست خديجة صدق محمد ﷺ وأمانته وكرم أخلاقه، فكانت تجزل له العطاء.

كان السادات والرؤساء من مكة يحرصون على الزواج من خديجة رضي الله عنها، فتأبى ذلك وتردهم رداً جميلاً، لكنها كانت تحس إحساساً غامضاً أن القدر الإلهي يخبئ لها شيئاً سيدخل الطمأنينة إلى قلبها .

وعاد الرسول الكريم إلى مكة، وكان يرافقه ميسرة، وحدّث خديجة رضي الله عنها عن أمانته وكرم خلقه، وحسن صحبته، وأدلى لها بما رآه من إرهاصات النبوة التي لمسها فيه [2]، ومنها أنه إذا كانت الهاجرة واشتد الحر فيرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره [3] .

---

١ - أزواج النبي، الإمام محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي، ونساء مبشرات بالجنة، أحمد خليل جمعة، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م: ١/ ١٨ .

٢ - سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٢، والسيرة النبوية لابن كثير: ١/ ٢٦٣، والسمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، للإمام محب الدين الطبري أحمد بن عبد الله الطبري، ط دار المعرفة بيروت: ط١ . والطبقات الكبرى لابن سعد، ط دار صادر بيروت، ١/ ١٣٢ . والمفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم، د . عبد الكريم زيدان، ج١١، ط مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

٣ - نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، ص٢٣ .



وهنا أَفْضَتَ عما يدور في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية، عن إحساسها تجاه محمد عليه الصلاة والسلام، فذهبت إلى النبي ﷺ وسألته: لِمَ هو ممتنع عن الزواج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوج به، قالت: فإن كُفيت ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة . . . ألا تجيب؟! .

ولم تمض أيام قليلة حتى تم الزواج بوساطة صديقتها نفيسة، وتمت الخطبة عن طريق عمه أبي طالب، وكان زواجاً مباركاً، وبزواج محمد ﷺ من خديجة رضي الله عنها بدأ صفحة جديدة من حياته، وبدأت المرحلة الأولى في قصى حياته مع خديجة رضي الله عنها، فانتقل إلى بيتها، فكانت له نعم العون على ما لاقاه من صعاب في سبيل الرسالة الكريمة التي اختاره الله لها .

وسطع نجمها وبان فضلها وسادت نساء الدنيا بهذا الزواج المبارك، فكانت الطاهرة خديجة بنت أربعين في سن اكتمال الأمومة، أما محمد ﷺ ففي سن اكتمال الشباب ابن خمس وعشرين عاماً .

وعاشت معه أربعاً وعشرين سنة زوجته الوحيدة، وسيدة البيت، فكان لها الدور الهام في حياته ﷺ .

وفي هذا الزواج المبارك كانت خديجة رضي الله عنها الزوجة الوفية في حبها، والأم الحنون في عطفها، وضربت أروع الأمثلة في الإيثار والكرم مع زوجها، إذ

شعرت بأن زوجها عليه الصلاة والسلام يحب زيد بن حارثة مولاها، فوهبته له، فازدادت بذلك منزلة في نفسه .

ولما كفل رسول الله ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجد لدى خديجة رضي الله عنه أماً عطوفاً وقلباً حنوناً .

وأكمل الله عليهما السعادة بالأبناء فولدت له غلامين وأربع بنات، القاسم وعبد الله، وفاطمة، وأم كلثوم، وزينب، ورقية، ومات بنوه كلهم في صغرهم، أما بناته كلهن فأدركن الإسلام، كما أدركتهن الوفاة في حياة النبي ﷺ، إلا ابنته فاطمة، فقد توفيت بعده بستة أشهر [1] .

وتنفرد السيدة خديجة رضي الله عنها من بين نساء النبي ﷺ بأنها وحدها التي عرفته رجلاً، وزوجاً قبل مبعثه ﷺ، ومن هنا كانت وقفتنا عند حياتها الزوجية نتلمس فيها شخصية (الرجل المتزوج) [2] وعلاقة هذه الزوجة الطاهرة مع زوجها قبل مبعثه .

---

١ - الروض الأنف للسهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن، ط الطباعة المتحدة بالقاهرة، بدون تاريخ: ١/ ٢١٤ . والبداية والنهاية لابن كثير ٣/ ١٢٧، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، ط١، ص١٣٣-١٩٩ .

٢ - تراجم سيدات بيت النبوة، د . عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، دار الحديث القاهرة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص١٦١ .



لقد كانت خديجة رضي الله عنها خير الزوجات حيث هيأت للنبي ﷺ بيتاً هانئاً هادئاً، أعانته فيه على حياته وشدت من أزره، وهدأت خاطره، وأزالت عوامل القلق والحرج التي كان يجدها ﷺ في بعض فتراته الأولى .

وكان يأنس إليها ويحدثها بما يكون قد رأى وسمع في خلوته بمتعبده أو في مرجعه إليها، فيجد عندها من مشاعر الود والحنان ما يخفف من آثار ما عسى أن يكون قد شق عليه، فيجد عندها الراحة والسعادة، وكانت تشجعه وتثبته وتعينه وتواسيه .

هذه هي الزوجة الحانية، تحنو عليه ساعة قلقه وتؤازره في أحرج أوقاته، وتقول له: أبشر فإن الله عز وجل يصنع بك خيراً [1] .

وكانت رضي الله عنها تحب من يحب زوجها، وتكرم من يحبه إكراماً يرضى عنه ويسر به، حدث مرة أن زارته السيدة حليمة السعدية [2] مرضعة النبي ﷺ ففرح بقدومها، وما إن سمع صوتها حتى أسرع إليها في لهفة وحنان فأكرمتها

---

١ - أمهات المؤمنين، محمد فتحي سعد، ص١٨ . وأضواء من السيرة العطرة، مأمون غريب، ط مركز الكتاب للنشر، ط ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص٤٠-٤١ بتصرف . والمحمديات، فتحي الإيباري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ١/ ٢٩٠- ٢٩٣ . والمرأة في الكتاب والسنة، يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، مكتبة الشرق الجديد بغداد، ص٩٧ -٩٩ بتصرف .

٢ - نساء أهل البيت، لأحمد خليل جمعة: ١/ ٩-٢١ .

خديجة بأربعين رأساً من الغنم، وبعيراً يحمل الماء، وزودتها بما تحتاجه في رجوعها إلى باديتها .

إنها تسعى لكل ما يسعد زوجها فتفعله راغبة ساعية حتى تنال رضاه ﷺ .

كما كانت تقوم بدورها كأم مسؤولة عن تنشئة أولادها التنشئة الصالحة، ليكونوا خيراً على أسرتهم ومجتمعهم، وما كان الأولاد ليكونوا شراً محضاً لو أن الوالدين – ولا سيما الأم- عرفا مسؤوليتهما إزاء أولادهما وقاما بتبعات تلك المسؤولية خير قيام .

ويحضرنا في هذا المقام دور امرأة [1] (نوح ولوط) عليهما السلام، اللتان كانتا في بيت نبوة، وأكرمهما الله تعالى بأن جعلهما زوجتين لنبيين، ولكن لم تقوما بدورهما في مساندة زوجيهما في دعوتهما، ولم نجد لهما الأثر الطيب في توجيه أولادهم نحو الخير، فساء مصيرهما مع القوم الظالمين، وشتان ما بين النور والظلام! .

رفرفت السعادة بأجنحتها على قلبيهما، أحبت خديجة رضي الله عنها زوجها ﷺ حباً جماً، حب الزوجة لزوجها الكريم الذي تمثلت في مكارم الأخلاق ومعالي المكارم، وكانت تهيئ لرسول الله ﷺ كل أسباب الراحة والاستقرار، فما كانت

---

١ – شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام، د . محمد علي الهاشمي، ص٢٢٦ .

تبخل عليه بمالها، وكريمة بعواطفها ومشاعرها، وتكرم كل من يحبه إكراماً يملأ النفس رضاً وسروراً .

لقد كانت خديجة رضي الله عنها الزوجة الوفية بفطرتها لزوجها، فكانت أعرف الناس بجلال مقامه عند الله، فقد عرف محمد ﷺ ربه قبل أن يُبعث، وأشرق قلبه بنور الله، فأرشده إلى طريق الحق حتى إذا ما أتم الله تدريبه وإعداده لتحمل نزول الوحي عليه كُلّف بالرسالة .

فقد حُبِّبَ له ﷺ الخلوة، وكانت الطاهرة خديجة إذا نهضت في الصباح الباكر لتتفقد زوجها عليه الصلاة السلام فلا تجده، تعرف أنه في خلوته، فلا تمانع ذلك لأنها عاقلة وأكثر دراية بالأمور مما يراه غيرها، وإنما حاولت أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فإذا ما انطلق إلى غار حراء للعبادة، ظلت عيناها ترعاه من بعيد ولم تكتف بهذا، بل كانت ترسل وراءه من يحرسه ويرعاه دون أن يقتحم عليه خلوته، أو يعكر صفاءه، أو يقطع صلته بربه في ذلك الغار [1] .

---

١ - السيرة النبوية لابن كثير: ١/ ٢٥٣ والسمط الثمين للطبري، ص ١٩، وتراجم سيدات بيت النبوة، د . عائشة بنت الشاطىء، ص٢٢٧، وحياة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، محمود شلبي، دار الجيل بيروت، ص١٨٠ .

هل هناك أروع من هذه المودة والرحمة التي ترعى فيها زوجها من قريب أو بعيد، فأين هي من زوجتَي نبيَّيْن خانتا زوجيهما، وهما (امرأة نوح وامرأة لوط)، فقد كانتا على نقيض في موقفهما من خديجة!! .

وبدأت المرحلة الثانية من حياة محمد ﷺ مع خديجة رضي الله عنها ، بالرؤيا الصادقة، أول ما نزل عليه من نور النبوة، إذ لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، فكان يلجأ إلى زوجه العاقلة الحصيفة ليحكي لها ما أحس به، وإذا بالروح الأمين جبريل عليه السلام يكلفه الله برسالة هداية البشرية جمعاء، ودعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

قال ابن قيم الجوزية [1] رحمه الله في كتابه القيم زاد المعاد: " فلما كمل له ﷺ أربعون، أشرقت عليه أنوار النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، واختصه بكرامته، بعثه إلى خلقه، وجعله أمينه بينه وبين عباده" .

---

١ - زاد المعاد لابن قيم الجوزية، ط البابي الحلبي، ١٣٦٩هـ، ط : ١/ ١٠٥ . وعيون الأثر: ١/ ٦٢، والروض الأنف: ١/ ٢١٥، ودلائل النبوة للبيهقي: ٢/ ٦٨، والكامل لابن الأثير: ٢/ ٣٩ . ونساء أهل البيت لأحمد خليل جمعة، ص٣٩ . والسيرة العطرة محمد خاتم الرسل، عبد العزيز خير الدين، دار الفكر العربي ط ١٩٦٩، ص١٤٨.



وفي بداية نزول الوحي (جبريل الأمين) على سيد المرسلين ﷺ، كانت خديجة رضي الله عنها ذات أثر كبير عليه، وفضل جسيم في هذا الموقف العظيم .

وفي غار حراء وبينما النبي ﷺ مستغرق في مناجاته مع ربه، إذ جاءه الوحي قائلاً له: اقرأ، فقال النبي ﷺ : " ما أنا بقارئ" . فأخذه جبريل وضمه ضماً شديداً حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، فقال له: اقرأ . فقال النبي ﷺ : " ما أنا بقارئ" فأخذه وضمه ثانية وثالثة، ثم قال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ﴾[العلق: ١ – ٢] .

فرجع النبي ﷺ إلى خديجة راجفاً قلبه، وأخبرها بما رأى، وهو يقول: " **زَمِّلُوْنِي زملوني**"، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: " **لقد خشيت على نفسي**" فنزلت آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ ﴾ [المدثر: ١ – ٣] .

وهنا يتجلى دور المرأة الزوجة " خديجة" رضي الله عنها فيبدو منها سداد الرأي، ورجاحة العقل، وقوة القلب، فأقبلت عليه تهدّئ من روعه بحنان الأم، ومودة الزوجة [1] .

---

١ - فقه سيرة نساء النبي (مواقف وقضايا) سعيد هارون عاشور، دار الرقي للطباعة والنشر والتوزيع، ص٣٢-٣٣ .

لم تكن السيدة خديجة أقوى منه ﷺ أمام هذا النبأ العظيم، ولكن ما جمّلها الله به من بُعد الإدراك والحصافة وسلامة الفطرة أعطاها القدرة على استقبال أمور عظيمة، لأنها خلقت لتكون زوجة لذلك النبي ﷺ الذي آتاه الله تعالى أعظم الأمور، وكلّفه بأعظم المهام .

فكانت رحلة السيدة خديجة الإيمانية بدايتها، عندما بدأت بتصديق النبي ﷺ يوم قالت له : (كلا لا يخزيك الله أبداً) [1] ثم أتت بأدلة عقلية على ذلك – ولكن ليطمئن قلبي- (إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ، وتُكْسِب المعدوم، وتُقْرِي الضيف، وتُعِين على نوائب الحق، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة) [2] .

وتتجلى صورة من صور إيمانها الكامل بالله ورسوله يوم وفاة ابن لها مات صغيراً لم يستكمل رضاعته، فقال لها النبي ﷺ : إنّ له مرضعاً في الجنة، فقالت: لو أعلم ذلك لهون عليّ، فقال: إن شئت أسمعتك صوته في الجنة، فقالت: بل أصدق الله ورسوله [3] .

١ - رواه البخاري : كتاب التفسير، باب : سورة العلق، رقم (٤٦٧٠) .

٢ - خديجة أم المؤمنين، عبد الحميد الزهراوي، المكتبة الإسلامية، ص١٣٠-١٣١ بتصرف .

٣ - سنن ابن ماجه حديث: ١٥١٢، كتاب الجنائز .

قال ابن إسحاق رحمه الله: (كانت خديجة أول من آمن بالله وبرسوله وصدقت بما جاء، وآزرت النبي ﷺ على أمره، فخفف الله بذلك عن رسول الله ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه، وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدق وتهون عليه أمر الناس رضي الله عنها)[1] .

قال ابن إسحاق: حدثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير أنه حدث عن خديجة أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا بن عم هل تستطيع أن تخبرني بصاحبك الذي يأتيك إذا جاء، قال: نعم . فبينما رسول الله ﷺ عندها إذ جاءه جبريل، فقال رسول الله ﷺ : هذا جبريل قد جاءني، فقالت أتراه الآن . . قال: نعم . قالت: اجلس على شقي الأيسر . فجلس: هل تراه الآن . قال: نعم . قال: فاجلس على شقي الأيمن . فجلس، فقالت: هل تراه الآن . قال: نعم . قالت: فاجلس في حجري . فتحول رسول الله ﷺ فجلس . فقالت: هل تراه. قال: نعم . قال: فتحسرت وألقت خمارها . فقالت: هل تراه . قال: لا، قالت: ما هذا شيطان، إن هذا الملك يا بن عم، اثبت، وأبشر، ثم آمنت وشهدت أن الذي جاء به الحق [2] .

---

١ - السيرة النبوية: ١/ ٢٤٠ .

٢ - موسوعة حياة الصحابيات، محمد سعيد مبيض، مكتبة الغزالي سوريا، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، ص٣٢٨ .




ودلت هاتان الحادثتان على كمال عقل خديجة وقوة يقينها:

١- لما جاءها رسول الله ﷺ يرتجف فزعاً من رؤية الملك لأول مرة، حيث فاجأه في غار حراء، قالت له في ثقة المؤمن الموقن المطمئن: كلا والله لا يخزيك الله أبداً . فاستدلت على أن المعروف، صاحبه لا يخيب ولا يخسر .

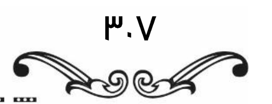
٢- لما أخبرها بأمر الملك الذي أرسل إليه وهو جبريل عليه السلام، قالت له: يا ابن عم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك الذي يأتيك إذا جاءك؟ .! فاستدلت على أن الذي يأتي زوجها رسول الله ﷺ إنما هو مَلَك وليس بشيطان . لأن الملك لا يجالس المرأة الكاشفة الرأس، فهو يدعو إلى البر، أما الشيطان فإنه يجالس المرأة الكاشفة الرأس لأنه يدعو إلى الفجور [1] .

وهذا نرى أن خديجة لها دور في حياة محمد ﷺ في كل مرحلة من مراحل النبوة، والدعوة . . وانطلقت خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى – ابن عم خديجة- وكان امْرَأً قد تَنَصَّر في الجاهلية، وكان يكتب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل [2] .

---

١ - المرأة والإسلام، بكر عيتاني، دار الصداقة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص١١٣ .

٢ - حياة أم المؤمنين خديجة عليها السلام، محمود شلبي، دار الجبل بيروت، ص١٨٧ .



فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ، فقال ورقة بن نوفل: قدوس قدوس [1]، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس [2] الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبيّ هذه الأمة، فقولي له: فليثبت، فكانت البشرى الكبرى من ورقة بن نوفل .

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل، فلما قضى رسول الله ﷺ حواره وانصرف، صنع كما كان يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل، وهو يطوف بالكعبة، فقال: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ فقال له ورقة: والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي –جاء موسى، يا ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ : أو مُخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُوديَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مُؤَزَّرَاً، ثم لم يَنْشَبْ ورقة أن توفي، وفَتَرَ الوحي [3] .

---

١ – قدوس: أي طاهر، وأصله من التقديس، وهو التطهير .

٢ – الناموس في الأًصل: صاحب سر الرجل في خيره وشره، فيعبر عن الملك الذي جاءه بالوحي به .

٣ – رواه البخاري، انظر فتح الباري (١/ ٣٠)، حديث رقم: ٣، وأخرجه البخاري كذلك في مواضع عديدة برقم: (٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥) . انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٢٠٤-١٩٧) . وأخرجه أحمد في المسند (٦/ ٢٣٣-٢٣٢) .

وقد روي أن ورقة قال يخاطب الطاهرة خديجة في ذلك:

فإن يك حقاً يا خديجة فاعلمي حديثك إيانا فأحمد مرسل
وجبريل يأتيه وميكال معهما من الله روح يشرح الصدر منزل [1]

وفي هذا الحديث يتبين لنا مقدار ما وصلت إليه خديجة رضي الله عنها من ثبات يقين، واكتمال معالم شخصيتها التي تفردت بها في عالم النساء في عصر النبوة، فكانت أول من آمن بالله وبرسوله، وصدق بما جاء منه، وقال عز الدين ابن الأثير: (خديجة أول خلق الله إسلاماً بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة) [2] .

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله: (بادر إلى الاستجابة له ﷺ من النساء خديجة بنت خويلد، وقامت بأعباء الصّديقية فعلمت بكمال عقلها وفطرتها أن الأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة والشيم الشريفة تناسب أشكالها من كرامة الله، وتأييده وإحسانه، ولا تناسب الخزي والخذلان، وإنما يناسبه أضدادها، فمن ركبه الله على أحسن الصفات وأحسن الأعمال إنما يليق به

---

١ - البداية والنهاية ٣/ ١١، ونساء مبشرات بالجنة، أحمد خليل جمعة (١/ ٢٩) .

٢ - أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، ط دار إحياء التراث العربي، والكامل في التاريخ: ٢/ ٥٧، ونقل الإمام النووي عن الثعلبي رحمهما الله تعالى: (إن اتفاق العلماء على أسبقية خديجة إلى ساحة الإيمان بالله ورسوله، إنما اختلافهم أول من أسلم بعدها) .

كرامته، وإتمام نعمته عليه، وبهذا العقل والصديقية استحقت أن يرسل إليها ربّها بالسلام منه مع رسوله جبريل ومحمد ﷺ) [1] .

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **" أتاني جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك ومعها إناء في طعام أو إدام أو شراب، فإذا هي قد أتتك فاقرأ عليها من ربها السلام ومني"** [2] .

قالت خديجة: إن الله هو السلام، وعلى جبريل عليه السلام، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته [3] . رضي الله عنها يدل على فقهها ووفور عقلها وحسن تأديبها، وزاد على ذلك:

إن هذا الجواب من الطاهرة خديجة " بشرها في الجنة ببيت من قصب لا صَخَب فيه ولا نَصَب" [4] .

---

١ - زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، ٣/ ١٩ مختصراً .

٢ - أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها، (٣٨٢٠)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، (٢٤١٢) .

٣ - السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، للطبري، ص٧٥ .

٤ - صحيح البخاري ٧/ ١٣٤، ورواه مسلم في صحيحه: ١٥/ ١٩٩، ومعنى بيت من قصب: المراد به لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف، ومعنى لا صخب: لا صياح ولا منازعة برفع الأصوات . ومعنى لا نصب: لا تعب به .

وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في الفتح قال: (كان لخديجة من الاستواء ما ليس لغيرها، إذ كانت حريصة على إرضائه بكل ما أمكن، ولم يصدر منها ما يغضبه قط، كما وقع لغيرها) [1] .

وقال السهيلي ما ملخصه في تعليقه على كلمة بيت: لذكر البيت معنى لطيف، لأنها كانت ربة بيت قبل المبعث، فصارت ربة بيت في الإسلام منفردة، لم يكن على وجه الأرض في أول بعثة رسول الله ﷺ بيت في الإسلام إلا بيتها، وهي فضيلة ما شاركها فيها غيرها .

ومن فضائل أم المؤمنين أيضاً أنها أول من صلى، وأول من توضأ من النساء على الإطلاق، فهي تسبق الجميع في هاتين الفضيلتين إلى يوم القيامة، وإن قيل: من أول من صلى في الإسلام من الرجال والنساء؟ قيل: خديجة عليها السلام [2] .

فمكثت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها تصلي مع النبي ﷺ الصلاة التي كانت وهي ركعتان في الغداة وركعتان في العشي، سراً، وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس في ليلة الإسراء .

---

١ - فتح الباري لابن حجر العسقلاني، حديث رقم: (٣٨١٦) .

٢ - حياة أم المؤمنين، محمود شلبي،ص ٢٠٢ .

لقد ضربت خديجة رضي الله عنها مثلاً في الصبر في الخطوات الأولى لسير الرسالة النبوية، فعندما نهض الرسول الكريم ﷺ برسالته بشيراً ونذيراً ودعا قومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، كان موقف قومه أن كذبوه وخذلوه في دعوته، فكانت خديجة تخفف قدرَ ما استطاعت، لكن قريشاً تمادت في طغيانها، وقاطعت بنو هاشم مقاطعة كاملة ثلاث سنين، ودخلت الطاهرة أم المؤمنين رضي الله عنها مع الرسول الكريم ﷺ حصار الشعب [1] .

واشتدت الأزمات، وتفاقمت الأحداث، واستشرى الأمر بين رسالة رسول الله ﷺ وبين الطغيان الوثني المتمثل بصناديد قريش، غير أن المسلمين صبروا وصدقوا رسول الله، وظلت أمّنا الطاهرة رضي الله عنهامن وراء الرسول ﷺ تشد من أزره وتشاركه في حمل الأذى من قومه بنفسٍ صابرة محتسبة، وترعاه وتشجعه مما يخفف عنه آلام الدعوة، وإن السيدة خديجة رضي الله عنها كانت تدعو من تعرف من جماعة النساء إلى الإيمان بالله عز وجل وبرسوله محمد ﷺ، ولا شك أنها كانت تجد بعض الإعراض من النسوة اللاتي كانت تدعوهن إلى صراط العزيز الحميد .

---

١ - نساء مبشرات بالجنة لأحمد خليل جمعة: ١/ ٣٦، وموسوعة حياة الصحابيات لمحمد سعيد مبيض، ص٣٣١-٣٣٢ بتصرف .

وبالغت قريش في المقاطعة، فقد رصدت عليهم الحراس والعيون حتى لا يصلهم طعام، كما كانت تبادر قريش بشراء أية تجارة وافدة على مكة بأسعار مرتفعة حتى تعجز أهل الشعب عن الشراء، وطالت مدة المقاطعة . . وكاد الجميع أن يهلك جزعاً، حتى أكل بعضهم ورق الشجر .

وفي هذه الحياة القاسية عاشت السيدة خديجة الثرية المرفهة بجوار نبيها وزوجها تفيض عليه حناناً وحباً لا تشكو ولا تتبرم، بل صابرة مواسية [1]، مما كان لأيام الحصار الأثر السيئ على صحة خديجة ﵂ ، وقضى الله تعالى أن تنتهي هذه المقاطعة المريرة ومُزقت الصحيفة الظالمة، وجاء الفرج الإلهي، وخرجت الطاهرة والمسلمون من الحصار وهم يكبرون الله أكبر الله أكبر، وقد سجلت صوراً عديدة مشرقة من الصبر والثبات للمرأة المسلمة التي تساند زوجها في السراء والضراء، وتؤمن بالله ورسوله .

لقد كان للمرأة في حياة الرسول الكريم ﷺ أعمق الأثر في سيرته ودعوته، فكان لها الأثر الكبير والدور الرئيسي في قصتها مع سيد الأنام، ومبعثاً لتحريك الحدث وتطويره، إننا نجد صداها في كل موقف، وفي كل حدث، من تطور القصة من قريب أو بعيد، لقد ضَحَّتْ خديجة ﵂ بأموالها وراحتها في سبيل الله تعالى، وإعلاء كلمته .

---

١ - فقه سيرة نساء النبي (مواقف وقضايا)، سعيد هارون عاشور، ص٣٢-٣٣ .



قضت السيدة الطاهرة في كنف زوجها رسول الله ﷺ أشق مراحل الدعوة، فكانت حياتها معه أوفى حياة زوجة لزوجها، وأكبر شريكة لشريكها، كانت تشاركه آلامه ومسراته، وتهيئ له أسباب تفرغه لعبادة ربه تخدمه بعقلها وروحها ووجدانها، وترد عنه عاديات الزمن وعداوة قومه، حتى إذا جاءته النبوة كانت أول من آمن به وصدقه، وعندما حدثها عن الوحي، علمت بفراستها الواعية أن مسيرتها مع زوجها ﷺ لم تعد حياة زوجية يملؤها دفء الحنان، لكنها ارتقت إلى حياة جديدة، معالمها حياة رسالة ودعوة تهدم الشرك وتعمر التوحيد، فكانت وزيرة صدق، ورفيق إخلاص ووفاء وفداء، فالرسول ﷺ هو الصادق الأمين اجتباه الله تعالى أميناً للرسالة، فقدرت خديجة رضي الله عنها هذه المهمة المقدسة .

فكانت خير زوجة وخير شريك، في وفائها لزوجها وتربية أولادها تربية صالحة تكون هي وهم عوناً له في رسالته، لا عوناً عليه، كما رأينا في القصص السالفة لبعض الأنبياء وزوجاتهم وبعض أولادهم . كان الرسول ﷺ أحوج ما يكون وهو يخوض نضالاً مريراً في سبيل تبليغ رسالته إلى عاطفة الوفاء في زوجة صادقة الإيمان برسالته، تسكب في قلبه برداً وسلاماً عندما يعود إلى بيته، فيحدثها في هذا الجو المفعم بالإيمان عما يرى ويسمع، فكانت تهون عليه

الصعاب، وتجدد فيه العزائم، فيخرج من جديد إلى قومه فسيح الآمال صابراً محتسباً قويَّ العزيمة .

وبهذا الأدب الإلهي عاشت خديجة ﵂ في كنف زوجها ﷺ تتقاسم معه الإحساس بأعباء الرسالة المحمدية .

ولبت خديجة نداء ربها في السنة العاشرة من نزول الوحي، وقبل الهجرة بثلاث سنوات، ولها من العمر ستون سنة مُبَشَّرَةً من الرسول الله ﷺ بالنعيم المقيم في جنان النعيم .

وتبدأ المرحلة الثالثة من حياة النبي ﷺ بتوقف حياة أم المؤمنين خديجة، وانتقالها إلى الرفيق الأعلى ولكن الحياة الحقيقية للسيدة خديجة ﵂ ما زالت مستمرة إلى ما شاء الله، لقد رافقت ذكرياتها الطاهرة، وصورتها خيال الرسول ﷺ .

لقد تركت في وفائها في نفسه ألماً وأثراً عميقاً، إذ يقول ابن سعد: " وجد الرسول ﷺ على خديجة حتى خُشِيَ عليه" [1]، إذ فقد الزوجة التي يجد فيها سكن النفس وراحة الروح، وسمي هذا العام عام الحزن، حيث كانت الفاجعة فيه مزدوجة، بوفاة عمه أبي طالب وزوجه ﵂.

---

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٤١، وتاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن، ج١، ط٣، ١٩٥٣، مكتبة النهضة المصرية مصر، ص١٩٥٣ .

وقد ورد في فقه السيرة للبوطي رحمه الله في سبب تسميته بعام الحزن: (بعض الناس يحسبون أن سبب التسمية لهذا العام عام الحزن إنما هو مجرد فقده ﷺ لعمه أبي طالب وزوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وربما استساغوا إقامة علائم الحزن والحداد على موتاهم مدة طويلة من الزمن مستدلين بهذا، والواقع أن هذا خطأ في الفهم والتقدير) [1] .

ففي هذا العام تتابعت على الرسول ﷺ المصائب فكان عاماً عصيباً، وكانت خديجة رضي الله عنها وزيرة صدق على الإسلام فيسكن إليها [2]، فغلب عليه الوجد والوحشة لفراقها .

فاجتمعت كل هذه الأسباب لتجعل من عامه عام حزن، فطر قلبه حتى كاد يُخشى عليه!!

ومع موت خديجة رضي الله عنها كانت مرحلة جديدة قد بدأت تتهيأ للرسول ﷺ، فها هي خديجة قد أصبحت تحت الثرى، وأصبحت مكة موحشة من جديد، وبدأ المسلمون يستعدون للهجرة إلى يثرب، ويمضي الزمن سريعاً، وتتوالى السنون وخديجة لا تزال حية ماثلة في ذاكرة الرسول ﷺ، وكأن لم يكن في الدنيا

---

١ - فقه السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطي، ونساء مبشرات بالجنة، أحمد خليل جمعة: ١/ ٣٨ .

٢ - السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ٥٧، وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٢٩، وتراجم سيدات بيت النبوة، د . عائشة عبد الرحمن، ص٢٣١ . ومئة أوائل من النساء، سليمان سليم البواب، دار الحكمة دمشق، ص٧٧ .

امرأة سواها، كما قالت عائشة رضي الله عنها ، قال فيها رسول الله ﷺ : **" إني قد رُزقت حبها"** [1] .

وكان الرسول ﷺ يحسن الثناء عليها، ويبالغ في تعظيمها، بحيث إن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: (ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة من كثرة ذكر النبي ﷺ لها) [2] .

وكان النبي ﷺ يحبها ويكرمها ويثني عليها، وفي حقها قال ﷺ : **" كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"** [3] .

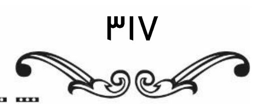
وقال ابن كثير في السيرة، وغيره من العلماء تعقيباً على هذا الحديث: (القدر المشترك بين الثلاث نسوة، آسية ومريم وخديجة، أن كلاًّ منهن كَفَلَت نبياً مرسلاً، وأحسنت الصحبة في كفالتها، وصدّقته حين بُعث، مريم كفلت ولدها أتم كفالة وأعظمها، وصدقته حين أرسل، وخديجة رغبت في تزويج

---

١ - رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب : فضائل خديجة أم المؤمنين، رقم (٦٤٣١) .

٢ - سير أعلام النبلاء: ١/ ١١٠، والحديث أخرجه البخاري ومسلم الترمذي في باب مناقب أزواج النبيﷺ

٣ - أخرجه البخاري، كتاب : الأنبياء، باب : قول الله تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ ﴾ [التحريم: ١١]رقم (٣٢٣٠).



رسول الله ﷺ، وبذلك بذلت أموالها كما تقدم، وصدقته حين نزل عليه الوحي من الله عز وجل، وآسية ربت موسى، وأحسنت إليه، وصدقت به حين بُعث)[1] .

ومن كرامتها عليه ﷺ أنه لم يتزوج امرأة قبلها، ولم يتزوج عليها قط، إلى أن قضت نحبها رضي الله عنها، وكل أولاده منها ما عدا إبراهيم بن مارية القبطية .

وبقي النبي الكريم ﷺ وفياً لها، يثني عليها دائماً، ويحب من يحبها، ومن وفائه لذكراها الإحسان إلى كل من يمت إليها بسبب، إذ جاءت امرأة عجوز من صويحبات الطاهرة خديجة، فأحسن لقاءها واكرم مثواها، وبسط لها رداءه، فأجلسها عليه، وصار يسأل عن أحوالها، وتساءلت عائشة رضي الله عنها عن السبب، فقال: **" إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان"**[2] .

وهو الذي قال: **" والله ما أبدلني الله خيراً منها"** [3] .

---

١ - السيرة النبوية، لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد ج٢، دار الفكر بيروت، ط٢، ١٩٧٨، ص١٣٨ . ونساء مبشرات بالجنة، أحمد خليل جمعة، ص٤١ .

٢ - رواه الحاكم في المستدرك،رقم(٤٠) .

٣ - من حديث عائشة مرفوعاً، أخرجه الإمام أحمد في مسندها وابن عبد البر في ترجمتها .

وبهذا فإننا نرى أن الله تعالى أعدّ محمداً ﷺ لتحمّل الأمانة وتبليغ الرسالة، لكنه أعدّ له زوجة صالحة لها أثر في نجاح دعوته، (ولا شك أن الزوجة الصالحة المؤهلة لحمل مثل هذه الرسالة لها دور عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحياة، وبخاصة الأمور التي يعامل بها الناس) [1] .

فإن الدعوة إلى الله تعالى هي أعظم مهمة يتحملها البشر، فإذا وُفّق الداعية لزوجة صالحة واهتدى إليها فذاك من أهم نجاحه، وصدق رسولنا الكريم ﷺ إذ يقول: **" الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة"** [2] .

فكانت السيدة خديجة رضي الله عنها خير متاع لرسولنا الكريم ﷺ إذ كانت حسنة المظهر، نظيفة الملبس، لا تهمل أمر نفسها، قال ابن حجر: قيل إنها كانت تبالغ في تنظيف ثيابها التي تنام فيها مع النبي ﷺ [3] .

وهذا جزء من أثرها الطيب في حياة الرسول نتعطر به لتكون قدوة لمن أرادت أن تنال بيتاً في الجنة أسوة بسيدة نساء العالمين .

ومن أجل ذلك اهتمت رضي الله عنها في وصيتها للنساء بالأزواج، وتعريفهن بواجباتهن نحوهم، حتى إنها رضي الله عنها لترى أن هذه الواجبات من الأهمية بمكان،

---

١ - السيرة النبوية د. علي محمد الصلاّبي، ج١، دار التوزيع والنشر الإسلامية – مصر، ط١، ٢٠٠١، ص٩٧ .

٢ - رواه مسلم في كتاب الرضاع، رقم : (١٤٦٧)، ص١٠٩٠ .

٣ - فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ٧/ ١٣٦ .



تقول ﵂: (يا معشر النساء لو تعلمن بحق أزواجكن عليكن لجعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بحُرِّ وجهها) [1] .

إن السيدة خديجة ﵂ مثال حسن، وقدوة رفيعة لزوجات الدعاة، فالداعية إلى الله يتطلب من التضحية بالمال والوقت والنفس والدنيا ما دام ذلك في سبيل الله ومرضاته، ودعم زوجها في تحقيق ونشر رسالة ربه، وإن السيدة خديجة ﵂ جمعت بين الأخلاق والتقوى والتضحية، وبين الجمال والحسب والنسب ما أوتيت، فلم تكن شوكة في طريقه، بل كانت زهرة أمل يفوح عطرها، كلما اشتدت عليه مصائب الدنيا، فكانت خير متاع في الدنيا والآخرة .

ورحم الله من قال:

لو كانت النساء مثل هذه — لفُضِّلت النساء على الرجالِ

فما التأنيث لاسم الشمس عيب — ولا التذكير فخر للهلالِ

وإذا كانوا يقولون: إن وراء كل رجل عظيم امرأة، فنحن نقول: المرأة في هذا المقام ليست أي امرأة، وإنما لا بد أن تكون بالحلال، تتأسى بأخلاق

---

١ - ابن قيم الجوزية في أحكام النساء، ص١٢٥، والذهبي في الكبائر، ص١٥١ . وأمهات المؤمنين، محمد فتحي مسعد ص٥٤، وحُرّ وجهها: هو ما بدا منه .




الفاضلات من النساء، ويكون لها الدور الفعال في دفع الزوج إلى الأمام دفعاً صالحاً في طريق النور، وقد كانت هكذا خديجة رضي الله عنها. . . ويا نعم النساء!!



➢ المبحث الثاني

العوراء . . . . أم جميل

حمّالة الحطب

أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان

وزوج أبي لهب عمِّ الرسول ﷺ

نموذج سلبي للمرأة في عهد الرسول ﷺ

- لمحة عن معركة التباب والهلاك .
- الدين رابطة عقيدة، لا رابطة نسب وعصبية .
- الجهر بالدعوة .
- كيف قابلت قريش الدعوة .
- قصة أبي لهب وامرأته حمالة الحطب .
- ما نزل في أم جميل وزوجها " في سورة المسد" .
- سبب عدائها للرسول ﷺ .
- دورها في أحداث القصة القرآنية .
- العبر والدروس من القصة .

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم [١]

و يا ليت البكاء، يعيد العمر، ليكسب الإنسان ما خسرت يداه، ولا يفلح الظالمون .

فجزاء العاصي الخسارة في الدنيا، والعقاب في العقبى .

أما المطيع فله النصر والفتح المبين في الدنيا، وجنان النعيم في الآخرة .

لقد حققت القصة القرآنية كثيراً من هذه الدروس والعبر، فكانت خير شاهد حق لعباد الله .

فسورة المسد تجسد لنا قصة أبي لهب وامرأته، ونزلت لتردّ على هذه الحرب المعلنة منهما على حبيبنا ورسولنا الكريم ﷺ، وتولى الله سبحانه عن رسوله ﷺ أمر هذه المعركة!! إنها معركة التباب والهلاك والبوار والقطع .

وتبت الأولى دعاء . . . وتب الثانية تقرير لوقوع ها الدعاء .

ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق، وتنتهي المعركة، ويسدل الستار [2] !! هذه هي نهاية الطاغية العاصي لأوامر الله، لكننا

---

١ - البيت لعمر ابن الفارض، انظر ديوانه، قافية الميم .

٢ - في ظلال القرآن، سيد قطب، ص٤٠٠٠ .



نرفع الستار مرة أخرى لنفصّل في أحداث القصة وأبعاد شخوصها، لنستقيَ العبرة، لمن أراد الاعتبار!! .

إن الله تعالى يعطينا في هذه السورة نموذجاً عن هؤلاء الخاسرين من الرجال والنساء؟ وأي نموذج؟! عم الرسول ﷺ وزوجة عمه، وفي ذلك التحذير والإنذار، لمن سولت له نفسه عداوة وإيذاء رسوله الكريم، حتى ولو كان أقرب الناس إليه!! .

(فالدين لم يجئ دين نسب، ولم يجئ دين رابطة دم، لم يجئ ديناً قومياً، لم يجئ ديناً عصبياً، بل جاء دين من يتبع رسول الله ﷺ فهو منه، قال: " **سلمان منا آل البيت**"، وقلنا نبوة الأنبياء تنتقل إلى صلة الدعوة، لا إلى صلة النسب وضربنا المثل بنوح وابنه) [1] .

فالحق سبحانه وتعالى يضرب لنا في قصة أبي لهب وزوجه ذلك المثل في خرق حجاب الزمن المستقبل، فهذا عمر بن الخطاب ذهب ليقتل رسول الله ﷺ، فإذا به يرجع مسلماً، وهذا خالد بن الوليد وهذا عمرو بن العاص، إذاً فالسوابق الموجودة تدل على أن كثيراً من الذين آذوا رسول الله ﷺ والذين

---

١ - المختار من تفسير القرآن العظيم، للشيخ محمد متولي الشعراوي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ص١٠٨ .

كانت لهم عداوة معه (جاؤوا مسلمين)، فكيف يختار الحق واحداً من هؤلاء ليحكم بأنه لن يصيبه الإسلام .

وكأن الله تعالى قد انتقى (أبا لهب وزوجه) دون القوم الذين علم الله أزلاً أنهم سيسلمون، وقال إن هذا لن يسلم، بل بعد ذلك سيصلى ناراً، فسيكون هذا في الآخرة، لأن السين للمستقبل، إذن ستظل مستقبلاً إلى أن تقوم الساعة.

وبهذا لن يصلى ناراً ذات لهب وامرأته إلا إذا كان محكوماً عليه بأن لن يسلم لا سراً ولا علناً، وهذا من معجزات القرآن الكريم [1] .

ولهذا فإن الله تعالى علم أن أبا لهب وزوجته هما النموذجان (الرجالي والنسائي) على الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، ومن ثم استحقوا إضلال الله عز وجل لهم، فهذا ما أراد الله تعالى من تجسيد العبرة للكافرين، فلم يجد أنسب منها مثلاً ونهاية لمن ضل عن سبيله، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥] .

١ - المصدر السابق (١٠٩- ١١١) بتصرف .



لقد نزلت سورة المسد في أوائل الدعوة الإسلامية، وسبب نزولها أنّ رسول الله ﷺ ظل يدعو للإسلام مستخفياً ثلاث سنين منذ أول البعثة، وظل المسلمون يقيمون شعائر الصلاة سراً في شعاب مكة، وبينما سعد بن أبي وقاص يصلي يوماً مع نفر من المسلمين إذ خرج عليهم بعض المشركين وعابوا عليهم ما يصنعون [1]، واعتدوا عليهم، فما كان من سعد بن أبي وقاص إلا أن أخذ بخطمة بعير وضرب بها رجلاً من المشركين فشجه، فكان ذلك أول دم أريق في الإسلام .

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإظهار الدعوة في قوله: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فجهر النبي بالدعوة إلى الهدى ودين الحق [2] .

بدأ النبي يدعو إلى الإسلام جهراً، فاستجاب له الكثيرون، وقابلت قريش الدعوة بشيء من عدم الاكتراث استخفافاً بأمرها، فكانوا إذا مَرَّ عليهم رسول الله ﷺ في مجالسهم أشاروا إليه وتغامزوا عليه، وقالوا: إن غلام بني

---

١ - نهاية الأرب في فنون العرب للنويري: ١٩/ ١٩٥ .

٢ - نهاية الأرب: ١٩/ ١٩٥ .

عبد المطلب ليُكَلَّمُ من السماء، ولا يتعرضون لإنكار ما يقول، وظلوا كذلك حتى عاب الله آلهتهم التي يعبدونها من دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فلم يطيقوا عند ذلك صبراً على الدعوة الجديدة، وأجمعوا على خصومها وخصومة القائم بها ومن استجاب لها [1]، ثم نزلت الآية الكريمة: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء: ٢١٤].

وكان أبو لهب (واسمه عبد العزى بن عبد المطلب) عم الرسول ﷺ هو وامرأته (" أم جميل" أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان) من أشد الناس إيذاء وعداوة لرسول الله ﷺ وللدعوة التي جاء بها .

وتبدأ قصة الصراع بين الحق والباطل، وبين الكفر والإيمان، إذ خرج الرسول ﷺ على القبيلة، فيقول فيهم: **" يا معشر قريش، إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أُنْفِذَ عن الله ما بعثني به"** وإذا فرغ من مقالته، قال الآخر من خلفه: يا معشر قريش، هذا يريد منكم ان تسلخوا اللات والعزى، وعن حلفائكم من الحي من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا

---

١ - السيرة العطرة، محمد خاتم الرسل، عبد العزيز خير الدين، دار الفكر العربي ١٩٦٩، ص١٥٧ .



تتبعوه، فيقول ربيعة بن عباد من بني الديل – وكان جاهلياً– فقل لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب [1].

فهذا نموذج من نماذج شخصيات قصة الكفر والإيمان، التي يجسدها كيد أبي لهب للدعوة وللرسول ﷺ، وزوجته أم جميل التي كانت أكبر معين له في هذه الحملة الدائبة الظالمة على الرسول الكريم، فقد ناصبا الرسول ﷺ العداء، ولم يراعيا حقاً للقرابة والجوار، فكانا بئس القرابة وبئس الجار!! .

لم يكتف أبو لهب بالتخاذل عن نصرته بين قومه ودعمه ومساندته أمام أعداء الحق، بل كان معيناً لهم على عدائه، واجتهد في صد الناس عنه .

وكانت من ورائه زوجه التي كانت عوناً له في كل خطوة من محاربته، فكان لها أكبر الأثر في شن الحرب على الرسول الكريم ﷺ التي تولى الله تعالى عن الرسول أمر الرد عليها!! .

لقد اتخذ أبو لهب موقفه من هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول للدعوة، أخرج البخاري بإسناده عن ابن عباس، أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: " **يا صباحاه**"، فاجتمعت إليه قريش، فقال: "

---

١ – رواه الإمام أحمد والطبراني بهذا اللفظ، في ظلال القرآن، سيد قطب ص ٣٩٩٩ سورة المسد، والمختار من تفسير القرآن العظيم للشيخ الشعراوي، ص١١١ .

أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم؟ أكنتم مصدقي" ؟ قالوا: نعم، قال: **" فإني نذير لكم بين يَدَيْ عذاب شديد"** فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تباً لك، فأنزل الله تعالى:

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ [المسد: ١ – ٥] .[1] .

وبنزول هذه السورة تشتد الحرب ويحتدم الصراع في أحداث القصة، وتظهر ردة فعل أم جميل لما سمعته على لسان الرسول ﷺ، وتشنها حرباً لا هوادة فيها ولا هدنة هي وزوجها على الرسول الكريم ﷺ، ونزلت هذه السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته، لكن الله تعالى رد عليهم بهذه الكلمات التي يحمّلها هلاكهم ودمارهم في الدنيا، ونار جهنم وبئس المصير في الآخرة .

فالتباب والهلاك والبوار والقطع، دعاء على أبي لهب من الله تعالى بـ (تبت) الأولى)، وكان ذلك، وحصلت الخسارة له في (تب) الثانية، ولذلك

---

١ – في ظلال القرآن، سيد قطب، ص٣٩٩٩، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٠/ ٢٣٤، وتهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية الكويت، ط١٥، ١٩٨٦، ص١١ .



نجد أن أبا لهب، رغم ما كان له في قومه، تحدث له أحداث حين يموت لم تحدث لأتفه واحد في قومه، فيصيبه الله تعالى بمرض اسمه (العدسة) كالطاعون، وكانوا يفرون منه ومات به بعد أن ظل ثلاثة أيام لا يقربه أحد، حتى كاد أن ينتن، بهذا الهلاك الذي دعا الله عليه، تكون نهايته، ويتحقق مصيره في دنياه .

لقد تبت يداه وهلكتا، وتبّ هو وهلك، فلم يغن عنه ماله وسعيه ولم يدفع عنه الهلاك والدمار ذلك في دنياه!! .

أما في الآخرة فإنه ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾، ويذكر اللهب تصويراً وتشخيصاً للنار وإيحاء بتوقدها وتلهبها، وجاء الله تعالى بها بالسين لأن تصديق واقعها لا محالة آت .

وامرأته العوراء، حمالة الحطب، ستصلاها معه، لأنها سعت بالأذى والفتنة والوقيعة .

وقد نتساءل لِمَ كانت (أم جميل) أشد كرهاً له من أبي لهب، لقد اقترفت يداها أشد الحيل لأذية الرسول الكريم ﷺ، فقد كانت أحداث القصة تدل على أنه كان لها دور كبير في إيذائه ﷺ، فقد كانت سيدة لها مكانة في قومها،

فكانت زوجة أبي لهب، وأخت أبي سفيان، وكان النساء يأخذن وضعهن بسيادات آبائهن، أو بسيادات أزواجهن .

والإنسان الذي جاء لكي يهدم هذه السيادات كلها، وينشر دعوة الله تعالى، سيهدم بذلك فرصتها في أن تأخذ مكانها في مجتمع مكة [1] لذا كان حقدها كبيراً على الرسول ﷺ، وكان لها دورها الرئيسي في أحداث القصة التي يحاك مغزاها للقضاء على الرسول ﷺ ودعوته إلى دين الحق .

وتتجسد أذيتها بحملها الحطب، وقال العلماء في حمالة الحطب: أن الشيء قد يكون له حقيقة، وصحيح كانت تحمل الحطب والشوك وحسك الثعبان وترميه، لأنهم كانوا جيران النبي عليه الصلاة والسلام، هذه العملية للأذية [2]، لكن المفسرين قالوا: قد يكون حمل الحطب، كناية عن سعيها بالفتنة والنميمة والوقيعة بين الناس، إذ كانت مشهورة بالنميمة بين الناس، وعادةً الحطب يأتي للنار، إذاً الحطب هو من أسباب إيقاد العداوة بين الناس، فتبقى النميمة التي تمشي في الناس كأنها الحطب [3] .

١ - المرجع السابق، ص١١٥ .

٢ - في ظلال القرآن، سيد قطب: ٤٠٠٠ .

٣ - المختار في تفسير القرآن العظيم، الشعراوي: ١/ ١١٥ .



وقال سعيد بن جبير: (حمالة الخطايا والذنوب)، من قولهم: فلان يحتطب على ظهره، دليله قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ﴾[1] .

وفي الأداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوها، تقتطف مشاهد من يوم القيامة ونار جهنم، لتحرك في نفس أم جميل الذعر والفزع .

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ . . فكلمة الجيد هذه إذا ذُكرت في اللغة لا يكون إلا للأوصاف الحسنة، هذا في الدنيا، وقال امرؤ القيس:

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذا هي نصّــتـه ولا بمعطـل [٢]

أما هي، فكانت تعيّر النبي ﷺ بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف، فخنقها الله عز وجل به فأهلكها، وهو في الآخرة حبل من نار .

---

١ - الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ٢٤٠ .

٢ - الجيد: العنق، الريم: الظبي الأبيض البياض . نصته: رفعته . المعطل: الذي لا حل عليه . وقوله: بفاحش: أي ليس بكريه المنظر . وجمع الجيد: أجياد، وجمع المسد: أمساد، وهو حبل من صوف، وهي حبال من شجر تنبت باليمن تسمى المسد .

وقال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة من جوهر فقالت: واللات والعزى لأنفقها في عداوة محمد، ويكون ذلك عذاباً في جيدها يوم القيامة .

وقيل: إن ذلك إشارة إلى الخذلان، يعني أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشقاء، كالمربوط في جيده بحبل من مسد [1] .

تتتالى أحداث القصة القصيرة في مشاهد سريعة يتناسق فيها اللفظ بالمعنى، فيجسد صورة أبي لهب بأنه سيصلى بنار ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب ستصلاها وفي عنقها حبل من مسد، وتلقي الحطب في طريق محمد ﷺ لإيذائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي)، والحطب مما يوقد به اللهب، وهي تحزم الحطب بحبل، فعذابها في النار ذات اللهب أن تُغَلَّ بحبل من مسد، ليتم الجزاء من جنس العمل، وتتم الصورة بعناصرها (الحطب، والحبل، والنار، واللهب) يصلى به أبو لهب وامرأته حمالة الحطب!!

كل هذه يتم في خمس مشاهد متتالية لخمس آيات قصيرة، لشخصيتين أساسيتين، ساهمتا في تطور الحدث وتفعيله، فكان لكل منها دوره في تكميل

---

١ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٠/ ٢٤٢ .



دور الآخر، والكل يصب في الهدف الأخير ألا وهو حل الأذية للرسول ﷺ والتهديد من الله تعالى على فعلتهما [1] .

بهذا التناسق في التعبير الذي أنزله الله تعالى في سورة المسد، جعل أم جميل تحسب أن الرسول ﷺ قد هجاهما بشعر!! قال ابن إسحاق: (فذكر لي أن أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر (أي بمقدار الكف) من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة! ثم قالت: (مذمماً عصينا، وأمره أبينا)، قاتلها الله، ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله! أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني) [2] .

بهذا المشهد من قصتها مع الرسول ﷺ جسد الله لنا جزاء الكائدين لدعوة الله في الدنيا، فقد أذهب الله بصرها وأعماها عن رؤية رسوله الكريم، وحماه من كيدها، فكان التباب والهلاك والسخرية والزراية جزاء لها ولزوجها في

---

١ - في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤٠٠١ .

٢ - المرجع السابق بتصرف .

الدنيا، لكيدها لدعوة الله تعالى، وسيصليها الله تعالى نار جهنم في الآخرة، وسيذلها الله بحبل من مسد في جيدها في الدنيا والآخرة .

ففي الدنيا حقّرها الله إذ وصفها (حمالة الحطب)، وهذه القصة تعتبرها غاية في الحقارة، وهي المرأة المعجبة بنفسها المعتزة بحسبها وبنسبها!! وفي الآخرة صفة تفيد أقصى حالات الذل والعذاب!! .

والحكم ببقاء أبي لهب وامرأته في النار، مشروط ببقائهما على الكفر إلى الموت، فلما ماتا على الكفر صدق الإخبار عنهما، وهذا من معجزات القرآن الكريم .

وختم ابن كثير الكلام عن سورة المسد بالإشارة إلى ما تضمنته من معجزة تتحدث عن المستقبل، فيقع . . . وهو المعنى الذي ذكرناه من قبل قال: (قال العلماء في هذه السورة: معجزة طاهرة) . . ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان .

لم يُقَيَّضْ لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما، لا باطناً ولا ظاهراً، لا سراً ولا علناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة [1] .

---

١ - الأساس في التفسير، سعيد حوّى، ص٦٧٤٤ .



وبهذا المشهد يسدل الستار عليهما – هي وزوجها- في نار جهنم، ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾[المسد: ٥]، وينتصر بذلك الحق على الباطل، والإيمان على الكفر، في قصة لعبت فيها أم جميل العوراء، دور الجاحدة الحاقدة الكافرة بنعم الله تعالى، مساندة زوجها على إيذاء الرسول ﷺ، والتحريض عليه وعلى المؤمنين بالدعوة، بل بالغت في كرهها وحقدها عليه لأسبابها الاجتماعية، وكفرها بما جاء به محمد ﷺ ورسالته، والتي تلغي دورها في مجتمعها بين سيدات قبيلتها اللواتي كانت تتعالى عليهن وتتكبّر .

فلنستق العبرة منها، بما أشار الله تعالى بعذابها في الدنيا والآخرة، فلما كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فستكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه وذله في نار جهنم .

وتنفرنا هذه القصة من شخصية أم جميل التي تسعى بالنميمة وبثها العداوة والبغضاء بين الناس، وفي هذا يقول القرطبي: (وقال أكثم بن صيفي: إياكم والنميمة! فإنها نار محرقة، وإن النمام ليعمل في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر، أخذه بعض الشعراء فقال:

إن النميمة نار بك محرقة ... ففرَّ عنها وجانب من تعاطاها

ولذلك قيل: نار الحقد لا تخبو . . . ثبت عن النبي ﷺ : **" لا يدخل الجنة نمام"** [1]، وقال: **" تجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه"** [2] .

وقال كعب الأحبار: أصاب بني إسرائيل قحط، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاث مرات يستسقون فلم يُسْقوا، فقال موسى: " إلهي عبادك"، فأوحى الله إليه: إني لا أستجيب لك ولا لمن معك لأن فيهم رجلاً نماماً قد أصرّ على النميمة، فقال موسى: يا رب من هو حتى نخرجه من بيننا؟ فقال: " يا موسى أنهاك عن النميمة وأكون نماماً!" قال: فتابوا بأجمعهم، فسُقوا .

والنميمة من الكبائر، حتى قال الفضيل بن عياض: ثلاث تهدّ العمل الصالح، ويفطرن الصائم وينقُضن الوضوء، الغيبة والنميمة والكذب [3] .

إن أم جميل مَثَل سيء للمرأة الحاقدة الحاسدة، التي لا تريد الخير لأحد، بل يعميها حسدها، ويطغيها حقدها، فلتعتبر من تجد في نفسها تلك الخصال الذميمة، وتبدّل الأثرة بالإيثار، والحقد بالتسامح، ولتقترب من الله تعالى، لأن

---

١ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب : الأيمان، باب : بيان غلظ تحريم النميمة، رقم (٣٠٣) .

٢ - أخرجه البخاري، كتاب : المناقب، باب : قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات: ١٣]،رقم (٣٣٠٤) .

٣ - تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٣٩ .



في صلاح العقيدة صلاح النفس كلها، ولتدعُ الله تعالى أن يقتلع من نفسها الحقد الأسود الذي يودي بصاحبه إلى الجحيم وبئس المصير في الدنيا والآخرة، وصدق الشاعر إذ يقول:

اصــبر على كيد الحسـو — د فإن صبرك قاتلهُ

فالنار تأكل بعضها — إن لم تجد ما تأكلهُ

الباب الثاني

نساء الرسول ﷺ في قصص القرآن الكريم



نساء في العهد النبوي أنزل الله في شأنهن قرآناً

دراسة تحليلية لنماذج إيجابية

مقدمة: لمحة عن سيرة النبي ﷺ .

- **السيدة عائشة** رضي الله عنها، وحادثة الإفك، " في سورة النور" .
- **السيدة زينب بنت جحش** رضي الله عنها، وقصة زواج الرسول ﷺ منها، " في سورة الأحزاب" .
- **السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب** رضي الله عنها، وقصة التحريم، " في سورة التحريم" .







الفصل الأول

دراسة تحليلية لشخصية السيدة عائشة رضي الله عنها وحادثة الإفك" في سورة النور"

عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، أفقه نساء الأمة وزوجة الرسول الكريم ﷺ في الدنيا والآخرة

- تمهيد
- معنى الإفك
- شخصية أم المؤمنين رضي الله عنها ، أفقه نساء الأمة .
- المحنة الكبرى، وأثرها على الرسول ﷺ والمجتمع الإسلامي .
- قصة حادثة الإفك " على لسان عائشة رضي الله عنها " .
- استشارة رسول الله ﷺ بعض أصحابه عندما تأخر نزول الوحي .
- مفاتحة الرسول ﷺ لعائشة رضي الله عنها وجوابها .
- ثمرات الصبر، " نزول الوحي ببراءتها"، بعشر آيات من سورة النور .

- مواقف أمهات المؤمنين من حادثة الإفك عامة، وموقف زينب بنت جحش خاصة .
- موقف أبي بكر رضي الله عنه من مسطح، والعبرة منه .
- وقفة مع الصبر والإيمان للشخصية المحورية لقصة الإفك .
- دروس لنساء الأمة من عائشة رضي الله عنها .
- تحليل قصة الإفك .
- الحكمة من حادثة الإفك، ودروس وعبر من الحادث الجليل .

تمهيد

تعرض الرسول ﷺ لمحن كثيرة شأنه شأن جميع الأنبياء، امتحن الله صبرهم وطاعتهم له، فكانوا خير الأنام من الصابرين الكرام .

وكانت المحنة الكبرى في حياة الرسول ﷺ خاصة، والأمة الإسلامية عامة، وعلى زوجه أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، أخطر حادثة وأكبر دسيسة، كشفت فجور المنافقين وكيدهم، ومَنْ خلفهم من جموع اليهود، الذين تغلي قلوبهم بالحقد على الإسلام وعلى المسلمين وعلى الرسول العظيم ﷺ، فقابل المسلمون كل ذلك بالصبر والحسبان، لقد بدأت هذه الحادثة بالمحنة، وانتهت بالمنحة الإلهية، وهل هناك كرامة أعظم من المنح الإلهية!! كما يقال: بعد كل محنة منحة، وما بعد الضيق إلا الفرج!!

الإفك لغة: الكذب، وسمى الله عز وجل في كتابه الحكيم هذا الافتراء " الإفك "[1] في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[النور: ١١] .

---

١ – مرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير، د . سعود بن عبد الله الفنيسان، مكتبة التوبة، ص٩، وسير أعلام النبلاء: ٢/ ١٢٥ .

والحديث الإفك: هو الحديث المقلوب، لذا عبر سبحانه عن الكلام الكذب الذي يصيب به السيدة عائشة بالإفك، لأن المعروف عنها خلاف ذلك، فهي الطاهرة العفيفة التقية .

واللام في "الإفك" لام العهد الذهني، أي الإفك المعهود في الأذهان، ويجوز كون اللام للجنس، فيفد القصر كأنه لا إفك إلا ذلك الإفك، وفي هذا إشارة إلى شناعته وبشاعته وفظاعته وكذبه وبطلانه [1] .

وأصل الإفك: القلب، ومنه " المؤتفكة" وهي قرى قوم لوط، سميت بذلك لانقلاب موازينها حيث صار فيها الشر خيراً، فأهلك الله أهلها، ونجى لوطاً ومن آمن معه ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ [النجم: ٥٣ – ٥٤]، وسميت بالمؤتفكة من الإفك، وهو القلب وصرف الشيء عن وجهه .

والإفك أبلغ من الكذب، وأرذل الافتراء، وألأم الاختلاق، كما سماه الله عز وجل " بهتاناً" .

والبهتان: هو البلاء الذي لا يشعر به الإنسان حتى يفجأه بوقوعه [2] .

---

١ – المرأة في القصص القرآني، الشرقاوي، ص ٧٦٥ .

٢ – نساء أهل البيت، خليل جمعة،ص ١٣٠ .




عائشة أم المؤمنين، أفقه نساء الأمة، الصديقة بنت الصديق الأقرب إلى قلب الرسول الكريم ﷺ .

لقد كانت هناك عوامل عديدة جعلت أم المؤمنين شخصية متميزة، إذ نشأت في بيت كرامة، وانتقلت إلى بيت أكرم الناس، خير الأنام ﷺ، فكانت أم المؤمنين، وكان لها دور بارز في عهد الرسول الكريم ﷺ، فكانت تهيئ الاستقرار النفسي للرسول ﷺ، فكانت الزوجة المثالية في مساندتها للرسول ﷺ في السلم والحرب، والذود عن الأمة الإسلامية، وإرساء قواعدها، وتقوية عزائم الرسول ﷺ)1(.

بكل هذه الخصائص والمميزات التي حباها الله بها، هل يُعقل أن ينُسب إليها ما نسب من إفك وبهتان، قاتلهم الله وأخزاهم .

في السنة السادسة من الهجرة، خرجت القرعة على عائشة رضي الله عنها لتكون في عداد الجيش المنطلق إلى المُرَيسيع لغزو بني المُصْطَلِق، وفي هذه الغزوة الممحِّصة للإيمان، وقعت أخطر حادثة كادت تكون فتنة عمياء، فقد أصابت

١ – موسوعة فقه عائشة أم المؤمنين، الشيخ سعيد فايز الدخيل، دار النفائس، سلسلة موسوعة فقه السلف، ص٤٧–٥٠ بتصرف .

المسلمين بهزة عنيفة زلزلت كيانهم، ولم يكن الناس فيها سواسية، ولكنهم كانوا مختلفين في آرائهم تجاه حادثة الافتراء والظلم!

صُدم الجميع!! فمنهم من سكت، ولم يدرِ ما يقول!؟ وبعضهم أفصح بعظيمة العظائم!! ومنهم من نزّه الطاهرة المطهرة عائشة رضي الله عنها ، فأنزل الله عز وجل عقابه على من جبن وسكت ولم يدفع الإفك والبهتان عن ساحة الطهر والكمال، أما المنافقون الذي افتروا الكذب، فقد ادّخر الله لهم نار جهنم وبئس المصير .

أجل لقد كان هذا الحدث الجلل من أخطر الأحداث وشدة البلاء لرسول الله ﷺ ما لم يعلم مداه إلا الله العليم الخبير، لكن الرسول ﷺ كان إمام الصابرين، فعالج الأمر بحكمة، حمى فيها المجتمع الإسلامي من الفتن [1] .

كان هذا الحدث الجليل المؤلم لأم المؤمنين رضي الله عنها زوجة سيد الخلق، أقضّ مضجعها، ونشف الدمع من مقلتيها وعذّبها وأبويها وأهلها والمسلمين!! حتى مَنَّ الله عليها وعلى المؤمنين، فكشف الغمة، وفرج الكربة، فأنزل وحيه بالقرآن المجيد على رسوله الكريم ببراءتها، إذا أراد الله بذلك أن يجعل منها

---

١ - نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، ص ١٢٦-١٢٩ بتصرف




خصيصة ليرفع من شأنها إظهاراً لشرفها الذاتي والاجتماعي، لمكانتها العظيمة في قلب رسول الله ﷺ .

ها هي الصابرة الطاهرة، تروي لنا قصتها التي نغصت البيت النبوي الطاهر المطهر، فكان امتحان صبر وإيمان انتهى ببراءة الكرام!!

ذكرت عائشة رضي الله عنها من حديثها عند الإمام البخاري رحمه الله في الصحيح فقالت: " كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، فأقرع بيننا في غزوة بني المصطلق فخرج سهمي، فخرجت مع الرسول ﷺ بعدما نزل الحجاب، فأنا أُحمل في هودجي وأُنْزَل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقَفَل، ودنونا من المدينة قافلين، فأعلم ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَار قد انقطع، فالتمست عقدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلوني، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم، إنما يَأْكُلْنَ العُلقة من الطعام - قليل الطعام-، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيب، فتيممتُ

منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فنمت .

وكان صفوان بن المعطَّل السلمي من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني [1]، فخَمَّرْتُ وجهي بجلبابي، والله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمةً غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة، وهم نزول قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولى كِبْرَ الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول . . .

فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أنّي لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلّم ثم يقول: " كيف تيكم"؟، ثم ينصرف، فذاك الذي يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت حين نَقَهْتُ . . . فخرجت معي أم مِسْطح لبعض حاجتي، فأقبلت أنا وأم مسطح قِبَل بيتي وقد فرغنا من شأننا،

---

١ – أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون .




فعثرت أم مسطح في مِرْطها فقالت: تَعِس مسطح، فقلت لها، بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي هنتاه أولم تسمعي ما قال؟ قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي .

فلما رجعت إلى بيتي، ودخل عليَّ رسول الله ﷺ فسَلَّمَ ثم قال: " كيف تيكم"؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا أريد ان أستيقن الخبر من قبلهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كَثَّرْنَ عليها، فقلت: سبحان الله، ولقد تحدث الناس بهذا؟! قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يَرْقَأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي [1] .

قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال: يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيراً، أما عليٌّ فإنه قال: يا رسول الله لم يُضَيِّقِ الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك .

---

١ – السيدة عائشة، عبد الحميد محمود طهماز، ص٥٨ .

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت: لا والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمراً قطُّ أغْمِصُهُ، (تعني تنكره عليها)، غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله [1] .

إن ما قام به النبي ﷺ من سؤال علي وأسامة وغيرهما، لا لأنه كان يشك في السيدة عائشة رضي الله عنها ، فهو واثق من براءتها كل الثقة [2]، ولأنه ﷺ كان كلما حدث أمر جلل استشار الصحابة في الأمر عملاً بقول الله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، بل كان يستطلع الرأي العام في المدينة، ولما تبين ﷺ أن هناك طائفتين، طائفة من المنافقين ومن لف لفهم، وطائفة تكّذب هذه الشائعة، خرج يخطب في الناس ولا علم لعائشة بذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق؟ والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل، والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي" .

---

١ – فقه سيرة نساء النبيﷺ، سعيد هارون عاشور .

٢ – أدلة ذلك كثيرة، – غير تبرئة السماء لها– نورد منها: قسمه ﷺ على براءتها يوم وقف على المنبر، قائلاً: " فو الله ما علمت على أهلي إلا خيراً" .



فتكاد أفئدة المسلمين تنخلع تأثراً لنبيهم في هذا البلاء، ويثورون غضباً لشرف زوجة كريمة، وعقيلة حرة، فتختلط أصواتهم في طلب الانتقام والتأديب، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وأولئك، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر [1].

وتمضي عائشة في وصف محنتها: (فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، فأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع، يظنان أن البكاء فالق كبدي .

فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك، دخل رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يُوْحَى إليه في شأني، فتشهّد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: " أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك ما بلغ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه"، فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعي حتى ما أُحس

---

١ - تراجم سيدات بيت النبوة، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ص٢٣٤ .

منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ، قالت: ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت- وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن-: (إني والله لقد علمتُ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة – والله يعلم أني بريئة- لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر – والله يعلم أني منه بريئة- لتصدقوني، والله ما أجد لكم مَثَلاً إلا قول أبي يوسف)[1] قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[يوسف: ١٨].

ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يُتْلَى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فوالله ما قام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أُنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى أنه ليتحدّر منه مثل الجُمان من العرق، وذلك من ثقل القول الذي يُنزل عليه، فلما سرّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت

---

١ – المرجع السابق.



أول كلمة تكلم بها: " يا عائشة أما الله عز وجل فقد برّأك" . فقالت أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل))[1]، فكانت ثمرات صبرها، براءتها من فوق سبع سموات، أنزل الله عشر آيات محكمات من سورة النور: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النور: ١١ — ١٩] .

---

١ – قصص القرآن الكريم، سعيد اللحام، دار مكتبة الهلال، ص٢٩٣ . ومرويات غزوة بني المصطلق (وهي غزوة المريسيع)، إبراهيم بن إبراهيم قريبي، مؤسسة الكتب الثقافية، ص٢١٧ .

ويأمره تعالى بجلد الذين تَقَوَّلُوا بالفاحشة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أُثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

لم تكن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وحدها في البيت الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً، وإنما كانت هناك أمهات المؤمنين، وكان من أَجَلِّ النعم الإلهية على البيت النبوي، وعلى المسلمين أن الله عز وجل قد حمى أمهات المؤمنين الطاهرات كلهن عن التكلم في محنة هذا (البهتان الخبيث)، إن الله حفظن لمكانة الرسول الكريم ﷺ عنده، وقد خصّ الله عز وجل أم المؤمنين زينب بنت جحش بموقف نبيل كريم من عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك هذه،



ذلك أن رسول الله ﷺ خصها بالسؤال عن عائشة قبل أن ينزل الوحي ببراءتها وطهارة ذيلها من رجس الإفك فقال ﷺ : " يا زينب، ماذا علمت أو رأيت؟" فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً [1]، فعصمها الله بالورع [2] .

وزيادة في براءة عائشة رضي الله عنها ، حدثت حادثة لصفوان بن المعطل، كشفت أنه كان حصوراً [3]، ولا يأتي النساء أصلاً [4] .

إن حديث الإفك الذي تولى كِبْره زعيم الخوارج ورأس النفاق في المدينة عبد الله بن أبي ابن سلول، لهو حديث وشاية عن رجل وامرأة، هما أعظم الرجال والنساء، وفي اللغط به غرض قوي لأكبر زعماء الخزرج في زمانه، وغرض قوي لكل من يبغي المساس بالنبي، وبالإسلام كله عن طريق المساس بنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، ولولا ذلك لما سُمع بحديث الإفك، ولا استحق أن يُصغى إليه، لأنه أوهى وأسخف من أن يطول فيه تصحيح وتفنيد،

---

١ - قطعة من حديث البخاري رقم: (٤٧٥٠)، انظر فتح الباري (٨/ ٣٠٩)، ومعنى أحمي سمعي وبصري: أي لا أنسب لهما ما لم أسمع وأبصر .

٢ - نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، ص١٤٥ .

٣ - حصور: شكر، ليس ذا رجولة كاملة، وعكسه الخنثى تبدو امرأة ولا أنوثة لها .

٤ - قصص القرآن الكريم، سعيد اللحام، دار مكتبة الهلال، ص٩٥ .

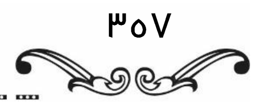
لقول رجل اشتمل قلبه على بغض النبي، وأحبّ أن يهدم دعوة الإسلام، لكن بعداً للقوم الظالمين .

لذا لا بد من وقفة مع الصبر والإيمان للشخصية المحورية في قصة حادثة الإفك، رضي الله عنها ، والتي يتمحور الحدث حول آلام اجترعتها رضي الله عنها إثر افتراء وبهتان افتروه عليها، فكان سلاحها الصبر والإيمان، فما كان لها إلا أن تقول: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

إن حادثة الإفك أشد الحوادث، وأشق التجارب، وأصعب المواقف على نفس الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه وابنته السيدة عائشة الطاهرة النقية رضي الله عنها ، ونفس الصحابي صفوان بن المعطل [1] .

فظل هؤلاء (محور هذه القصة) ومعهم المسلمون، معلقين بحبال الشك والقلق والألم، إلى أن كشف الله الغمة، وبان الحق بآيات محكمات، بعد مسيرة صبر وعناء .

١ – موسوعة أمهات المؤمنين، عبد الصبور شاهين، إصلاح عبد السلام الرفاعي، الزهراء للإعلام العربي، ط١، ص٥٤ .




كانت ساعات مريرة على الجميع، لم تستثن أحداً منهم، فصبروا جميعاً تحت وطأة بلاء حديث الإفك .

أما الرسول ﷺ فكان إمام الصابرين أمام هذه المحنة التي تعرض إليها في أحب الناس إليه، صبر بإيمان واحتساب وحكمة، دارت الفتنة بين المسلمين، حتى أنهى الله تعالى هذه المحنة الشديدة على قلب رسولنا الكريم ﷺ وبيته الطاهر في مرحلة تألق فيها سلطان الإسلام في المدينة، وبرز كيانه، فكان وقوع هذه الحادثة تعليماً للرسول ﷺ وأصحابه أن لكل مرحلة محنها، وأن الأزمات التي تصيبهم من ألسنة أهل النفاق ومرضى القلوب ليست بأقل إيلاماً من الجراحات التي تناهم بمكة على أيدي المشركين .

أما أبو بكر، أحب أصدقاء الرسول ﷺ، فقد حزن حزناً شديداً لحزن رسولنا الكريم ﷺ، فكان يشعر بألمه فيفجعه ذلك، ولكن لا يدري ما يفعل، أمام هذه النظرات التي تلاحقهم في كل مكان، وهو الذي لم يوصم بيته بوصمة لا أثر لها في الجاهلية، حتى يوصم بهذه الوصمة في الإسلام!! وفي بيت النبوة!! كانت لحظات حرجة وساعات أليمة يعيشونها في مرارة هذه المحنة، وصبر واحتسب وساند الرسول في محنته إلى أن جاء الفرج من الله تعالى.

أما حال هذه المفجوعة التي كانت تتألم لما آل إليه هذا الحال، فوصفت حالها وحال أبويها في أحرج لحظات البلاء التي شلت إرادتهم وفكرهم

ونفسيتهم عن اتخاذ أي قرار، تقول عائشة رضي الله عنها: (والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام) .

كانت محنة كبيرة، لكن إيمانها أكبر، وصبرها أعظم، فقد كانت موقنة أنها بريئة، وأن الله سينصفها، وقد جسدت هذا اليقين وهذا الإيمان ببراءتها في تلك اللحظات الحرجة عند نزول الوحي، فقالت: (فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فو الله ما فزعت ولا بالَيت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله عز وجل غير ظالمي) .

لقد حسم الوحي كل تلك الآلام، وكل الصبر والاحتساب، فكان من ثمراته شهادة الطهر والبراءة لعائشة رضي الله عنها أن منحها الله صبراً وقدرة على الصمود أمام هذا الاتهام والبهتان، كان من سمات شخصيتها، لما امتلكت من أصالة وإيمان، مما جعل عندها هذا القدر العظيم من الصبر والاحتساب، إلى أن أنزل الله براءتها، فكانت كل آية من آيات سورة النور (مستقلة) ما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضي الله عنها من كل ادعاء وافتراء وسوء، وتطهير لأهل البيت وتهويل للمنافقين .

إن من ثمرات صبرها واحتسابها أن كرمها الله تعالى وصانها وصان كل مسلمة من قاذفي النساء في أعراضهن، بحساب عسير، ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ

ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[النور: ٤].

لقد عوّض الله صبرها بعقاب شديد لمن قذفها بالإفك، فجعل سبحانه للقاذف عقوبة ثمانين جلدة، ثم دعّم هذه العقوبة بأخرى أشد وأخزى، وهي اتهامه أبد الدهر في ذمته، وإطراح شهادته، فلا تقبل له شهادة أبداً، ثم وسمه بعد ذلك بسمة هي شر الثلاثة جميعاً، وهي سمة الفسق ووصمة الفجور، لقد عاود الله أمرهم بعد ذلك بما هو أشد وأهول من تمزيق ألسنتهم، فقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴾[النور: ٢٣ — ٢٥].

إن من ثمرات صبرها واحتسابها على حديث الإفك، أن الله عز وجل أخبر بأن ما قيل من الإفك والبهتان كان خيراً لعائشة رضي الله عنها ، ولم يكن ذلك الذي قيل شراً لها، ولا خافضاً من شأنها، بل رفعها الله بذلك وأعلى قدرها،

وأعظم شأنها وكرامتها، وصار لها ذكر بالطّيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيا لها من منقبة ما أجلّها وما أعظمها [1] .

فقد انطوت قصة الإفك على حكمة إلهية عظيمة استهدفت تثبيت العقيدة الإسلامية، وردّ ما قد يعرض من شُبهة عليها [2]، وتلك هي الخيرية التي عبر الله تعالى عنها: ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]، أي لا تظنوا هذا القذف والاتهام شراً لكم يا آل أبي بكر، بل هو خير لكم لما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحي ببراءة أم المؤمنين، وهذا غاية الشرف والفضل .

وقال المفسرون: والخير في ذلك من خمسة أوجه: تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها، والأجر الجزيل لها في الفِرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين [3] .

وللإمام ابن القيم في هذا المقام كلام طيب يبين في الحكمة من انقطاع الوحي وتأخره مع شدة الحاجة إليه يقول رحمه الله: (واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس الوحي عن رسول الله ﷺ شهراً كاملاً، ليزداد المؤمنون

---

١ – زاد المعاد، ابن قيم الجوزية: ٢/ ١١٤ بتصرف .

٢ – فقه السيرة النبوية، د . محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ص٣١١ .

٣ – التسهيل في علوم التنزيل: ٣/ ٦١ .




الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً، ويظهر للرسول ﷺ وللمؤمنين سرائر المنافقين .

وأيضاً كان من حكمة تأخر الوحي أن القضية نضجت وتمخضت واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله ﷺ فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه الرسول ﷺ وأهل بيته والصديق وأهله وسائر المؤمنين الصادقين، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة وأنزل الوحي على الفور بذلك، لفاتت هذه الحكم وأضعافها بل أضعاف أضعافها) [1] .

وهكذا خرجت السيدة عائشة رضي الله عنها من محنتها بشهادة ربانية ببراءتها وطهرها وطيبها، وشهادة لا تمحو الأيام سجلها، مما زاد من مكانتها في قلب الرسول الكريم ﷺ، وأعلى مقامها في نفسه، وفي نفوس المؤمنين إلى يوم الدين. ومن نفحات بركاتها ويمنها أن نزلت بسببها آية التيمم، وهي تشريع الرحمة، ورفع الإصر عن هذه الأمة الإسلامية، وقد خصها الله تعالى بفضائل ومناقب عدة، منها الزهد، والكرم والجود، والعلم، ومنابع الأدب .

---

١ - نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، ص١٣٩ .

ومن أقوالها المأثورة: (لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء)[1]، ومن حِكَمِهَا: قال رجل لعائشة رضي الله عنها: متى أعلم أني مُسيء؟ قالت: إذا علمت أنك محسن[2] .

وها هي تقدم لبنات حواء نصيباً من النصيحة النصوحة، إذ كانت ترشد النساء إلى ألوان الطيب وأنواع الزينة، ولم تنطق عن عبث، بل كانت هي نفسها قدوة صالحة للمرأة المثالية التي عناها الرسول ﷺ بقوله: **" الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرّته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله"**

وكانت تنادي النساء بزرع المودة في قلب بيوتهن، فتقول: " أميطي عنك الأذى، وتصنعي لزوجك كما تصنعين للزيارة، وإذا أمرك فلتطيعيه، وإذا أقسم عليك فأبريه، ولا تأذني في بيته لمن يكره"[3] .

وتدعو النساء إلى أن يقمن بأعمال تعود عليهن بالخير والبركة والنماء، فتراها تلفت نظرهن إلى الاهتمام بمساعدة أزواجهنّ في التغلب على مصاعب الحياة، وهاك قولها: " المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد في سبيل الله"[4]

---

١ – عيون الأخبار لابن قتيبة: ١/ ١٤١ .

٢ – مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني، دار الجيل بيروت، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ٤/ ٦٧ .

٣ – نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، ص١٦٢ .

٤ – أعلام النساء لعمر كحالة، ٣/ ١١٨ .




وسئلت عن (أفضل النساء) فأجابت: هي التي لا تعرف عيب المقال، ولا تهتدي لمكر الرجال، فارغة القلب إلا من الزينة لبعلها، والإبقاء في الصيانة على أهلها [1].

وتوفيت عائشة رضي الله عنها ليلة الثلاثاء السابع عشر من رمضان، وهي ابنة ست وستين سنة، فرضي الله تعالى عن الصديقة بنت الصديق وأكرم في جنات الخلد مثواها، ورزق المسلمات الاقتداء بها، والسير على نهجها، آمين .

ورحم الله شاعرنا حين قال على لسانها رضي الله عنها:

وتكلم الله العظيم بحجتي — وبراءتي في محكم القرآن
والله في القرآن قد لعن الذي — بعد البراءة بالقبيح رماني
والله فضلني وعَظَّم حرمتي — وعلى لسان نبيه برّاني
والله وبّخ من أراد تنقّصي — إفكاً، وسبّح نفسه في شاني [2]

رغم ما استشرفناه من شرف عظيم لمعرفة هذه الشخصيات العظيمة في " قصة الإفك" قصة الصبر والاحتساب والإيمان على الإفك والبهتان، إلا

١ - نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة: ص١٦٣ .

٢ - صور من سير الصحابيات، عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني، دار ابن خزيمة، ط٤، الرياض، ١٤١٨هـ -١٩٩٧، ص٣٦ .

أننا نلحظ بعد هذه المعالجة القرآنية للقصة، أنها تجاوزت الاهتمام بأشخاص الحادثة من زوايا عديدة، كما تجاوزت التفصيلات في القصة بأبعادها الفنية للقصة القرآنية، لكنها التزمت جانب المبادئ الهادية للبشرية، والتي تبني مجتمعاً على أساس تشريعي من آيات بينات .

إذ إن هذه الحادثة " الإفك والكذب والهتك بالأعراض" كثيراً ما تقع في مجتمعات وعصور، إذ إن لكل زمان منافقوه الذين يتربصون الشر بالمؤمنين، لذا لا بد أن يعي المؤمنون هذه الحقيقة، ويتحصنوا من آثارها في أنفسهم، وفي علاقاتهم ببعضهم، بما تعلموا من آداب القرآن وتوجيهاته الشريفة في آياته المحكمات .

ومن هذه المبادئ والتوجيهات التي نحصدها في هذه الآيات " آيات النور" في قصة الإفك ما يأتي:

١- الاحتراز من هتك أعراض الناس وسيرهم، وقد يحسب بعض الناس هذه الأمر بسيطاً، وهو عند الله عظيم، ويقول سيد قطب: (والذين يرمون المحصنات وبخاصة، أولئك الذين تجرؤوا على رمي بيت النبوة الكريم، إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة، وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، ولهذا وصف الذين يرمون



المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وتوعدهم بعذاب أليم في الدنيا والآخرة [1] .

قال القرطبي: (هذا عتاب من الله بليغ لمن خاضوا في الإفك، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً) [2] .

وقال صاحب التسهيل في علوم التنزيل: (عاتبهم تعالى على ثلاثة أشياء: الأول: تلقيه بالألسنة أي السؤال عنه، والثاني: التكلم به، والثالث: استصغاره حيث حسبوه هيناً وهو عند الله العظيم) [3] .

ثم يعاتب الله جميع المؤمنين: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له وتقولوا: لا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد، أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله ﷺ الطاهرة البريئة، فإن هذا الافتراء كذب واضح، عظيم الجرم .

ويقول الزمخشري: (أي القصد من التعجب من عظيم الأمر والاستبعاد له، والأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجائب) [4] .

---

١ – في ظلال القرآن، سيد قطب: ٤/ ٢٥٠٣ .

٢ – تفسير القرطبي: ١٢/ ٢٠٣ .

٣ – التسهيل في علوم التنزيل: ٣/ ٦٢ .

٤ – الكشاف: ٣/ ٢٢٥ .

وذلك جانب تربوي وإجراء وقائي يقوم على خبرة بمداخل النفس البشرية ومكامنها، ومن ثم جاء التعقيب بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩]، إن رمي المحصنات من أعظم الكبائر، فما بالنا بقذف أم المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وأذى أزواجه إيذاء له ﷺ، خاصة وأن الله تعالى رفع عنهم الرجس، فهم آل البيت الأطهار .

وقال الزمخشري: (إن قلت كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة (كامرأة نوح ولوط) ولم يجز أن تكون فاجرة؟ قلنا: لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم، فيجب أن لا يكون معهم ما ينفر عنهم، ولم يكن الكفر عندهم مما ينفر، وأما الزنى فإنه من أعظم المنفرات) [1]، لذلك فإنه لم يقع قط من امرأة .

2- وجوب التحري والتثبت من الخبر، وحسن الظن وخاصة بالكرام الأخيار، ﴿ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢]، إن مقتضى الإيمان أن لا يصدق مؤمن على أخيه قوله عائب ولا طاعن، قال ابن كثير: (هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك

---

١ – الكشاف للزمخشري: ٣/ ٢٢٠ بتصرف .

الكلام السوء، وهلا قاسوا الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم، فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأخرى .

روي أن امرأة أبي أيوب قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟! قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله خير منك) [1] .

ومن الدروس التي نستقيها من هذه القصة، ضرورة قياس الأشياء على أنفسنا، وأن نحكم على غيرنا كما نحكم على أنفسنا .

كما تبين هذه القصة خطورة الغيبة في المجتمع الإسلامي على الفرد والجماعة، فعن أبي هريرة قال: قال ﷺ : **" أتدرون ما الغيبة"**؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **" ذكرك أخاك بما يكره"** قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: **" إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته"** [2] .

٣- تدعونا هذه القصة وما أنزل الله فيها من آيات محكمات إلى التسامح، وأن نقابل الإساءة بالإحسان، فالله يغفر الذنوب لمن يشاء، فإن كانت رحمة الله شملت عباده، وفتح باب التوبة والمغفرة واسعاً، فما بال الإنسان يبخل بها على أخيه في الله .

---

١ - مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٩١ .

٢ - رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الغيبة، رقم (٦٧٥٨) .

ونزلت الآية في شأن أبي بكر الصديق: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]، إذ حلف ألا ينفق على مسطح بعد الذي قاله في شأن أم المؤمنين رضي الله عنها ، ولقد أقيم الحد على مسطح وتاب إلى الله تعالى فوجب التسامح معه، فإن تغفر يغفر الله لك، فإن الجزاء من جنس العمل، فالكريم لا يقابل الإساءة بالإساءة، وإنما يقابلها بالإحسان، وأن نصفح ابتغاء مرضاة الله تعالى .

تهدف قصتنا "الإفك" إلى تشويه المجتمع الإسلامي بالفاحشة والدسائس، وإن هذا لا يتوقف مع عجلة الزمان والمكان، ما دام أصحاب النفوس الحاقدة للإسلام تحيك المؤامرات الهدامة، لكن عين الله ساهرة على حماية دينه ورعاية مجتمع تحيطه البركة، وتحميه أجنحة الملائكة، أمام طغيان وساوس الشيطان، ولننتبه لخطورة هؤلاء المنافقين وما يبغونه من ديننا، ومجتمعاتنا ورعايانا .

إن كل صفحة من صفحات قصص القرآن تسجل لنا عظة وعبرة، ودرساً في مدرسة الحياة، فمن نهل منها تَخَرَّجَ من دنياه وهو شامل أعظم الحسنات، التي ترفعه إلى أعلى الدرجات، وتبعده عن أسفل الدركات، والعياذ بالله .




الفصل الثاني

دراسة تحليلية لشخصية

السيدة زينب بنت جحش الأسدية الهاشمية رضي الله عنها

أكرمهن ولياً وسفيراً

قصة زواج الرسول ﷺ منها في سورة (الأحزاب)

- لمحة عن سيرة زيد بن حارثة " أسره، عتقه، تبنيه" .
- قصة زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش، والحكمة منه .
- قصة زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش، والحكمة منه .
- نزول الحجاب، ليلة عرس زينب بنت جحش .
- دور المرأة في القصة القرآنية .
- دروس وعبر .

كان زيد بن حارثة قد جيء به إلى مكة أسيراً، واشترته السيدة خديجة ﵂ ، ثم وهبته لمحمد ﷺ عند زواجه منها، ولما اهتدى إليه أبوه وعمه وقدما على النبي ﷺ في طلب فدائه، خيّره رسول الله ﷺ بين البقاء عنده أو اللحاق بقومه، فاختار البقاء، وقال للنبي ﷺ : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني مكان الأب والعم، فأعتقه الرسول ﷺ وتبناه، وسُمي زيد بن محمد، إذ كان التبني مباحاً عند العرب، حتى نزل قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٤ – ٥]، فسمي زيد ابن حارثة حين نزلت هذه الآية الكريمة . كان زيد أول من أسلم من بعد علي ابن أبي طالب وخديجة ﵂ ، وكان الرسول ﷺ يحمل له من الحبّ والإعزاز ما يحمله لولده، وقد أبدى زيد من الشجاعة في الغزوات والفتوحات الإسلامية ما دعا النبي إلى اختياره أميراً لسبع سرايا، ولما أراد أن يزوجه اختار له إحدى قريباته زينب بنت جحش، وذهب إليها يخطبها له، ويحدثها عن مكانة زيد منه ومن الإسلام [1] وعن أصله العربي النقي .

---

١ – السيرة العطرة محمد خاتم الرسل، عبد العزيز خير الدين، ص٣٨٤ . والبداية والنهاية لابن كثير: ٤/ ١٤٥ . والنهج المحمدي، عبد العزيز المسند، ص٣٣٢، ط النادي الأدبي، الرياض، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠ . والسيدة زينب ﵂، موسى محمد علي، ص٣٨ . ومحمد ﷺ ،اتيين دينيه، سليمان بن إبراهيم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١، ص٢٣٠ .

لقد كانت زينب بنت رئاب الأسدي ابنة عمة رسول الله ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، من أكرم عائلات العرب حسباً ونسباً، فضلاً عن جمالها فإنها لا ترضى زيداً زوجاً لها لما سبق عليه من رق، ولأنه كان أسود اللون أفطس الأنف، وأَصَرَّت على رفض الزواج منه، وكذلك أبى أخوها عبد الله أن يزوجها من زيد، وفزعا إليه يسألانه ألّا يلحق بهما مثل هذا العار، فما كان لبنات الأشراف أن يتزوجن من مَوَالٍ، وإن أُعتقوا، وقالت زينب: (لا أتزوجه أبداً، وأنا سيدة أبناء عبد شمس) [1]، فأنا خير منه حسباً ونسباً .

لكن الإسلام لا يعترف بالفوارق المبنية على الأصل والحسب، بل وضع للتفاضل معايير أخرى، تقوم على مبدأ جديد تقرر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فكان زيد وفق هذه المعايير في المكان الأول من المسلمين فضلاً عن أصله العربي النقي [2] .

---

١ - نساء النبي د . بنت الشاطئ، ص١٣٤ .

٢ - السيرة العطرة ص٣٨٥ . وزوجات النبي وأولاده، أمير مهنا الخيامي، ط عز الدين دمشق، ص٣٧٧ . ونساء رسول الله ﷺ شرف الدين الدمياطي، تحقيق د . فهمي سعد، ط عالم الكتب بيروت، ص٦٣ . ومكانة المرأة في الإسلام، حسن الحفناوي ص١١٠ . والسيدة زينب، لطيفة محمد صالح الفرفور، ط دار الإمام دمشق، ط٢، ١٩٨٦،ص ٤٥-٨١ بتصرف .

لقد كان الرسول ﷺ منذ بداية رسالته قد أخذ على نفسه أن يكون أول من يضرب المثل بشخصه أو بأقاربه المقربين لما يفرضه التشريع الإسلامي من أحكام تغاير عادات الجاهلية وتقاليدها، ولعل من أبرز هذه الأحكام المساواة بين المسلمين جميعاً، لا فرق بينهم بسبب الأصل أو اللون، " **فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى**"[1]، وهم سواسية كأسنان المشط، ولا يضير أحدهم ما قد يكون سبق عليه من رق ما دام قد أُعْتِقَ واسترد حريته وكرامته.

إلا أن قريشاً كانوا يرون أن من كان من قَبْلُ عبداً لا يجوز أن يرقى إلى الأشراف لمصاهرتهم، كما كانوا يرون أن الابن المتبنَّى له سائر حقوق الابن الطبيعي، يرث وليه إذا مات، ولا يحل للولي أن يتزوج من زوجة الابن المتبنى إذا طلقها أو مات عنها، وبقيت هذه الأحكام قائمة حتى نزلت سورة الأحزاب، فاستبدلت بها غيرها[2] .

لكن زينب وأخاها لم ينظرا إلى هذه المعايير، بل وضعا في اعتبارهما أن زيداً سبق أن سُبي وبيع رقيقاً في مكة، فأبديا عدم الموافقة على هذه الخطبة رغم حبهما لرسول الله ﷺ ورغم حرصهما على إرضائه وطاعته، ورغم ما تتمتع فيه

---

١ – جزء من خطبة النبي ﷺ أيام التشريق التي رواها الإمام أحمد في مسنده، ورجاله رجال الصحيح كما في الزوائد للهيثمي .

٢ – السيرة العطرة، عبد العزيز خير الدين ،ص٣٨٤ .

المرأة من حرية الاختيار لشريك حياتها، فهو اختيار مصيري، وهي ابنة الحسب والنسب، فعظم الأمر عليها، ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان، لقد تدخل الوحي الإلهي في الأمر، ونزلت آيات من السماء تحسم الموضوع، وتأمر زينب وأخاها بالانصياع لأمر الله ورسوله، ولو لم يعلما الحكمة من ذلك، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والمؤمن والمؤمنة اللذان قصدهما الله تعالى في آياته هما: عبد الله وأخته زينب بنت جحش رضي الله عنها، (وإن كانت عامة كما يقول علماء اللغة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، فلما نزلت الآية قالت: رضيت يا رسول الله، وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ، وكذلك أخوها، فأنكحها رسول الله ﷺ زيداً، فدخل بها.

فقد قدر الله وفعل بأن تكون زوجة زيد، وبزواجها هذا كان لها الدور الفّعال في حسم إبطال التفاضل بين الناس بالمال والجاه والنسب، الذي كان سائداً بين العرب، إذ كان الرجل يزهو على الرجل فيقول له: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: ٣٤]، وهذا المقياس الذي سنته الجاهلية كمقياس تفاضل بين الناس ينتج عنه التفرقة بين الأفراد والتفتت في



المجتمعات، لكن الله تعالى استبدله بمقياس عادل بين الناس عامة لم يخصص فئة على أخرى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

وأخذ الرسول ﷺ يعمق هذا المفهوم بعد تزويج زيد بن حارثة بزينب بنت جحش رضي الله عنها ، فكان يقول: **" إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه "** [1].

لقد جاءت الممارسة العملية والتطبيقية بزواج زيد من زينب، تطبيقاً وتفعيلاً، لهذا المعنى السامي، التقوى والعمل الصالح، ليجعله قاعدة المساواة والتفاضل بين الناس، فيحطم الفوارق الطبقية التي يقيم لها العرف الجاهلي وزناً، فقد آخى بين زيد بن حارثة وان عمه حمزة بن عبد المطلب، كما وضع أمثال بلال وصهيب وسليمان في منزلة عالية، وذلك لإذابة الفوارق المصطنعة [2]، تعميق مبدأ: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣]

يقول سيد قطب: (أراد الرسول ﷺ أن يحقق المساواة الكاملة بتزويجه من شريفة من بني هاشم قريبته زينب، ليسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه من أسرته، وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل

---

١ - سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب الأكفاء: ١/ ٦٣٢ .

٢ - أعلام المسلمين " أم المؤمنين زينب"، أمينة عمر الخراط، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨، ص٨٨.

واقعي من رسول الله ﷺ، تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة، وتسير البشرية كلها على هداه) [1] .

غير أن المرأة القرشية الأسدية وإن انصاعت لحكم الله تعالى، وحكم رسوله ﷺ، لم تهيئ نفسها للتجاوب الحقيقي معه، وبقيت كارهة، متعاظمة عليه لشرفها ونسبها، مما كان يؤلمه ذلك، فيذهب إلى الرسول ﷺ ويشكوها إليه، ويبدي رغبته في طلاقها، فيجيبه ﷺ : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾، ويتكرر ذلك أكثر من مرة، وأنزل الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] .

وأذعن زيد رضي الله عنه للأمر الإلهي ولرغبة رسول الله ﷺ، وعاد مرة ثانية إلى زوجه الشريفة، ليجرب الاحتمال ما استطاع إليه سبيلاً، حتى نفد صبره وتحمله، ففارقها وكان الطلاق [2]، وهكذا المؤمنون الصالحون ليس لهم اختيار مع اختيار الحق تبارك وتعالى لهم .

وشعر رسول الله ﷺ بالعطف على الزوجة الشابة، التي أُكْرهت على الزواج ممن لا ترضاه خضوعاً لأمر الله ورسوله، فكانت النتيجة طلاقها وهي ما تزال شابة، ومن أسرة كريمة، ترى في طلاق ابنتها ما يغض شرفها .

---

١ - في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٢٨١٥ .

٢ - تاريخ الطبري ٣/ ٤٣، والسمط الثمين،ص ١٢٣ .

ولأن الرسول ﷺ رأى في زينب بنت جحش بنت عمته رضي الله عنها القدرة على تحمل هذه المسؤولية في تحقيق نظرية إنسانية كبرى (المساواة في الإسلام ولا تفاضل بغير التقوى)، وليعيشها كل المجتمعات الإنسانية اللاحقة إلى يوم القيامة: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وبها يتم الخروج عن بعض تقاليد العرب الهدّامة، فكان الرسول ﷺ يستكره لذلك امرأة من غير أهله، وليكن زيد مولاه الذي تبناه والذي أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدهم صاحب حق أن يرثه كسائر أبنائه سواء بسواء، وليكن هو الذي يتزوجها فسيكون مستعداً للتضحية التي أعدهّ الله تعالى لها من قبل فتحققت بذلك الحكمة من هذا الزواج (غير المتكافئ) ظاهراً، لكنه حقق إزالة هذه الفوارق والعصبيات الجاهلية من التفاخر بالأحساب والأنساب والتعالي بها، وأن تزول نهائياً بتطبيق هذه المفاهيم بطريقة عملية بهذا الزواج، فكان لزينب الدور الكبير في حياة الأمة الإسلامية، إذ بزواجها هذا نزلت هذه السورة التي تسن قاعدة المساواة في الإسلام ولا تفاضل بغير التقوى .

أراد النبي ﷺ أن يَجْبُرَ ما نال زينب من ضرر، وأن يأسو ما أصابها من جرح، وودّ لو تزوج منها لولا خشية من أن يتزوج ممن كانت لمتبناه، وتقاليد العرب تأبى ذلك، (رغم أنهم صاروا ينادونه باسم أبيه الحقيقي وهو حارثة، إلا أنهم كانوا يرون على حسب ما تعودوه أنه لا يصح للرجل أن يتزوج امرأة

من تبناه)، فأراد الله تعالى أن يهدم هذه العادة على يد النبي ﷺ وبقوله وبفعله [1] إلى أن نزل قول تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ﴾ [الأحزاب: ٤]، فعاتبه الله تعالى على تردده في إعلان رغبته في الزواج من زينب حيث قال: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] .

إنه عتاب رقيق من الله تعالى لنبيه ﷺ وإرشاد له إلى أفضل الطرق وأحكم السبل، لمجابهة أمثال هذه الأمور وحلها حلاً سليماً .

ثم بين سبحانه الحكمة من زواجه ﷺ بزينب فقال: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، الوطر: هو الحاجة، وقضاء الوطر: هو بلوغ منتهى ما تريده النفس من شيء.

والمراد هنا: أن زيداً قضى حاجته من زينب، ولم يبق عنده أدنى رغبة فيها، بل صارت رغبته العظمى في مفارقتها، أي: فلما قضى زيد حاجته من زينب وطلقها، وانقضت عدتها، زوجناكها، أي جعلناها زوجة لك، لكي لا يكون

---

١ – القصة في القرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ص٤٣٩ . وحياة محمد، حسين هيكل، ط النهضة المصرية، ط٥: ١/ ١٩٦٨، ص٣٣٥ .

ضيق أو مشقة من الزواج من أزواج أدعيائهم، الذين تبنوهم، فإذا طلق هؤلاء الأدعياء أزواجهم، وانقضت عدة هؤلاء الأزواج، فلا حرج على الذين سبق لهم تبني هؤلاء الأدعياء أن يتزوجوا بنسائهم، ولهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة [1] .

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: **" اذهب فاذكرها علي"**، فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، وجعلت أقول – وقد وليتها ظهري، ونكصت على عقبي -: يا زينب، أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، أي أستشيره في أمري .

ونزل القرآن، فدخل عليها بغير إذن [2]، وهذه من خصوصياته ﷺ، حيث كان زواجه منها بلا ولي ولا شهود ولا تقرير صداق [3] .

من دروس هذه الواقعة التي استنبطها الإمام ابن حجر: (وهذا أيضاً من أبلغ ما وقع في ذلك وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب لئلا يظن

١ – القصص في القرآن الكريم، الطنطاوي، ص٤٤٢ .

٢ – المرجع السابق، ص٤٤٢ .

٣ – تفسير القرطبي:ص٥٢٧٥ .

أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه، وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها، هل بقي منه شيء أم لا؟) [1] .

وروى البخاري عن أنس بن مالك أن زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات [2] .

ولقد فتح رسول الله ﷺ باباً موصداً بهذا الزواج، وهو القضاء على عادة التبني قولاً وفعلاً، يقول الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله: (ولما انقضت عدة زينب من زيد زوّج الله تعالى نبيه إياها، لتتأسى به أمته في نكاح أزواج من تبنوه) [3]، أي ما كان على النبي من حرج أو لوم أو مؤاخذه في فعل ما أحله الله له، وقدّره عليه، وأمره به، من زواجه بزينب بعد أن طلقها ابنه بالتبني (زيد ابن حارثة) ثم قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴾[الأحزاب: ٣٨] .

---

١ - فتح الباري: ٨/ ٣٨٥ .

٢ - تفسير ابن كثير: ٦/ ٤٢٠، والسيرة النبوية ٢/ ٦٤٤ .

٣ - زاد المعاد: ١/ ٤٢ .

وها هي زينب الآن في سرور وغبطة ورضا، فجعلت تسجد لله شاكرة، وقد عزمت على صوم شهرين لله من قبيل الامتنان على هذه النعمة العظيمة التي أسداها لها [1] .

وكان يحلو للسيدة زينب رضي الله عنها أن تُظْهِرَ أمام رسول الله ما تظهره الأنثى أمام زوجها من دلال وأنوثة، وتقول له ﷺ : إني لأدل عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تَدِل بهن: إن جدي وجدك واحد، وإني أنكحَنيك الله من السماء، وكان جبريل السفير في أمري [2] .

وذكر القرطبي أن عائشة وزينب رضي الله عنهما تفاخرتا، فقالت عائشة رضي الله عنها: أنا التي جاء بي الملك إلى النبي ﷺ في سَرَقَةٍ من حرير، فيقول: هذه امرأتك، وقالت زينب رضي الله عنها:أنا زوّجني الله من فوق سبع سماوات [3] .

---

١ - الطبقات الكبرى: ٢/ ١٠٨ .

٢ - تفسير الطبري: ٢٢/ ٤، وخصائص السيوطي: ٢/ ٢٤٦ .

٣ - تفسير القرطبي، ص٥٢٧٧ .

ومن تكريم الله تعالى لها أن أنزل تشريع الحجاب في ليلة عرسها، ولعل الحكمة في ذلك تشريف وتكريم لهذه المرأة الجليلة التي نزل في شأنها وشأن زوجها قرآن، ونزل أيضاً في شأن زواجها من سيدنا محمد ﷺ قرآن [1] .

فكانت جديرة أن ينزل في حجابها وحجاب كل امرأة على وجه الأرض بعد اليوم قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وكفى بهذا شرفاً للمرأة المسلمة .

وهكذا فُرض الحجاب في الإسلام على كل أنثى، رفعاً من شأن المرأة وتكريماً لها، وهل هناك تكريم أعظم للمرأة من ذلك!! وهل رأيت اللؤلؤ إلا في الصدف!!

ومن مكارم أخلاق زينب بنت جحش الزهد والكرم والسخاء، ولها أخبار عطرة في الجود والزهد، وكان الرسول ﷺ يدرك هذه الخصلة الحميدة في زوجه زينب، فكان يحلّها من نفسه مكاناً عظيماً، وقد أثنى عليها بأنها من أصحاب المعروف، فكان يقول لأزواجه، بأنها أطولهن يداً في المعروف .

---

١ - السيدة زينب، لطيفة محمد صالح الفرفور، ص٧١ . ومن معين السيرة، صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص٣٠٨ .

وكانت أوّاهة كثيرة الصلاة خاشعة القلب، موصولة دائماً بالله عز وجل، وكان رسول الله ﷺ يحب هذه الصفات العالية فيها، وتعجبه صلاتها وصلتها بربها عز وجل [1] .

بعد هذه الوقفة الشافية مع هذه القصة العظيمة، التي تعرفنا من خلالها على كيفية تطهير المجتمع الإسلامي من رجس مفسدة اجتماعية وجاهلية، كان ذلك بقدرة الله تعالى وبعزيمة رسول الله ﷺ، لنسق معاً بعضَ العبر والعظات النافعة من هذه الأحداث المتتالية المتلاحقة، المكمّلة بعضها بعضاً، من خلال شخوص عظيمة كان لها الدور الفعال لتحقيق قيم إنسانية، سادت العالم الإسلامي حتى يومنا هذا .

من هذه الدروس والعبر لهذ القصة القرآنية العظيمة:

إن أهم ما جاء به محمد ﷺ إبطال العادات الجاهلية البالية، وتبديل العرب بها أخلاقاً وخصالاً مجيدة، فحرّم وأد البنات، واضطهاد النساء، وشرب الخمر والميسر .

ومن أخبث ما كانت تعتاده العرب في الجاهلية التبنّي، حيث كان أحدهم يضم إلى أسرته ولداً يتبناه، يرثه إذا مات، ومن مساوئ هذا التبني أن الولد

---

١ - نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، ص٣٠٠-٣٠٣ بتصرف .

حين بلوغه رشده يطلع على محارم هذا الرجل ويخلو بنسائه، وهو يظنهم الأعراض، وتُسْلَب الأموال بالإرث، فكانت قصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش درساً عملياً لتحريم التبني، وقد كان التكليف من الله تعالى بتزويجها ليتم هذا التحريم لهذه العادة المستحكمة في عقول العرب، وليكون قدوة لهم على مرّ الأزمان .

فكان لزينب بنت جحش الدور الكبير في المساهمة بإبطال هذه العادة المستحكمة والراسخة في عقولهم، بتكليف من الله تعالى، وكأن الله أعدها إعداداً لتلقي هذه الأحكام، إذ كان زواجها الأول من زيد درساً في المساواة في الإسلام، وجعل التفاضل بين البشر على مبدأ التقوى والإصلاح، لا مبدأ الحسب والنسب والمفاخرة بالمال، فحققت بذلك ما أمرها الله تعالى به ورسوله العظيم، وشهد الله تعالى لها بالإيمان ودعاها (مؤمنة) بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وهذا أمر إلهي كرّمها الله به، فأطاعت أمر الله ورسوله، فأكرمها على صبرها واحتسابها، فاستبدلها خيراً بزواجها من الرسول الكريم ﷺ، بتكليف من الله تعالى، ليتحقق بزواجها وصبرها على طاعة الله ورسوله سنة شرعها الله تعالى لتكون طريقاً حكيماً للمسلمين، فالمؤمنة زينب بنت جحش رضي الله عنها المرأة الحسيبة الشريفة التي اختيرت من بين نساء الصحابة كيما

تكون المثل العملي لتحطيم الموروثات الجاهلية التي صحح الإسلام الحنيف مفاهيمها .

إن رفض زينب بنت جحش لزواجها من زيد يدل على ما للمرأة من دور فعّال في إبداء رأيها في موضوع يتحقق فيه مصيرها واختيار شريك حياتها، ولم يمنعها ذلك إلا لأمر إلهي كُلفت به من الله تعالى، لينسخ الله تعالى عادة جاهلية مستحكمة في عقول العرب، بشريعة حنيفية، فكان لزينب الشأن الكبير والدور العظيم في هذا التكليف، وأي تكليف؟! تكليف من الله ورسوله .

لذا فقد أكرمها الله تعالى، وشرفها ورفع من شأنها بأن أنزل فرض الحجاب على المرأة في ليلة عرسها، فطوبى للنساء بسيدة النساء .

وخير درس نختتم فيه هذه الآيات (كرم الأخلاق)، إن الرسول ﷺ كان على درجة رفيعة من مكارم الأخلاق وفضائل الصفات، مع الناس كلهم، ويتجلى ذلك في معاملته ﷺ لمواليه وخدّامه، ولم لا وهو القائل: **" إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"** [1]، مما جعل زيداً يؤثر البقاء عنده ويظل في كنفه، ويفضله على الذهاب مع أبويه .

---

١ - أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب :حسن الخلق، رقم (٨) .

وإن دل على شيء فإنما يدل على ما كان يعامل به صلوات الله عليه زيداً من اللطف والرحمة والبر والشفقة، أكثر مما يعامل الأب ابنه، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤].

فلنتأسَّ بأخلاق أشرف الخلق، كما أن سيرة السيدة زينب بنت جحش، تعلمنا درساً في الأخلاق الحميدة والنفحات الإيمانية، وفن التعامل مع الفقراء والأرامل والمساكين، حين ضربت مثلاً عظيماً في كرمها وجودها، حتى قال الرسول ﷺ فيها: **" أسرعكن لحاقاً بي اطولكن يداً"**، فكانت زينب أطولهن يداً، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق .

فهي الأواهة، الخاشعة، الراضية، الداعية، حتى شهدت لها عائشة رضي الله عنها: لم أر امرأة خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدقَ حديثاً، وأَوْصَلَ للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تَصَدَّقُ به وتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى [1] .

١ - أخرجه الإمام مسلم في فضائل الصحابة، برقم: (٢٤٢٢) .



الفصل الثالث

دراسة تحليلية لشخصية

السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما
حارسة القرآن الكريم وقصة التحريم في "سورة التحريم"

- مصاهرة الرسول ﷺ لعمر رضي الله عنه، ومكانته عنده ﷺ .
- أسباب نزول سورة التحريم، وتُسمى سورة النبي عليه السلام .
- تحليل قصة التحريم . . . . . . وما تناولته من قضايا في بيت النبوة .
- تحريم الرسول ﷺ ماريا القبطية على نفسه .
- العتاب اللطيف من المولى سبحانه وتعالى لحبيبه المصطفى ﷺ .
- توجيه لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن .
- كفارة اليمين .
- السر المذاع في بيت النبوة .
- المشهد الأخير من القصة . . والعبرة منه .
- فضائل حفصة رضي الله عنها.
- دروس وعبر من قصة التحريم .



دخلت حفصة رضي الله عنها البيت النبوي زوجة كريمة لرسول الله ﷺ، إذ كانت أرملة خنيس بن حذافة الأنصاري، وقد علم الرسول ﷺ بحال هذه الأرملة الشابة، فتولى مواساتها بنفسه الشريفة ﷺ فخطبها لنفسه وتزوجها، إكراماً لزوجها الشهيد، وتعويضاً لها عما أصابها في سبيل الله، ومكافأة لأبيها الكريم، وأي جزاء وتشريف خير من هذا الجزاء الأوفى .

فاتصل النبي الكريم ﷺ بهذا العبقري الفذّ اتصال مصاهرة، فكان الاتصال خير مكافأة لبطل الإسلام، وخليفة الرسول الثاني، وقد ساوى ﷺ بينه وبين وزيره الأول أبي بكر في تشريفه بهذه المصاهرة، فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما من الرسول ﷺ بمكان السمع والبصر [1] .

روى البيهقي قال: قال ﷺ : **" إن الله تبارك وتعالى أيدني من أهل السماء بجبريل وميكائيل، ومن أهل الأرض بأبي بكر وعمر، ورآهما مقبلين فقال: هذان السمع والبصر "** [2] .

نشأت حفصة في بيت يجلّ العلم والتعلّم، نشأت رضوان الله عليها على حب العلم والمعرفة، فنهلت من علوم الدين والأدب ما قدّر لها أن تنهل، حتى

---

١ – زوجات النبي الطاهرات، وحكمة تعدّدهن، محمد محمود الصوّاف، دار المعرفة، الدار البيضاء، ص٤١ .

٢ – رواه البيهقي في سننه .




قيل عنها إنّها إحدى فصيحات النساء من قريش، وقد تعلمت الكتابة من الشفاء بنت عبد القرشية العدوية، واستقام لسانها، وفَصُح نطقها حينما رتلت القرآن ترتيلاً، ولما اكتملت لها أنوثة الأنثى تزوجها خنيس بن حذافة السهمي، وعاشت معه مسلماً مهاجراً قريرة العين مطمئنة البال والخاطر، وهاجرت معه إلى المدينة، وهناك ترملت بعد وفاته [1]، فاستبدلها الله أحسن منه لصبرها واحتسابها، وذلك بزواجها من خير الأنام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

إن قصة زواج الرسول ﷺ من حفصة بنت عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين، تُظْهِر مدى وفاء الرسول ﷺ لصديقه عمر .

وروى الزمخشري [2] أن رسول الله ﷺ خلا بمارية القبطية في يوم عائشة رضي الله عنها ، وعلمت بذلك حفصة، فقال لها: اكتمي عليّ، وقد حرمت مارية على نفسي، وأبشرك أنا أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي [3]، فأخبرت به عائشة، وكانتا متصادقتين .

---

١ – أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، عبد المنعم الهاشمي، دار مكتبة الهلال، سلسلة الأمهات، ص٣٧ . وحقوق المرأة بين الإسلام والديانات الأخرى، محمود عبد الحميد محمد، ط مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ- ١٩٩٠، ص٢٩٠ .

٢ – الكشاف للزمخشري: ٢/ ٤٦٩، ط البهية المصرية ط١ .

٣ – محمد والمرأة، د . سامية منيسي، الناشر المكتبة الأكاديمية ١٩٩٦، ص١٦ .
وقال الرازي في التفسير الكبير: (لما رأى النبي الغيرة في وجه حفصة أراد أن يترضاها فأسر إليها بشيئين: تحريم الأمة على نفسه، والبشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وعمر): ٣٠/ ٤٣ .



وقيل: خلا بها في يوم حفصة رضي الله عنها فأرضاها بذلك، واستكتمها فلم تكتم، فطلقها، واعتزل نساءه، ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية .

وروي أن عمر قال لها: لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك، فنزل جبريل عليه السلام وقال: (راجعها فإنها صوّامة قوّامة، وإنها لمن نسائك في الجنة) [1] .

وروي أنه شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش رضي الله عنها ، فتواطأت عائشة وحفصة، فقالتا له: إنا نشم منك – ريح المغافير [2] –، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره التفل (تغير الرائحة)، فحرم العسل، وقد بين الزمخشري [3] في ذلك أنه: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ من ملك اليمين والعسل، فليس لأحد أن يحرم ما أحل الله، لأن الله عز وجل إنما أحلّ ما أحل لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله، فإذا حرّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قد غفر لك ما زللت فيه، ورحمك ولم يؤاخذك به .

---

١ – نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم، شرف الدين الدمياطي، تحقيق فهمي سعد، ط عالم الكتب بيروت، ص٥١ . والمستدرك ٤٠/ ١٥، وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٢/ ٢٣٠، وسنن أبي داود: ٢/ ٢٨٥ .

٢ – لسان العرب: ٥/ ٣٢٧٦ مادة (غ ف ر)، والمغافير: صمغ يسيل من شجر(العرفط)، طعمه حلو، غير أنه رائحته ليست طيبة .

٣ – الكشاف للزمخشري: ٢/ ٤٧٠ .

نرى: أن تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية، أما تحريم العسل فلم يقصد فيه رضا أزواجه وإنما تركه لرائحته .

ودليلنا على ذلك، أن الله تعالى واسع المغفرة عظيم الرحمة، حيث سامحه في امتناعه عن مارية، وإنما عاتبه رحمة به لتضييقه على نفسه مرضاة لأزواجه.

وإن رسولنا الكريم ﷺ امتنع امتناعاً وليس تحريم ما أحله الله تعالى كما قال الزمخشري، وهذا ما نخالفه به الرأي، إذ هذا مخالف لقصد الرسول ﷺ، فلم يخالف الرسول الكريم لحلال أحلّه الله تعالى على حد زعم الزمخشري، وإلا تُعتبر مخالفة من الرسول ﷺ ومعصية، والرسول ﷺ منزه عنها، وإنما امتنع عن بعض الطيبات إكراماً لزوجاته، فعاتبه الله لطفاً به .

وقد كثرت الروايات حول مسألة التحريم، فمنهم من اعتبر سبب التحريم هو تحريمه ﷺ العسل على نفسه، ومنهم من اعتبره تحريم مارية القبطية عليه .

والذي أميل إليه (الرأي الثاني)، إذ إن الغيرة التي انتابت نساء الرسول ﷺ دفعتهم إلى التظاهر على النبي ﷺ، ونشر الخبر، إذ إن مارية القبطية كانت تحمل من الرسول ﷺ، وكان هذا دافعاً كبيراً لشن الغيرة عليها وعلى الرسول ﷺ .

إنه اهتمام بإنزال سورة فيها الوعيد والتهديد لأزواج الرسول ﷺ بالطلاق واستبدالهن بنساء خير منهن، وأن الله والملائكة وصالح المؤمنين عون

لرسول الله ﷺ، يدل على وجود تنافس بينهن وغيرة، وهذا لا يكون سببه شرب العسل، والله أعلم .

إن قصة التحريم تتناول الشؤون التشريعية، وتعالج قضايا وأحكاماً تتعلق ببيت النبوة، وإن شخوصها كرام من بيت خير الأنام؟ .

والهدف من هذه القصة تهيئة البيت المسلم والنموذج الأكمل للأسرة المتكاملة السعيدة، المتضامنة التي لا تشوبها شائبة، لتكون قدوة للأسرة في المجتمع الإسلامي .

فنزلت سورة التحريم تعقيباً على ما جرى من أحداث في بيت النبوة، حيث امتنع رسول الله ﷺ عن طيبات أحلّها الله له، فنزلت الآية الكريمات بعتاب للرسول الكريم ﷺ، وتوجيه لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا

خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴾ [التحريم: ١ — ٥] .

تناولت السورة الكريمة في بداية أحداث القصة تحريم الرسول ﷺ لجاريته ومملوكته مارية القبطية على نفسه، وامتناعه معاشرتها إرضاءً لرغبة بعض زوجاته الطاهرات، وجاء العتاب له لطيفاً رقيقاً، يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يُضَيِّقَ على نفسه ما وسّعه الله له [1]، وهو عتاب مؤثر موحٍ، فما يجوز أن يحرّم المؤمن على نفسه ما أحله الله له من متاع، والرسول ﷺ لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعي، إنما كان قد قرر حرمان نفسه، فجاء هذا العتاب يوحي بأن ما جعله الله تعالى حلالاً فلا يجوز حرمان النفس منه عمداً وقصداً لإرضاء أحد .

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لكن الله تعالى يوحي بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته، وهو إيحاء لطيف، أوحى الله تعالى به لرسوله الكريم ﷺ .

أما اليمين التي يوحي النص بأن الرسول ﷺ قد حلفها، فقد فرض الله تحلتها، أي كفارتها التي تحل منها، ما دامت في غير معروف، والعدل عنها

١ – صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: ٣/ ٤٠٥ .

أولى، ﴿ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ ﴾ فهو يعينكم على ضعفكم، وعلى ما يشق عليكم، ومن ثم فرض تحلة الإيمان، للخروج من العنت والمشقة، ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾، يشرع لكم عن علم وعن حكمة، ويأمركم بما يناسب طاقتكم وما يصلح لكم، فلا تحرموا إلا ما حرم، ولا تحلّوا غير ما أحلّ، وهو تعقيب يناسب ما قبله من توجيه [1] .

قال الآلوسي: (إنما عاتبه الله تعالى رفقاً به، وتنويهاً بقدره إجلالاً لمنصبه عليه الصلاة والسلام، أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى به) [2] .

لذا فإن الله سبحانه وتعالى استهل عتابه اللطيف، وخطابه إلى رسوله الكريم ﷺ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾، وهذا نداء تكريم وتوقير وتعظيم وتنويه بمكانة النبي ﷺ من الله تعالى ومقامه، فلم يخاطبه باسمه العلم، كما خاطب سائر الرسل، وإنما خاطبه بلفظ النبوة أو الرسالة، وذلك أعظم دليل وبرهان على أنه ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين، وتنبيه لما سيرد بعد هذا النداء من عتاب لطيف!! .

---

١ – في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد السادس، ص٣٦١٥ .

٢ – روح المعاني للآلوسي: ٢٨/ ١٤٨ .

يتطور الحدث في قصة التحريم، إلى حدث أشد خطورة على كيان الأسرة المسلمة التي هي عماد المجتمع الإسلامي، فيشير الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]، يشير الله إلى الحدث ولا يذكر موضوعه ولا تفصيله، لأن موضوع السر ليس هو المهم، وليس هو العنصر الباقي فيه، إنما العنصر الباقي هو دلالته وآثاره .

فتتناول السورة موضوعاً هاماً هو إفشاء السر بين الزوجين، والذي يهدد الحياة الزوجية، وضربت المثل على ذلك إفشاء السر رسول الله ﷺ إلى حفصة رضي الله عنها ، واستكتمها إياه، فأفشته إلى عائشة حتى شاع وذاع، مما أغضب الرسول ﷺ حتى هم بتطليق أزواجه، وقد حملت السورة الكريمة حملة شديدة على أزواج النبي ﷺ، حيث حدث ما حدث بينهن من التنافس والغيرة، وتوعدتهن السورة بإبدال الله لرسوله عليه الصلاة والسلام بنساء خير منهن، انتصاراً لرسول الله ﷺ .

ومن هذا المشهد نطَّلع على نموذج من تلك الفترة العجيبة في تاريخ البشرية، الفترة التي عاش فيها الناس مع السماء، والسماء تتدخل في أمرهم علانية وتفصيلاً، ونعلم أن الله أطلع نبيه على ما دار بين زوجيه بشأن ذلك الحديث الذي أسره إلى بعض أزواجه، أو أنه ﷺ حين راجعها فيه اكتفى بالإشارة إلى جانب منه ترفعاً عن السرد الطويل، وتجملاً عن الإطالة في



التفصيل، ومن عادة الفضلاء التغافل عن الزلات والتقصير في اللوم والعتاب، قال الحسن: (ما استقصى كريم قط)، وقال سفيان: (ما زال التغافل من شيم الكرام)، ولقد أنبأها بمصدر علمه وهو المصدر الأصيل: ﴿ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ إشارة إلى العلم والخبرة، وإشارة مؤثرة في حالة التآمر والمكايدة المحبوكة وراء الستار .

وقد أعرض الرسول الكريم عن ذكر الخلافة، لأنه ﷺ كره أن ينتشر ذلك في الناس [1] .

ويتغير السياق من الحكاية وسرد القصة عن حادث وقع، إلى مواجهة وخطاب، والخطاب هنا موجه إلى عائشة وحفصة رضي الله عنهما، والالتفات هنا من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في اللوم والعتاب، لأن المبالغ في العتاب يجعل المُعَاتبَ أولاً بعيداً عن ساحة الحضور، ثم إذا اشتد غضبه أقبل عليه مصرحاً له بما يريد [2] .

---

١ – صفوة التفاسير، ص٤٠٨ . وتفسير الخازن: ٤/ ١١٧ .

٢ – روح المعاني: ٢٨/ ١٥٢ .




لقد خاطبهما الله بطريق الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما وحملهما على التوبة مما بدر منهما من الإيذاء لسيد الأنبياء، والمقصود: فإن تبتما كان خيراً لكما من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء .

حين نتجاوز هذه الدعوة إلى التوبة، نجد حملة ضخمة هائلة وتهديداً مخيفاً، ومن هذه الحملة الضخمة لأحداث القصة تدرك عمق الحادث وأثره في قلب الرسول الكريم ﷺ، حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاة جبريل وصالح المؤمنين والملائكة، ليطيّب خاطر الرسول ﷺ ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير [1]!! .

وقد فصل الله تعالى بصفات النساء اللواتي يمكن أن يبدل بهن من أزواجه لو طلقهن، مع توجيه الخطاب للجميع في معرض التهديد، وهذه الصفات التي يدعوهن إليها عن طريق الإيحاء والتلميح [2] .

ويقول ابن كثير: قسمهن إلى نوعين ليكون ذلك أشهى على النفس، فإن التنوع يبسط النفس [3] .

---

١ – في ظلال القرآن، ص٣٦١٦ . وصفوة التفاسير، ص٤٠٨ . والمرأة في القصص القرآني، ص٨٣٩ .

٢ – في ظلال القرآن، ص٣٦١٦ .

٣ – تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٢٢ .



وفي هذا تهديد لهن كان له ما يقتضيه من تأثير مكايداتهن في قلب رسول الله ﷺ، وما كان ليغضب من قليل!! .

وقد رضيت نفس النبي ﷺ بعد نزول هذه الآيات، وخطاب ربه له ولأهل بيته، واطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة، وعاد إليه هدوءه بتأييد من الله سبحانه وتعالى .

وبعد فهذه صورة من الحياة البيئية لهذا الرجل الذي كان ينهض بإنشاء أمة، وإقامة دولة، على غير مثال محدد، وعلى غير نسق مسبق، أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية في صورتها الأخيرة، وتنشئ في الأرض مجتمعاً ربانياً في صورة واقعية يتأسى بها الناس، وهي صورة تجمع بين إنسان كريم يزاول إنسانيته، ونبي عظيم يرسم طريق أمة، ويحمل أمانة العقيدة ومنهج الحياة الأخيرة للبشر جميعاً .

وختمت القصة بالمشهد الأخير الذي يتجسد في مثالين متباينين:

- مثال للزوجة الكافرة في عصمة الرجل الصالح المؤمن .
- مثال للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الكافر .

تنبيهاً للعباد على أنه لا يغني في الآخرة قرابة أو نسب إذا فرق بينهما الدين، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] .

لقد ختم الله (قصة التحريم) بخاتمة تتناسق مع جو السورة وهدفها في ترسيخ دعائم الفضيلة والإيمان في جو الأسرة المسلمة، والتي تعتبر أساس بناء منهج المجتمع الإسلامي .

ودخلت شخوص جديدة إلى جو الأحداث، تساهم في تطوير الحدث، لتحقيق الهدف من القصة القرآنية، ولكن تختلف طبيعتها باختلاف مقتضى الحال .

فمثّل تعالى للكفار في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين، بحال امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا في عصمة نبيين عظيمين، هما نوح ولوط عليهما السلام، وإنما وصفهما بالعبودية تشريفاً وتكريماً لهما بإضافتهما إليه، لكن خانتا كل واحدة زوجها بالكفر وعدم الإيمان [1]، فلم يدفعا عن امرأتيهما – مع نبوتهما–

---

١ – الخيانة هنا يراد الخيانة في الدين لا في العرض، وقد اخطأ بعض المفسرين حيث نسب لهما فاحشة الزنى، وهذا لا يجوز، لأن الله تعالى كرم أنبياءه أن تتعاطى واحدة من زوجاتهم الفجور، بل هن شريفات مصونات لحرمة الأنبياء، وقد قال ابن عباس: (ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، و كانتا مشركتين) .

شيئاً من عذاب الله، وقيل ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين مع الكفرة المجرمين .

وقال القرطبي: (ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيهاً على أنه لا يغني في الآخرة أحد عن قريب ولا نسيب، إذا فرق بينهما الدين، كما لم يدفع نوح ولوط عليهما السلام- مع كرامتهما على الله تعالى- عن زوجتيهما، لما عصتا شيئاً من عذاب الله) [1] .

كما جاء في خاتمة القصة، مثل آخر للمؤمن في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر إذا كان هو مؤمناً .

كامرأة فرعون حيث كانت في الدنيا تحت ألد أعداء الله (فرعون)، وهي في أعلى غرف في الجنة [2]، فلم يضر اتصالها به كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط اتصالهما بهما، وهما رسولا رب العالمين .

فحين دعت ربها قائلة: يا رب اجعل لي قصراً مشيداً بجوار رحمتك في جنة النعيم، قال بعض العلماء: ما أحسن هذا الاختيار، لقد اختارت الجار قبل

---

١ - تفسير القرطبي: ١٨/ ١-٢ .

٢ - صفوة التفاسير: ٣/ ٤١٢ .

الدار، فهي تطمع بجوار الله قبل طمعها في القصور، وهذا دليل على إيمانها وتصديقها بالبعث .

ومريم بنت عمران، مثل آخر في الإيمان، التي حفظت فرجها وصانته من مقارفة الفواحش، عفيفة، شريفة، طاهرة، لا كما زعم اليهود، عليهم لعنة الله، فآمنت بشرائع الله القدسية وكتبه السماوية، فكانت من العابدين، وهذا ثناء عليها بكثرة الطاعة والعبادة والخشوع .

وهنا يرى الزمخشري (1) أنه في ضرب الله الأمثال في هذه القصة " قصة التحريم" يرى في طيّ هذين التمثيلين تعريضاً بأمَّي المؤمنين المذكورتين في أول السورة، وما فَرَط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه .

وتحذير لهما على أغلظ وجه لما في التمثيل من ذكر الكفر ونحوه في التغليظ، ويرى أن التعريض بحفصة أرجح، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على الرسول ﷺ أسرار التنزيل .

إن هناك بوناً شاسعاً بين امرأة لوط وحفصة رضي الله عنها ، لما لحفصة من مناقب عديدة، فإجحاف أن يقارنها الزمخشري بامرأة كافرة خانت زوجها خيانة

---

١ – الكشاف، الزمخشري ٢٤/ ٤٧٣ .



كبيرة، إذ كانت توشي بقومها على زوجها، وتساندهم في القيام بالفاحشة، وهذا بطلان عظيم .

أما حفصة رضي الله عنها ، فقد استغفرت ربها، وقبل الله توبتها، ورضي الله ورسوله عنها، فكانت من التائبين، وشتان بين كافرة ومؤمنة، مؤمنة حافظة لكتاب الله تعالى، أخطأت فاستغفرت الله، فقبل الله توبتها، وبين كافرة عصت الله تعالى، وتمادت في عصيانها فهلكت مع القوم الظالمين .

فامرأة نوح قالت لقوم نوح عليه السلام: إنه مجنون، وامرأة لوط دلت على ضيفان لوط عليه السلام، وأم جميل آذت الرسول صلى الله عليه وسلم فحرمها الله تعالى نعمة الهداية، وجعل لها الموت مع الكفر والعصيان .

فكفروا جميعاً بفعلتهم، فبئساً للقوم الكافرين .

إن الفضائل التي تحلت بها أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها كثيرة تغفر لها خطأها، ولعل حفصة رضي الله عنها كانت واحدة من مراجع الفقه في العصر الراشدي، ولئن أبدعت في مجال الفقه والعبادة والصلاح، فقد أبدعت في الأدب، فكانت من ذوات الفصاحة وربات البلاغة في عصر النبوة، فكانت صوّامة قوامة تقية نقية من آل البيت، وقد كرمها الله تعالى بأن كانت حارسة للقرآن الكريم، فقد اؤتمنت على النسخة الأولى للقرآن الكريم، فطوبى لها الثقة المشرّفة، وامرأة

تحمل هذه المناقب لا يمكن أن تعترض على شرع الله، إنما كل ما فعلته بدافع فطرة الغيرة التي فطر الله النساء عليها!! .

إن في الآيات الكريمات دروساً وعبراً نستقيها من مدرسة بيت النبوة، الأسرة المسلمة الأولى، والقدوة الحسنة لكل بيت في المجتمعات الإسلامية .

حفظ السر بين الزوجين: قال ﷺ **" إن من أعظم الأمانة عند الله تعالى يوم القيامة الرجل يُفضي إلى زوجته وتفضي إليه ثم يَنْشُرُ سِرَّهَا"** [1] .

إن من صفات المرأة الصالحة أن لا تذيع لزوجها سراً ولا تفشي له أمراً، وتكون ستراً لزوجها، وزوجها ستر لها: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧] .

فإن المرأة المسلمة المتكاملة تتحلى بالأخلاق الحميدة، فمن كانت خاشعة خاضعة لأوامر الله تعالى في زوجها، فإنها تأخذ بيده إلى مرضاه الله لا إلى معصيته، ولا تكلفه بما لا يطيقه .

إن حفصة رضي الله عنها لو أخذت سر الرسول ﷺ مع جاريته مارية بالقبول الحسن، ولم تذعه، لما كلفته أن يحرم على نفسه ما أحله الله له، تدفعه إلى يمين

---

١ – رواه مسلم برقم (١٤٣٧) باب تحريم إفشاء سرّ المرأة .



التحريم الشرعي، ويضيق على نفسه في ذلك مرضاة لها، غفر الله لها خطأها، فقد تنبهت لذلك ﵂ ، وكانت مغفرة الله واسعة .

فما بال بعض النسوة اللواتي تدفع بأزواجهن إلى قطع الأرحام ومد اليد إلى الحرام، بتعييره بالفقر، ولا ترضى ما قسمه الله تعالى لها من نعم، فتكون عليه وتأخذ بيده إلى الهاوية، وكان الأولى بها أن تأخذ بيده إلى مرضاة الله تعالى في الرزق الحلال .



الخاتمة

وتشمل:

- **الخلاصة والنتائج .**
- **التوصيات .**
- **قائمة الفهارس .**

الخلاصة والنتائج

إن دور المرأة في القصة القرآنية يؤكد على المكانة العظيمة التي حصلت عليها المرأة في ظل الإسلام، مقارنة مع الحضارات القديمة والحديثة، فالقرآن الكريم شاهد حق على هذه المكانة العظيمة التي تمتعت لها المرأة في ظل رحمة الإسلام .

فالمرأة بطبيعتها الأنثوية، وبإنسانيتها، وبخصائصها الفطرية التي تميّزت بها عن الرجل، وتميّز الرجل بخصائصه عنها، كانت مشاركة فعّالة لها دورها المكلّفة به من الله تعالى، تُعاقب أو تُجازى عليه، ولا أحد يحمل وزر أحد، وليست تابعة تحمل وزر وأعباء غيرها!! .

إن دور المرأة كامل، في عصرها وفي كل عصر، فمن جعلها مشكلة العصر، هم من سلبها حقها وحريتها!! .

إن الله تعالى ورسوله أوصى بها أماً، وزوجة، وبنتاً، وأختاً، وحتى أَمَة فلا تحتاج إلى وصية، أو أن تكون قضية!! .

إن أعداء الإسلام ودعاة التقدم، والمتمسلمين مَن أثار قضية المرأة، فجعلوها موضوع الساعة، وحديث العصر، وهدفاً للتيارات الفكرية الهدّامة،

التي تريد أن تشككها بدينها وبمبادئها، لإثارة الشبهات حول حقوقها وواجباتها، فتشغلها عن دورها المكلفة به من رب العرش العظيم .

فهم يعون أنه لو سلمت المرأة (الأم، الابنة، الزوجة) لسلم الكل بظلها، سلم الرجل والطفل والأخ . . . والمجتمع!! لكنهم أرادوا أن يختلط عليها الأمر، فيختلط عليها الحابل بالنابل، والطيب بالخبيث . . . وكل هدفهم أن يوجدوا ثغرة في الإسلام، وأن يثبتوا أن الإسلام سلبها هذا الحق!! .

إن من سلبها حقها مَنْ لا يعمل بآيات محكمات مُنحت للمرأة فيها حقوقٌ وواجبات لم تنص عليها شريعة في القديم أو الحديث، إلا الدين الإسلامي .

والأمل معقود على المرأة المسلمة المعاصرة في أداء رسالتها السامية، لتكون برهاناً صادقاً لنهج ديننا الخالد، ولتسير على مسيرة حواء أم البشر وأمهات المؤمنين الصالحات .

فحواء المرأة الأولى في حياة الرجل، تشكل جزءاً أساسياً في حياته، كما هو جزء أساسي في حياتها، فهي مشاركة (في قصة الخلق) كما جسدها القرآن الكريم، ولا يمكن أن تستمر هذه الخلافة على الأرض إلا بوجودهما معاً، فهي مخلوق له كيانه، وله تكليفه من السماء، لذا فهي مشاركة للرجل في كل شيء،

بما قدره الله تعالى، ولها وجودها ودورها وتسأل عنه يوم الحساب ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ .

ومنهم من اعتبر دور المرأة ثانوياً وتابعاً للرجل في القصص القرآني، وها نحن نؤكد على دورها الرئيسي من خلال دور حواء في قصة الخلق، وغيرها .

فالمرأة عنصر أصيل من عناصر القصص القرآني، فهي تمثل واقعاً من الحياة، وتشغل جانباً مهماً من جوانبها، إن وجودها في القصص القرآني إنما هو مما استدعاه الحدث القصصي ليكون للمرأة مكان في هذا الحدث، ودور مهم في نموه للوصول إلى العظة والعبرة .

إنها إنسان، لها وجودها الإنساني، ويخضع عليها ما يخضع على البشر من ضرورات الحياة، وما يؤثر عليها من مؤثرات الخير والشر، ثم إنها امرأة لها وجودها الأنثوي، يحكمها العقل تارة، والعاطفة تارة أخرى، كما هو عليه الرجل .

وها هي امرأة العزيز تحكمها العاطفة والغرائز، كما رأينا، ولذلك صنفها بعضهم امرأة شريرة كافرة، وبعضهم صنفها امرأة إيجابية مؤمنة بعد أن تابت إلى الله تعالى وقَبِلَ الله توبتها .

إننا لا نستطيع أن نقرّ بشيء مردُّه إلى السماء وإلى الله تعالى علّام الغيوب، لا يعلم ما في النوايا والنفوس إلا هو جل جلاله، فالتصنيف يعود إلى اجتباء الله تعالى لعباده، وقَبولهم القبول الحسن، والله أعلم (هي أم نحن) بأي عمل يصنفنا الله تعالى، ويقيمنا عنده (اللهم اغفر لنا ذنوبنا، واجعلنا مع القوم الصالحين) .

أما مريم سيدة نساء العالمين، فكان لها الدور الفعّال في قصة حياة سيدنا عيسى عليه السلام، فقد أخذ عنها الشمائل الطيبة، ورضع منها حب الخير والصبر والحكمة، فحملا معاً رسالة المحبة والتسامح والسلام للبشرية، فكانت قصة أم عيسى عليها السلام مثالاً للقصة القرآنية التي تصور الانفعالات والعواطف، على مدار سير الأحداث للوصول إلى العظة والعبرة العظيمة منها.

ولما كانت مريم عليها السلام مثالاً للقصة القرآنية التي تصور الانفعالات والعواطف، كانت بلقيس الملكة العربية التي تمثل لوناً من ألوان القصة القرآنية في رسم الشخصيات رسماً بارزاً، هذه الحاكمة النَّسرة الجسور، تقوى تارة، وترضخ تارة أخرى، الحكمة تسيرها، والذكاء يساند تصرفاتها، تمثل نموذج المرأة في عدم استسلامها لعواطفها، وفي تحكيم عقلها وحكمتها في الأمور الصغيرة والكبيرة، مستقلة التفكير، تأخذ بالشورى لكنها تتخذ

قرارها بنفسها، فهي قوية الشخصية تغلبت على كونها امرأة ضعيفة التكوين، ضعيفة العواطف والمشاعر، فكانت الحكمة والحصافة هي المحرك الأساسي في شخصيتها، وكان شعاع الذكاء ينير طريقها ببريق الاتزان والمنطق السليم، فاختارت السلم على الحرب .

وهكذا نرى المرأة في القصص القرآني في كل مجال يمكن أن تحقق وجودها فيه، فهي ركن قوي في بناء القصة القرآنية ونمو أحداثها، تحقيقاً للعظة والعبرة فيها، ولم تكن المرأة في القصة القرآنية أبداً مستجلباً للإثارة والتشويق، بل لها دورها الفعال والأساسي في القصة القرآنية، كما لها دورها الفعال والأساسي في بناء حياتها مع الرجل، جنباً إلى جنب في قصة الخلق، فطوبى للمرأة المسلمة، وويل لمن خالف الله في حقوقها!! .

للقصة أثرها في تربية النفوس والسلوك والضمير الإنساني، ولهذا حظيت باهتمام الجميع في كل صعيد، فكانت في مقدمة الفنون التي تضم بين تمازج عناصرها وأحداثها، مواريث الشعوب التي عاشتها الأمم بدائية كانت أم متحضرة، حديثة أم قديمة .

اهتم العربي بالقصة، فكانت سجل حياته يسجل فيه تاريخه وأيامه وأخباره وحوادثه المهمة، والوقائع الطريفة التي تلوّن حياتهم الصعبة القاسية في وسط الصحراء .



فجاءت القصة القرآنية فقدمت إلى قلب الإنسان وشعوره أخبار الأمم السابقة، بطرق مثيرة وهادفة، تحمل دعوة صادقة إلى الحق والهداية، وإقامة وجه الإنسانية على مسالك الحق والخير والميل بها عن مشارب الشر والضلال.

فالقصة القرآنية ليست عملاً فنياً مستقلاً بموضوعه وطريقة عرضه ضمن قوالب وخصائص فنية محددة، هي وسيلة من وسائل القرآن الكريم إلى تحقيق أغراض دينية، وتثبيتها بأسلوب شائق مثير لعواطف الخير والشر، فيكون وقعها على النفس أكثر تأثيراً .

ومن هنا يتجلى الإعجاز في صدق القصة القرآنية بنقلها للأحداث نقلاً حياً، لأنها تجسد في زمانها ومكانها وشخوصها الذين عاشوا هذا التاريخ المجيد، فهي وثيقة تاريخية واقعية مضى عليها الأزمان، فلا خيال ولا مبالغة، ولا بعد عن الحقيقة والحق!! .

القصة القرآنية هي حقائق تاريخية، وليست خيالاً من الخيالات، لكنها صدق وحق مبين، ينقلها القرآن الكريم لنا ليس نقلاً تاريخياً بحتاً، بل يصبها في قالب فني بعيد عن خيال الوهم، فيبعثها من جديدة بغية العظة والعبرة والهداية والرحمة والحكمة وترسيخ العقيدة في النفوس والأرواح .

فالقصة القرآنية هي حجة وآية على صدق الرسول الكريم ﷺ ودعوته، وهي مقارعة لأهل الكتاب بالحجة والبرهان، وبيان القول الحق في دين الله الحق .

ومن أهم خصائصها التي تنفرد بها عن أي قصص فنية (ظاهرة التكرار)، التي تدل على بلاغة النظم والإعجاز القرآني .

إن القرآن الكريم كتاب دعوة ورسالة، لذا كان التكرار في سياق نشر الدعوة يناسب المقام لتحقيق العظة والاعتبار .

إن القصة القرآنية لم تأتِ لتقرر هدفاً واحداً فقط، بل إن هذا القصص كان له أهداف وغايات كثيرة، ولكنها كلها تصب في الهدف الرئيسي، وتعمل على تحقيقه، ألا وهو (الغرض الديني) في تربية نوع الإنسان على ضوء النهج الإلهي، فكانت رسالة الأنبياء والرسل في كل القصص القرآنية رسالة واحدة، ألا وهي (إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وأداء التكاليف المكلف بها الإنسان) .

إن القصة القرآنية تخضع للغرض الديني، وكان من أثر هذا الخضوع أن تُقدم بالقدر الذي يخدم هذا الغرض، وأن تعرض بأشكال تتفق معه، فتعرض مرة من أولها، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها، وتارة كاملة، وتارة تُعرض

ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك، وحسبما تخدم الغرض الديني، وتحقق العبرة والعظة منها .

هناك اختلاف كبير بين عناصر القصة القرآنية والقصة البشرية التي تعجز عن تحقيقه، ومن هنا كان إعجاز القصة القرآنية، فالفكرة في القصة القرآنية هي عرض لأحداث تاريخية مضى بها الزمن، لكنه لم يشوه أو يغيّر من مضمونها، بل ألبسها ثوباً جديداً منسوجاً بأسلوب تتشابك فيه عناصر القصة من أشخاص وحوار وحدث في إطار من الزمان، ومساحة من المكان، وهنا يظهر الإعجاز في القصة القرآنية الذي تعجز عنه القصة البشرية المحلقة في الخيال، والتي تلوّن الأحداث بغير ألوانها الحقيقية، معتمدة على إثارة الانتباه وإلهاب العواطف، فهذا لا يصلح مع القصة القرآنية التي تتسم بالواقعية والصدق، والتي تحمل لنا العظة والعبرة، لا الإثارة في الانتباه لإلهاب العواطف والوجدان!! لذا فالقصة القرآنية اعتمدت على الرواية لتُشعرك بأنك تسمع أخباراً لأشخاص لا يعيشون عصرك، ولكنهم كأنهم في عصرك، بُعثوا من جديد، مما يجعل الهدف أبلغ في النفس البشرية .

أما القصة البشرية فقد تنقلك إلى عصور وأزمان مجهولة لا علم لك بها، ولا واقع لها على أرض الوجود، تنقلنا إليها فوق أجنحة الخيال، وهدفها بذلك المتعة الفنية .




أما القصة القرآنية فتنقلنا على أجنحة البيان والإعجاز إلى عوالم حقيقية نتعايش معها في زمانها ومكانها، لنستقي منها دروساً وعبراً .

بعضهم أصر على جعل القصة القرآنية قصة فنية، تنسج الخيال، وتبتعد عن الواقع .

إننا نؤكد على واقعية القصة، لهدفها الديني السامي في تحقيق العظة والعبرة، بأسلوب لا يدخله عوامل الخيال ولا عوامل التشويق، وإنما تقوم القصة القرآنية على الحقائق، بأسلوب بلاغي معجز، في بساطته وموحياته اللفظية، لتحقيق هدفها السامي، ألا وهو هداية البشرية إلى الله خالق الخلق .





التوصيات

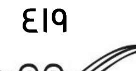
- نوصي بالاهتمام بقضايا المرأة وشؤونها الحياتية على وفق ما جاء به القرآن الكريم والسنة الشريفة، ورفض كل أساليب القمع التي تشير إلى انحطاط المرأة وجعلها سلعة تباع وتشتري في انتظار من يدفع الثمن؟! .
- نرجو من وسائل الإعلام كافة أن تجعل المرأة غاية لا وسيلة رخيصة لترويج بضائعها وسلعها، فكثير من البرامج التي تُقدم تحت شعار حماية المرأة، لكنها في الواقع برامج تهدم من كرامة المرأة وتقلل من شأنها .
- أن تتوجه وسائل الإعلام إلى تناول القصص القرآني وسيلة إلى تغذية عقول النشء، بأساليب شائقة تواكب متطلبات العصر، وتشد ميول الجيل إليها، بحيث لا تخرج عن الضوابط الشرعية والقيم الثابتة .
- أوصي طلبة العلم بالاجتهاد في طلبه والمثابرة عليه على الدوام، فطلب العلم يكون من المهد إلى اللحد، قال أحد السلف: (العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك)، وأن يكون اختيار طالب العلم موضوعاً يبحث فيه، أو علماً يفيد به وينتفع منه، يخدم دينه أولاً، ثم أمته، ولهذه الرسالة جَعَلَنَا الله تعالى خلفاءه في الأرض، ولها وضعت الملائكة أجنحتها رضاً لطالب العلم .
- أوصي القائمين على التعليم بالاهتمام بأبنائنا وبناتنا، فالإسلام يريد الطبيب المسلم، والمهندس المسلم، والمعلم المسلم، ولا يرضى لأبنائنا أن

يكونوا في مؤخرة الركب، بل أن يكونوا سادة مستقلين، وهذا لا يكون إلا بالعلم .

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا

أسأل الله أن ينور أمامنا الطريق بنور الإسلام، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يكتب في هذا العمل المتواضع النفع والخير العميم، وأن يجعل حسناته في صحائف والدي وصحيفتي وجميع المسلمين، وإنه سميع مجيب الدعاء، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .






قائمة الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾	١٩	٤٩
﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ...... ﴾	٢٠	٤٦
﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ...... ﴾	٣٤	٥٢
﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ ...... ﴾	١٢٤	٧٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ...... ﴾	١٣٥	٢٣٣
سورة المائدة		
﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾	٣٨	٥٧
﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾	٦٧	٣٢٥
سورة الأنعام		
﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ .... ﴾	٨٤	٢٤٠
﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ .... ﴾	١٣٠- ١٣١	٨٧
سورة الأعراف		
﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ... ﴾	١٦	١٢٤
﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ .... ﴾	١٧	١٢٤
﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ .... ﴾	١٩	١١٥




سورة هود		
﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ .... ﴾	٢٧	١٤١-١٤٢
﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا .... ﴾	٢٩ – ٣٠	٢٤٢
﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ .... ﴾	٣٦ – ٣٧	٢٤٤
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ .... ﴾	٤٠	٢٤٥
﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى .... ﴾	٤١	٢٤٥
﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ .... ﴾	٤٢	٢٤٥
﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ .... ﴾	٤٣	٢٤٦
﴿ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى .... ﴾	٤٤	٢٤٦
﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى .... ﴾	٤٥	٢٤٧
﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .... ﴾	٤٦	٢٤٧-٢٥٥
﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ .... ﴾	٤٧	٢٤٧
﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ .... ﴾	٤٨	٢٤٧
﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ .... ﴾	٤٩	١٠١
﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾	٦١	١١٩

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ . . . . ﴾	٤ – ٦	٢٠٤
﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ . . . . ﴾	٧ – ١٠	٢٠٥
﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ . . . . ﴾	١١ – ١٤	٢٠٥
﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءً يَبۡكُونَ ﴾	١٦	٢٠٦
﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءً يَبۡكُونَ . . . . ﴾	١٦ – ١٧	٢٠٦
﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ . . . . ﴾	١٨	٢٠٦
﴿ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾	٢١	٢٠٦
﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ . . . . ﴾	٢١	٢٠٧
﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾	٢٢	٢٣٢
﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ ﴾	٢٣	٢٠٩
﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتۡنِى عَن نَّفۡسِى . . . . ﴾	٢٣ – ٢٩	٢٠٩
﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ . . . . ﴾	٢٤	٢٢٣
﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٌ فِى ٱلۡمَدِينَةِ . . . . ﴾	٣٠ – ٣٤	٢٢٥
﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ . . . . ﴾	٣٢	٢٢٦
﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِىٓ إِلَيۡهِ . . . . ﴾	٣٣	٢٢٧

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ . . . . ﴾	٢٦	١٠٠
﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾	٢٩	٢٧٥
﴿ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾	٣٤	٣٧٤
﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا . . . . ﴾	٦٤	٨٥
سورة طه		
﴿ ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ . . . . ﴾	٥٠	١٩٤
﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ . . . . ﴾	١١٧	١٣٦
﴿ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾	١٢٠	١٣٤
﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾	١٢١	١٤١
﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ . . . . ﴾	١٢٣ - ١٢٥	١٢٨
سورة مريم		
﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ . . . . ﴾	١٦	١٥٨
﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾	١٨	١٥٨
﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا . . . . ﴾	١٩	١٥٨
﴿ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ . . . . ﴾	٢٢ - ٢٦	١٦٠

﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	٨١	٢٤٠
﴿ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ .... ﴾	١٣٤ - ١٣٥	٢٧٠
	سورة ص	
﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا .... ﴾	٧١ - ٧٢	١١٧
﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ .... ﴾	٧٧ - ٧٨	١٢٣
﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ .... ﴾	٨٠ - ٨١	١٢٤
﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ .... ﴾	٨٢ – ٨٣	٢٢٣
	سورة الأحقاف	
﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾	٣٥	٢٠١
	سورة محمد	
﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ .... ﴾	٢٢	٧٨
﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ .... ﴾	٣١	١٠٢
	سورة الحجرات	
﴿ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ ﴾	١٢	٣٦٦
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ .... ﴾	١٣	٢٥٣

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ . . . . ﴾	٣	٢٥٤
سورة الصف		
﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾	٥	٣٢٤
سورة الطلاق		
﴿ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا . . . . ﴾	٢ – ٣	١٥٤
سورة التحريم		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾	١ – ٥	٣٩٤
﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . . . . ﴾	١٠	٢٣٨
﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾	١١	٥٩
سورة الملك		
﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا . . . . ﴾	١٥	١٢٠
سورة القلم		
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾	٤	٣٨٦
سورة نوح		
﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . . . . ﴾	٢ – ٣	٢٤١

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴾	٨	١٣٩
سورة الزلزلة		
﴿ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴾	٤	١٠٢
سورة النصر		
﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾	١	١٠٣
سورة المسد		
﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ .... ﴾	١ – ٥	٣٣٥

□

فهرس الأحاديث النبوية





فهرس المصادر والمراجع

١. أزواج النبي، الإمام محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

٢. الأساس في التفسير، سعيد حوّى، دار السلام للطباعة، ط١، ١٤٠٥هـ _ ١٩٨٥م .

٣. أسد الغابة في معرفة الصحابة، للشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير، ط دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ .

٤. الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت، دار الشروق، القاهرة، ط ١٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .

٥. الإسلام والجنس، فتحي يكن، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٩١هـ - ١٩٨١م .

٦. الإسلام والمرأة، سعيد الأفغاني، بدون تاريخ .

٧. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، ط على نفقة الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود، السعودية، ط ١٤٠٣هـ .

٨. أضواء من السيرة العطرة، مأمون غريب، ط مركز الكتاب للنشر، مصر، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .

٩. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العرب، ط٩، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م .

١٠. الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، محمود السيد حسن مصطفى، ود . حسن عون، مؤسسة شباب الجامعة، ط١، ١٩٨١م .

١١. أعلام المسلمين (السيدة عائشة)، د . عبد الحميد طهماز، دار القلم، دمشق .

١٢. أعلام المسلمين (أم المؤمنين زينب)، أمينة عمر الخراط، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ .

١٣. أعلام النساء لعمر كحالة، بدون تاريخ .

١٤. الألف المختارة من صحيح البخاري، اختيار وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط٢، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م .

١٥. أم المؤمنين حفصة بنت عمر } ، عبد المنعم الهاشمي، دار ومكتبة الهلال، سلسلة الأمهات.

١٦. الإمام السهروردي حياته وشعره ومصنفاته، د . أحمد الحسن، ط دار دانية بدمشق .

١٧. أمهات المؤمنين، محمد فتحي مسعد، ط مركز الكتاب للنشر، بدون تاريخ .

١٨. أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٧٥م .

١٩. بحوث في قصص القرآن، عبد الحافظ عبد ربه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٢م.

٢٠. البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، ط السعادة، مصر، ط١، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م .

٢١. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م .

٢٢. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ .

٢٣. تاج العروس من جواهر القاموس، للإمام محب الدين أبي الفضل السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي، بدون تاريخ .

٢٤. تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٩م، ومكتبة الهلال، ط٥، بيروت، ١٩٤٧م .

٢٥. تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، بدون تاريخ .



٢٦. تاريخ الإسلام، د . حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط٣، ١٩٥٣م .

٢٧. تاريخ الأمم والملوك، للطبري، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤١١هـ .

٢٨. تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، مطبعة الهلال، ط٥، ١٩٤٧م .

٢٩. تاريخ الطبري، أبو جعفر بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٥، بدون تاريخ .

٣٠. تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٣١. التذوق الجمالي لسورة يوسف، محمد علي أبو حمدة، ط دار البشير، عمان، ط١، ١٤٠٥هـ .

٣٢. تراجم سيدات بيت النبوة، د .عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م .

٣٣. الترغيب والترهيب، للمنذري (زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي)، ط دار الحديث، بدون تاريخ .

٣٤. التسهيل لعلوم التنزيل، للشيخ الإمام محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي، ط دار الكتب العربي بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م .

٣٥. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط٧، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م .

٣٦. تطوير المرأة عبر التاريخ، باسمة كيّال، مؤسسة عز الدين للطباعة، بيروت، ١٩٨١م .

٣٧. تفسير الجلالين، للعلامة جلال الدين بن محمد بن أحمد المحلي، والعلامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، طبعة دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ .

٣٨. تفسير الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م .

٣٩. تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ .

٤٠. التفسير الكبير، الفخر الرازي، المطبعة الهندية العصرية، ط١، ١٩٣٥م .

٤١. تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، ط دار القلم، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٩م .

٤٢. تفسير النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، ط دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢هـ .

٤٣. تهذيب ابن عساكر، ثقة الدين القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، بيروت، ١٣٩٩هـ، ط٢ .

٤٤. تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، ط دار صادر، بيروت، بدون تاريخ .

٤٥. تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية، الكويت، ط١٥، ١٩٨٦م .

٤٦. تيسير المنّان في قصص القرآن، أحمد فريد، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م .

٤٧. جامع البيان، الطبري، حققه وعلق حواشيه محمود محمد شاكر، وراجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر، ط دار المعارف، ١٩٧٥ .

٤٨. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٠هـ- ١٩٤١م .

٤٩. جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٠م .

٥٠. جمهرة قصص العرب، قصي الحسين، دار مكتبة هلال للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٩م .

٥١. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن قيم الجوزية، ط دار الكتب العلمية، بدون تاريخ .

٥٢. جوامع السيرة النبوية، لابن حزم الأندلسي، دار الجيل، بيروت، ط٣، ١٩٨٤م .

٥٣. حقوق المرأة بين الإسلام والديانات الأخرى، محمود عبد الحميد محمد، ط مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٠،



٥٤. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الأصفهاني، مطبعة الأنوار المحمدية، بدون تاريخ .

٥٥. حياة أم المؤمنين خديجة عليها السلام، محمود شلبي، دار الجبل، بيروت، بدون تاريخ .

٥٦. حياة محمد ﷺ، حسين هيكل، دار النهضة المصرية، ط٥، ١٩٦٨ .

٥٧. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، دار اقرأ، بدون تاريخ .

٥٨. خديجة أم المؤمنين، عبد الحميد الزهراوي، المكتبة الإسلامية، بدون تاريخ .

٥٩. الخصائص الكبرى، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، ط دار إحياء التراث العربي .

٦٠. الخصائص، للسيوطي جلال الدين، دار الفكر، مصر، ١٩٩١ .

٦١. دائرة المعارف البريطانية، ط ١٩٨٢م .

٦٢. الدر المنثور، جلال الدين السيوطي، ط دار الفكر، ١٤٠٣هـ .

٦٣. دراسات في كتاب الله تعالى، للأستاذ محمد نعمة الله محمد إدريس الندوي، مجلة البعث الإسلامي، المجلد الثامن والأربعون، العدد العاشر، مؤسسة الصحافة والنشر، ندوة العلماء، ١٤٢٤هـ، الهند .

٦٤. دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، ط٤، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٦٥. الدعوة إلى الله في الميادين الثلاثة، الشيخ محمد حامد الغامدي، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ .

٦٦. دلائل النبوة للإمام البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق د . عبد المعطي قلعجي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ، ط٤ .

٦٧. ذم الهوى، ابن الجوزي، ط دار الكتب الإسلامية، القاهرة .

٦٨. الرحيق المختوم، بحث في السيرة النبوية، تأليف فضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، ط دار الوفاء، المنصورة، ١٤١١هـ- ١٩٩١م .

٦٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للإمام شهاب الدين محمود الالوسي، ط دار إحياء التراث العربي، ط٤، ١٤٠٥هـ .

٧٠. الروض الأنف، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي، ط الطباعة المتحدة القاهرة، بدون تاريخ .

٧١. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن قيم الجوزية، ط دار الفكر العربي، بدون تاريخ .

٧٢. رياض الصالحين، للإمام أبي زكريا النووي الدمشقي، دار المأمون للتراث دمشق ١٤٠١هـ-١٩٨١م .

٧٣. زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن قيم الجوزية، ط البابي الحلبي، ١٣٦٩هـ، ط٣ .

٧٤. زوجات النبي الطاهرات وحكمة تعددهن، محمد محمود الصواف، ط دار المعرفة، الدار البيضاء .

٧٥. زوجات النبي وأولاده، أمير مهنا الخيامي، ط عز الدين، دمشق .

٧٦. السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، للإمام محب الدين الطبري أحمد بن عبد الله الطبري، ط دار المعرفة بيروت، ط١ .

٧٧. سمير المؤمنات وأنيس الصالحات، عبد الله بدران ومحي الدين بوابيجي، دار الخير، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

٧٨. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ط دار الريان للتراث، بدون تاريخ .

٧٩. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، ط دار الفكر، بدون تاريخ .

٨٠. سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، ط دار الفكر، ١٩٨٠م .

٨١. السنن الكبرى، الحافظ الجليل أبي بكر أحمد بن الحسن بن علي البيهقي، دار الفكر .

٨٢. سنن النسائي، (أحمد بن شعيب النسائي)، بشرح السيوطي، وحاشية السندي، ط دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ .



٨٣. السيدة زينب، لطيفة محمد صالح الفرفور، ط دار الإمام، دمشق، ط٢، ١٩٨٦م .

٨٤. سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ط مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤١٠هـ .

٨٥. السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون إنسان العيون ﷺ، علي بن برهان الدين الحلبي، ط محمد علي صبيح، القاهرة، ١٣٥٣هـ .

٨٦. السيرة العطرة (محمد خاتم الرسل)، عبد العزيز خير الدين، دار الفكر العربي، ط ١٩٦٩م، بدون تاريخ .

٨٧. السيرة النبوية، د . علي محمد الصلاّبي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، ط١، ٢٠٠١م.

٨٨. السيرة النبوية، لابن إسحاق، دار أخبار اليوم، ط١، مصر، ١٩٩٨م-١٤١٩هـ .

٨٩. السيرة النبوية، للإمام الحافظ ابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ط دار الفكر بيروت، ١٤٠٢هـ .

٩٠. السيرة النبوية، محمد بن عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، ط البابي الحلبي، ١٣٧٥هـ-١٩٥٠م .

٩١. سيكولوجية القصة في القرآن، التهامي نقرة، الشركة التونسية للتوزيع ط١٩٧٤م .

٩٢. شخصية المرأة المسلمة، محمد عمر الحاجي، ط دار المكتبي، دمشق، طبعة ١٤٠٨ هـ-٢٠٠٠م .

٩٣. شخصية المرأة، حسن الصفار، الشيخ عبد الله التليدي، ط دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م .

٩٤. شرح المعلقات السبع، الإمام أبو عبد الله الحسين الزوزني، ط مكتبة المعارف بيروت، ط١، ١٩٧٢م .

٩٥. شرح سنن أبي داود، الإمام محمد محمود بن أحمد بن موسى العيني، تحقيق أبي المنذر خالد بن إبراهيم المصري، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م .

٩٦. شعب الإيمان، للبيهقي، ط دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ، ط١ .

٩٧. صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، أخرجه الدكتور مصطفى ديب البغا، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ .

٩٨. صحيح الجامع الصغير، للألباني، ط المكتب الإسلامي .

٩٩. صحيح قصص الأنبياء، لابن كثير، بقلم أبي أسامة سليم بن عبيد الهلالي السلفي الأثري، مؤسسة غراس للنشر، الدار البيضاء، ط٢، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م .

١٠٠. صحيح مسلم بشرح النووي، الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، دار إحياء التراث العربي، ط٣ .

١٠١. الصديقة بنت الصديق، عباس محمود العقاد، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط١ .

١٠٢. صفوة البيان لمعاني القرآن، (تفسير الشيخ حسنين مخلوف)، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، ط٦، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م .

١٠٣. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

١٠٤. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ط دار القرآن الكريم، بيروت، بدون تاريخ .

١٠٥. صور من حياة صحابيات الرسول ﷺ، خالد عبد الرحمن العك، ط دار الألباب، دمشق وبيروت، ط١، ١٩٨٩ .

١٠٦. صور من سير الصحابيات، عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني، دار ابن خزيمة، الرياض، ط٤، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م .

١٠٧. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الزهري، تحقيق رياض عبد الله عبد الهادي، دار إحياء التراث العربي بيروت، بدون تاريخ .

١٠٨. العقد الفريد لابن عبد ربه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠م .

١٠٩. عيون الأخبار، عبد الله بن سليم بن قتيبة الدينوري، ط دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٤٩هـ- ١٩٣٠م .



١١٠. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري، ط البابي الحلبي، ١٣٨١هـ، ط١ .

١١١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ.

١١٢. فقه السيرة النبوية، د . محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، ط٢، بدون تاريخ .

١١٣. فقه سيرة نساء النبي (مواقف وقضايا)، سعيد هارون عاشور، دار الرقي للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ .

١١٤. الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ط سينا للنشر، ط٤، ١٩٩٩م .

١١٥. الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان، الإمام العالم شمس الدين الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م .

١١٦. الفوائد، الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق أحمد راتب عرموش، ط دار النفائس، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م .

١١٧. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت . ط٧، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

١١٨. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزأبادي، ط المكتبة التجارية الكبرى، ط٥، بدون تاريخ .

١١٩. القرآن الكريم .

١٢٠. قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، ط جامعة الدول العربية، الإدارة الثقافية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٣م .

١٢١. القصة في القرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٩٦م .

١٢٢. قصص الأنبياء في القرآن الكريم، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٣، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

١٢٣. قصص الأنبياء والمرسلين، للشيخ محمد متولي الشعراوي، ط المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م .

١٢٤. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

١٢٥. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ط مكتبة دار التراث، بدون تاريخ .

١٢٦. قصص الأنبياء، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، دار الثقافة، عمان، ط٥، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م .

١٢٧. قصص الأنبياء، للثعالبي، المكتبة الثقافية، بيروت .

١٢٨. قصص العرب، محمد أحمد جاد المولى بك، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار إحياء الكتب العربية، ط٢، ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م .

١٢٩. قصص القرآن الكريم، سعيد اللحام، دار مكتبة الهلال .

١٣٠. قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، ط دار الجيل، بيروت، ١٩٧٨م .

١٣١. قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، تحقيق عبد الكريم زيتوني، ط دار الإيمان، بدون تاريخ .

١٣٢. القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ .

١٣٣. القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور، عبد الكريم الخطيب، ط مؤسسة الرسالة، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، بيروت، ط١، ١٤٧٠٤هـ - ١٩٨٤م .

١٣٤. القصص القرآني، إيحاؤه ونفحاته، د .فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٩٨٧م.

١٣٥. القصص القرآني، د . فالح الربيعي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

١٣٦. قصص النساء من الكتاب والسنة، إبراهيم محمد الجمل، الناشر مكتبة مدبولي الصغير، ط١، ١٩٩٦م .

١٣٧. القصص في الحديث النبوي، د . محمد بن حسن الزير، بدون تاريخ .



١٣٨. قصص من التنزيل، أحمد عساف، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م .

١٣٩. الكامل في التاريخ، للعلامة ابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين، ط إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٤٨هـ، ط١ .

١٤٠. الكامل في اللغة والأدب والنحو والصرف، أبو العباس المبرد، ط مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م .

١٤١. الكشاف (تفسير الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، للإمام الزمخشري محمود بن عمر، مطبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ .

١٤٢. كشف الأستار عن زوائد البزار، ط الأنوار المحمدية، بدون تاريخ .

١٤٣. كشف الخفاء ومزيل الإلباس، للمفسر المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٥١هـ .

١٤٤. لسان العرب، جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن علي أحمد بن أبي القاسم بن منظور، ط دار المعارف، ١٩٧٤م .

١٤٥. لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني، ط مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٠هـ، ط٢ .

١٤٦. لطائف الإشارات، للإمام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري القشيري الشافعي، المعروف بأبي القاسم زين الإسلام، ط دار الكتاب العربي القاهرة .

١٤٧. مباحث في علوم القرآن، مناع خليل القطان، مكتبة وهبة، ط٥، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م .

١٤٨. مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، حققه د . قصي الحسيني، دار الشمال، لبنان، ١٩٩٠م .

١٤٩. مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، ط دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ، ط١ .

١٥٠. محاسن التأويل، للإمام جمال الدين القاسمي، ط دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ .

١٥١. محمد ﷺوالمرأة، د . سامية منيسي، الناشر المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٦، القاهرة، ط١ .

١٥٢. محمد ﷺ، اتيين دينيه، وسليمان بن إبراهيم، ط دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١م .

١٥٣. المحمديات، د . فتحي الأيباري، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م .

١٥٤. مختار الصحاح، للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ط دار مصر للطباعة، بدون تاريخ .

١٥٥. المختار من تفسير القرآن العظيم، فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ .

١٥٦. مختصر تفسير ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، ط دار الصابوني، القاهرة، ط٨، ١٤١٥هـ-١٩٩٠م .

١٥٧. مختصر سيرة الرسول ﷺ، محمد بن عبد الوهاب، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط١، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

١٥٨. مدخل إلى الأدب الإسلامي، د . نجيب الكيلاني، سلسلة فصيلة تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والديني، قطر، ط١، ١٤٠٧هـ .

١٥٩. مدرسة الأنبياء (عبر وأضواء)، محمد بسام رشدي الزين، دار الفكر دمشق، ط٢، ٢٠٠١م.

١٦٠. المرأة العربية في ظلال الإسلام، عبد الله عفيفي، دار الشواف للنشر، بيروت، ١٩٩٢م .

١٦١. المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام ،د . محمد على الهاشمي .

١٦٢. المرأة بين الفقه والقانون، د . مصطفى السباعي، ط المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤ .

١٦٣. المرأة بين هداية الإسلام وغواية الإعلام، صلاح الدين مقبول أحمد، ط دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع الكويت، ط١، ١٩٩٧م .

١٦٤. المرأة عبر التاريخ، مونيك بيتر، بدون تاريخ .

١٦٥. المرأة في الإسلام، برهان زريق، ط دار كنعان للدراسات دمشق، ط١، ٢٠٠١م .

١٦٦. المرأة في القصص القرآني، د . أحمد محمد الشرقاوي، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م .

١٦٧. المرأة في الكتاب والسنة، يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، ط مكتبة الشرق الجديد، بغداد، بدون تاريخ .

١٦٨. المرأة في موكب الدعوة، مصطفى محمود الطحان، بدون تاريخ .

١٦٩. المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام ، د. محمد علي الهاشمي .

١٧٠. المرأة والإسلام، بكير عيتاني، دار الصداقة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م .

١٧١. المرأة والتربية الإسلامية، محمد الأباصيري خليفة، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٩٨٤م.

١٧٢. المرأة وحقوقها في الإسلام، مبشر الطرازي الحسني، كبير علماء تركستان .

١٧٣. المرأة ومكانتها في الإسلام، أحمد عبد العزيز الحصين، بدون تاريخ .

١٧٤. مركز المرأة في قانون حمورابي والقانون الموسوي، جان أمل دبك، ترجمة سليم العقاد، بدون تاريخ .

١٧٥. مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦ه، ط١ .

١٧٦. مرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير، د . سعود بن عبد الله الفنيسان، مكتبة التوبة .

١٧٧. مرويات غزوة بني المصطلق، إبراهيم بن إبراهيم قريبي، مؤسسة الكتب الثقافية .

١٧٨. المستدرك، على الصحيحين، للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وفي ذيله تلخيص المستدرك للإمام شمس الدين الذهبي .

١٧٩. المستطرف في كل فن مستظرف، محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي، تحقيق صلاح الدين الهواري، طبعة بولاق ١٩٢٠م .

١٨٠. مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط المكتب الإسلامي، ط دار المعارف بتحقيق أحمد شاكر، ١٩٥٧م .

١٨١. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للعلامة أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، ط المطبعة العثمانية ١٣١٢هـ .

١٨٢. مع الأنبياء في القرآن الكريم، عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، ط١٨، ١٩٩٣م.

١٨٣. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م .

١٨٤. المعجم الوسيط، إصدار مجمع اللغة العربية، القاهرة .

١٨٥. معجم مجمع الأمثال للميداني، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المطبعة السنية، القاهرة، ١٩٧٥م .

١٨٦. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ط البابي الحلبي، ط٢، ١٩٧٠م.

١٨٧. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للإمام فخر الدين الرازي، المطبعة البهية المصرية، ط١، ١٩٣٥م- ١٣٥٤هـ .

١٨٨. مفاهيم جغرافية في القصص القرآني، د . عبد العليم عبد الرحمن خضر، دار الشروق، السعودية، ط١، ١٩٨١م-١٤٠١هـ .

١٨٩. المفردات في غريب القرآن، للإمام أبي القاسم الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ط دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ .

١٩٠. المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم، د . عبد الكريم زيدان، ط مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م .

١٩١. مكاشفة القلوب، للإمام محمد الغزالي، بدون تاريخ .

١٩٢. مكانة السيدة مريم العذراء مقارنة بنساء العالمين، نعمة ناصر الشعراني، ط دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م .



١٩٣. مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية، سالم البهنساوي، ط٢، دار القلم، الكويت، ١٩٨٦م .

١٩٤. مكانة المرأة في الإسلام، حسن الحفناوي، ط دار البشير، القاهرة، بدون تاريخ .

١٩٥. مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الشريفة، د . محمد بلتاجي، ط دار السلام، مصر، ط١، ٢٠٠٠ .

١٩٦. من معين السيرة، صالح أحمد الشامي، ط المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٤ .

١٩٧. منهج الإسلام في النقد الأدبي، د . سيد عبد الرزاق، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م .

١٩٨. منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار القلم، القاهرة، ط٣، ١٩٦٧ .

١٩٩. منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، دار الشروق، بيروت .

٢٠٠. منهج القصة في القرآن، محمد شديد، شركة عكاظ للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م .

٢٠١. موسوعة أحكام المرأة المسلمة، نشوة العلواني، دار المكتبي، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م .

٢٠٢. موسوعة الحديث الشريف (الكتب الستة)، بإشراف ومراجعة الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع .

٢٠٣. موسوعة أمهات المؤمنين، عبد الصبور شاهين، وإصلاح عبد السلام الرفاعي، الزهراء للإعلام العربي، ط١ .

٢٠٤. موسوعة حياة الصحابيات، محمد سعيد مبيض، مكتبة الغزالي سوريا، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٠٥. موسوعة فقه عائشة أم المؤمنين، الشيخ سعيد فايز الدخيل، دار النفائس، سلسلة موسوعات فقه السلف .

٢٠٦. مئة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي السقا، دار ثابت للنشر، القاهرة، ط٥، ١٩٩٦م-١٤١٧هـ .

٢٠٧. مئة من أوائل النساء، سليمان سليم البواب، دار الحكمة، دمشق، بدون تاريخ .

٢٠٨. الميزان في تفسير القرآن، للأستاذ محمد حسن الطباطبائي، ط مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١٤٠٣هـ .

٢٠٩. نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، ط اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، بدون تاريخ .

٢١٠. نساء حول الرسول ﷺ ، د . محمود محمد رياض طعمة حلبي، دار المعرفة، بيروت .

٢١١. نساء رسول الله ﷺ، شرف الدين الدمياطي، تحقيق د . فهمي سعد، ط عالم الكتب، بيروت.

٢١٢. نساء مبشرات بالجنة، أحمد خليل جمعة، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .

٢١٣. نظرات تحليلية في القصة القرآنية، محمد مجذوب، دار الشرف الرياض، ط٥، بدون تاريخ .

٢١٤. نظرات في أحسن القصص، د . محمد السيد الوكيل، طبعة دار القلم، سوريا، ط١، ١٤١٥هـ.

٢١٥. نظرات في القرآن الكريم، الشيخ محمد الغزالي السقا، طبعة دار الكتب الحديثة، ط٥ .

٢١٦. نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري، المؤسسة المصرية العامة، نسخة مصورة، بدون تاريخ

٢١٧. النهج القويم في دراسة علوم القرآن الكريم، د . عبد الغني عوض الراجحي، طبعة البابي الحلبي، بدون تاريخ .

٢١٨. النهج المحمدي، عبد العزيز المسند، ط النادي الأدبي، الرياض، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م .

٢١٩. النور المبين في قصص الأنبياء، نعمة الله الجزائري .

٢٢٠. واقع المرأة الحضاري في ظل الإسلام، آمنة فتنت مسيّكة برّ، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط١، ١٩٩٦م .



فهرس الموضوعات

